أخلاقيات ووصايا خاتم النبين في الحروب

سر انتشار الإسلام

محمـد أحمـــــد صـبرة

النسخة الإلكترونية الأولى ٢٠١٧م

https://www.facebook.com/m.s.tartus
m.s.tartus@gmail.com
٠٠٩٦٣٩٨٨٢٨٩٨٩٢

مقدمة :

يقول ابن خلدون : « **اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل في الخليقة منذ برأها الله .. وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل** . » [1] لذا نجد أنه لم تخل صفحات التاريخ الإنساني من الحروب على مر الدهور وكر العصور ، بل أصبحت الحرب من الناحية الواقعية ضرورة إنسانية واجتماعية اقتضتها طبيعة الاختلاف البشري وحتميات الصراع المترتبة عليه [2] ، فحيثما كان هناك اختلاف ونزاع وتضارب مصالح ، فثمة نهاية لذلك من خلال صراع دموي بين المختلفين ، ونظرة استقرائية لسنوات الحرب في تاريخ البشرية مقابل سنوات السلم نجد أن حالة الحرب قد احتلت المساحة الأوسع من تاريخ العلاقات الإنسانية عبر التاريخ بما يوحي من حيث شهادة الواقع أن الأصل في العلاقات الإنسانية الحرب ، أما السلم فهي حالة استثناء ، فعلى مدى خمسة آلاف سنة حدثت (١٤٥٥٥) حربا تسببت في موت (٢٥) مليار إنسان تقريبا، وعلى مدى أل(٣٤٠٠)سنة الأخيرة من حياة البشرية لم تنعم البشرية إلا بمائتين وخمسين سنة سلام فقط .

و في إحصاء آخر يشير إلى أن البشرية شهدت (٢١٣) سنة حرب مقابل سنة واحدة سلام، وأنه خلال (١٨٥) جيلا، لم ينعم بسلم مؤقت، إلا عشرة أجيال فقط .ولعل أوضح استدلال على تلك الحقيقة هو حجم الحروب التي عرفتها البشرية بعد الحرب العالمية الثانية ، وذلك بالرغم من كثرة المنظمات الدولية الداعية للحد من النزاع المسلح ، وتقييد حالات انتشاره ، وإصدار قوانين متنوعة وإجراءات عقابية تحول دون الإقدام على الحرب أو التوسع فيها .فبالرغم من تلك الجهود على مستوى دول العالم أجمع خاصة بعد مآسي الحرب العالمية الثانية ، إلا أن العالم شهد ما يقرب من مائتين وخمسين نزاعا مسلحاً دولياً وداخلياً بلغ عدد ضحاياها (١٧٠) مليون شخص ؛ أي بما يعادل حدوث نزاع مسلح كل خمسة شهور تقريبا ينتج عنه خسائر في الأرواح والممتلكات والمعدات . [3]

أما دواعي الحروب وأسبابها[4]،فيمكن تلخيص أهم أسبابها عند الأمم المختلفة من خلال التالي :

الحاجة الضرورية المعاشية : وهذا السبب يفسر كثيراً من حروب الأقوام الرحل وأصحاب البوادي ؛ حيث كانت تشح الطبيعة عليهم بمقومات الحياة فيغيرون على أصحاب المدنيات المستقرين بقصد السلب والنهب ، وقد تدخل بعض حروب المغول وحروب الجاهلية تحت هذا السبب .

الطمع والاستكثار وفرض السيطرة على الآخرين بالقوة : وهذا يفسر كثيراً من الحروب في الماضي والحاضر ، من ذلك الحروب التوسعية التي قامت بها مصر الفرعونية ، والدولة الأشورية التي كانت تدمر البلد التي تغزوها ثم تسوق ما فيها من خيرات إلى أشور ، ولنفس الغرض كانت الحروب التي خاضتها فارس والروم ، ومن ثم الحروب الصليبية ، وبعد ذلك الاستعمار الغربي لكثير من بلاد العالم .

---

[1] ابن خلدون : المقدمة (٩٤)

[2] يقول الدكتور محمود الديك : « العلاقات بين البشر تتنابها الأهواء والأطماع دائماً وتنازع البقاء والأنانية المفطور عليها الإنسان والتنافس في أسباب الثروة والجاه والتزاحم على الشهوات والمحاماة عن الحق في وجه غارات الباطل ،كل ذلك جعل الحرب سنة طبيعية في الاجتماع البشري . » [المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام (١١)]

[3] انظر د جويلي : المدخل إلى دراسة القانون الدولي الإنساني (١)

[4] انظر ويلز : معالم تاريخ الإنسانية (١/١٥٦- ١٧٢) ؛ هيكل : الجهاد والقتال (١/ ٦- ٣٠)

السيطرة على العالم : وهذا يفسر أيضاً كثيراً من حروب آشور والإسكندر الأكبر ، والحقبة الاستعمارية ، والحروب بين فارس والروم التي كانت تهيجها فكرة السيادة على العالم القديم ، ومن ذلك حروب الرومان وقرطاج التي استمرت ١٢٠ سنة بين عملاقين لنيل السيادة والسيطرة ، وكذلك الحربين العالميتين التي اشتعلت لنفس الغرض .

الصراع على البلاد الهامة الاستراتيجية : ومن ذلك الحروب المتكررة عبر التاريخ على فلسطين ، وذلك لأهميتها الاستراتيجية ؛ حيث كانت تتوسط بين دول عظمى في العهد القديم كمصر والعراق ، ولأهميتها الدينية هيجت الحروب الصليبية في الماضي ، وكانت سبباً لقدوم اليهود إليها وما ترتب على ذلك من حروب .

الاختلاف الديني والعرقي : قد يكون الاختلاف في الدين سبباً لبعض الحروب الآثمة كما في الحملة التي قادها ملك حمير اليهودي ذو نواس من جنوب اليمن على نجران النصرانية ، والتي أغرق بسببها نجران في بحر من الدماء لأنها رفضت أن تتخلى عن دينها ، فمنيت بالإبادة الجماعية عن طريق القتل والتحريق بالنار ، وقد أشار القرآن لجانب من تلك الحرب المسعورة عند حديثه عن أصحاب الأخدود ، وكذلك يدخل تحت هذا السبب كل حروب التطهير العرقي ، وتعتبر هذه الحروب من أبشع الحروب التي عهدتها البشرية ، ومن أمثلة حروب التطهير ما حدث في اسبانيا ضد المسلمين ، وكذلك تدخل الحروب الصليبية ضمن الحروب التي يهيجها التعصب الديني ، وكذلك حرب أمريكيا على الهنود الحمر وإنهاء وجودهم يدخل ضمن حروب التطهير العرقي .

دفع الظلم أو نصرة مظلوم أو الحروب الدفاعية : وهذا السبب يفسر كل الحروب التي تكون من الجهة المقابلة للجهات المعادية بسبب الأسباب السابقة ، ومن أمثلتها أيضا أكثر حروب النبي ﷺ كما سيتضح ، ومنها في الجاهلية حرب الفجار التي كانت بين قيس وكنانة بعدما استخدم بعض شباب قريش حيلة أدت لكشف جسم امرأة فاستغاثت بقومها من قيس ، وثارت بسبب ذلك الحرب بين قيس وكنانة في الأشهر الحرم . هذه أبرز دواعي الحرب والأسباب المهيجة لها ، وهناك أسباب كثيرة فرعية آثرت عدم الخوض فيها لأنها تدور في فلك ما ذكرت .

أما بالنسبة لأخلاقيات الحرب عبر التاريخ : تعتبر الدوافع المهيجة لحرب ما من أعظم الأسباب الدالة على أخلاقية تلك الحرب ، وذلك من حيث النظر لأهدافها المعلنة والخفية ، فإن كانت الحرب ذات أهداف نبيلة يمكن النظر لها على أنها حرب أخلاقية ، وإن كانت الأهداف غير ذلك أمكن القول أن الحرب من بدايتها غير أخلاقية ، وبالتالي كل ما يترتب عليها يخرج من دائرة أخلاقيات الحرب ، وهذا واضح من المآسي والويلات والانتهاكات الخطيرة التي جرتها الحروب عبر التاريخ ، والمجال هنا لا يتسع للاستقصاء .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تتأثر أخلاقيات الحروب بطبيعة الأرضية الفكرية السائدة في المجتمعات ، وقد كان الناس في العصور القديمة والوسطى يرون الحرب بين دولتين أو كيانين هي حرب بين جميع رعاياهما لا بين قواتهما المقاتلة فحسب ؛ حيث كانت صفة العداء تلتصق بجميع رعايا دولة العدو وممتلكاتهم ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ومباني ، وشجر وحجر ، وكان للظافر المنتصر تذبيح السكان من أقوياء وعجزة . [٥] والحقيقة أن العدائية هذه لم تقتصر على العصور المذكورة ، بل العصر الحديث يعج بالويلات الدالة على سيطرة هذه الثقافة على المحاربين والحرب العالمية الثانية من أصرح الأدلة على هذا التوجه والتي امتزجت فيها الحرب بالعنصرية والتطهير العرقي والإبادة الجماعية ، والتدمير الكلي لمدن بأكملها على أهلها .

هذه نظرة إجمالية لأخلاقيات الحرب ، و لكي يتضح مستوى أخلاقيات الحرب في الماضي أسوق الأمثلة التالية :

---

[٥] انظر الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٢)

المثال الأول : حروب المغول على المشرق الإسلامي والعربي كانت من أبشع الحروب التي عرفتها البشرية ، فهذه القبائل البربرية التي بدأت حملتها من خوارزم حتى بلغت الشام ، وأكثر المدن التي دخلتها دمرتها بالكامل وكانت لا تخرج من مدينة حتى تقتل عامة أهلها وتذبح كل من وقع تحت يدها ، وتتمم جريمتها بتدمير المدن على باقي أهلها بتحريقها ، وعندما دخلوا سمرقند أعطوا الأمان لأهلها وطالبوهم بالخروج إليهم ، وعندما خرج أهل سمرقند للتتر قتلوهم عن آخرهم ، واستمر بهم الحال على ذلك في كل حصن أو مدينة يدخلونها حتى عم الرعب في النفوس وهرب الكثيرون في الجبال والمغارات ، وعندما وصل المغول لبغداد ارتكبوا أبشع جرائمهم ؛ حيث قاموا بالإجهاز على كل سكانها من الشيوخ والأطفال ودام النهب والقتل ٤٠ يوماً ، وبلغ عدد ضحايا المغول في بغداد لوحدها ثمانين ألفاً ، ثم قاموا بإحراق بغداد وتدمير مكتباتها ، ولكثرة الجثث الملقاة على الأرض خاف المغول من انتشار الوباء خاصة بعدما عصفت النيران بالجثث مع المباني .

ولم يبق المغول من أهل بغداد إلا جماعة من الشيعة والنصارى ، وبعد التدمير الكلي لبغداد وذبح أكثر أهلها ونهب كل ما فيها ، أصدر هولاكو قائد المغول أمراً بالأمان .وهذا الشكل الوحشي الذي تميز به المغول لم يقتصر على بغداد ، بل هو حال كل بقعة أرض وصلوا إليها ، وهي حرب لم تظهر فيها مسحة من أخلاق ، ولم تبق فيها حرمة لشيء [٦]

يقول ابن الأثير واصفاً فظاعة حروب التتار : « ... **فلو قال قائل : إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل ، وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة** . » [٧] ويقول الذهبي واصفاً كثرة القتلى في حروب التتار : « **وأما قتلاهم فلا ينتهي العاد إلى حد إلا والحال توجب أضعافه ، ولا يقال كم قتل في بلد كذا إنما يقال : كم بقي** . » [٨] ومن تتبع كتب المؤرخين عن حروب التتار يدرك مستوى الوحشية واللاإنسانية التي تميزت بها هذه الحروب ، وفظاعة هذه الحروب ليست في كثرة القتلى من جميع شرائح الشعوب فقط ، بل في الأساليب الوحشية التي اتخذها المغول في إفناء الشعوب وإبادتها .

المثال الثاني : الحروب الصليبية :[٩] وهي الحروب التي سلطت على المشرق الإسلامي خاصة على بلاد الشام بدوافع متعددة أبرزها التعصب الديني ، وهي أيضاً حروب لم تتصف بأي مسحة أخلاقية ، وذلك باعتراف النصارى أنفسهم ، وما أذكره من معلومات هنا هي من توصيف النصراني أميل الصورى في كتابه الحروب الصليبية مع شيء من التصرف ،من ذلك أنهم عندما دخلوا بلاد الشام ذبحوا الناس كالخراف ، بل نبشوا القبور وأخرجوا الجثث وعبثوا بها ، و عندما دخل الصليبيون أنطاكية ارتوت بالدماء من المذابح التي لا نهاية لها . وعند اقتحامهم بيت المقدس دخلوه مشرعين سيوفهم فاتكين بكل من يصادفون من أهل البلد دون مراعاة لشيخ أو طفل أو امرأة ، وكان في كل ناحية مذبحة مروعة ، وفي كل ركن أكوام من الرءوس

---

[٦] انظر : ابن كثير : البداية والنهاية (١١١/١٣ وما بعدها) ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (٤٩/٤٤ وما بعدها) ؛ العريني : المغول (٢١٩ وما بعدها) ؛ الخضري بك : الدولة العباسية (٤٨٠ وما بعدها)

[٧] ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٣٩٩/١٠)

[٨] الذهبي : تاريخ الإسلام (٤٩/٤٤ ، ٥٠)

[٩] انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ (١٩/٩ وما بعدها) ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (١٦/٣٤ وما بعدها)

المقطوعة حتى استحال السير في جنبات المدينة إلا فوق الجثث الملقاة ، وكان الدم المسفوك مخيفاً حتى أن المنتصرين أنفسهم سادهم الإحساس بالخوف وشعروا بالتقزز ؛ إضافة إلى كثير من الجثث المبقورة البطن والممزقة الأحشاء بحثاً عن المقتنيات الثمينة ، والتي ظن الجنود أن أهل المدينة قد ابتلعوها ليضمنوا عدم وقوعها بأيدي أفراد الجيش .

وحينما فر المسلمون إلى المسجد طلباً للحماية تعقبهم الصليبيون وأعملوا فيهم القتل ، ولم تأخذهم رحمة بأحد حتى فاض المكان بدماء الضحايا ، ويقال أنه قتل في داخل ساحة المسجد لوحدها عشرة آلاف . (١٠) إذا هذه بعض عبارات وليم النصراني في توصيفه لجانب من الحروب الصليبية ، وهي كما نلحظ يندى لها الجبين ، ولا تمس لأي نازع إنساني بصلة ، ولعل من أبشع جرائم الحرب التي ارتكبها الصليبيون فعلة ريتشارد (قلب الأسد) قائد الحملة الصليبية الذي أعدم ثلاثة آلاف أسير من المسلمين في فلسطين بعدما أعطاهم الأمان وقطع على نفسه عهداً بحقن دمائهم . (١١)

فإذا أضفنا لهذين المثالين مآسي الحرب العالمية الثانية التي بلغت خسائرها البشرية قرابة الستين مليوناً من القتلى المدنيين والعسكريين ، كما قتل سبعة عشر مليون طفل بالغارات الجوية ، ودمر ثلاثون مليوناً من الأبنية ، وعشرون مليوناً من المساكن ، ويكفي القول أن هتلر قد وقف على أعتاب مدينة وارسو قائلاً : كان هنا مدينة اسمها وارسو ، إضافة إلى معسكرات الإبادة التي شهدت أبشع جرائم الإنسانية . (١٢) وبالنظر إلى خاتمة الحرب على يد الجهة الأخرى نجد عظمة المأساة ، منها على سبيل المثال ما حل بأهل مدينتي ناجازاكي وهيروشيما ، تلك المأساة التي لم تبق من المدنيين إلا بعض المشوهين ، ولم تبق زرعاً ومبنى وحلت بها اللعنة إلى يومنا هذا ، أما مدينة برلين فأمكن القول بعد نهاية الحرب : كان هنا مدينة برلين .

هذا سرد مجمل عن أخلاقيات الحرب عبر التاريخ ، والخلاصة : لم تكن هناك أي مسحة أخلاقية أمكن التشبث بها في تلك الحروب إلا ما ندر مما لا يمثل اتجاهاً أخلاقياً ثابتاً .

أما طبيعة الثقافة الحربية التي تحكم المجتمع القبلي في الجزيرة العربية فهي حروب السلب والنهب والظلم ، تلك البيئة التي خرجت منها رسالة الإسلام بثقافتها الجديدة المستقاة من وحي السماء ،فرسمت صفحة مثالية للحروب الرحيمة المحكومة بالأهداف السامية مما يؤكد أنها بمثاليتها ليست وليدة ثقافة بيئتها بل هي تعاليم من لدن حكيم خبير مما لم يعهده العرب في جاهليتهم

أما رسالة الإسلام التي اتهمت ظلما أنها انتشرت بالسيف فهل تعلم أنه لا ذكر لكلمة السيف في القرآن ولا مرة واحدة في حين من المدهش حقًا أن كلمة السيف وردت في الكتاب المقدس قرابة ألفي مرة (عدد نتائج البحث ١٦٩٧ حسب إحصاء موقع الأنبا تكلا هيمانوت (١٣)) !! كما أن لفظ القتل وحده دون مشتقاته في الكتاب المقدس ورد [٢٠٨٤ حسب نفس الموقع] مرة في مقابل [٩٨] مرة في القرآن مع كافة مشتقاته !!

لقد فطن لبطلان دعوى انتشار الإسلام بالسيف الإنكليزي توماس كارليل، فقال : (إن اتهامه بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم -يقصد النبي محمد ﷺ- ؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد

---

(١٠) وليم الصوري : الحروب الصليبية (١/ ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٦٧) (٢/١٢٥، ١٢٧، ٢٢١)
(١١) انظر المرصفي : الرسول واليهود (٣/١٢٩٨)
(١٢) انظر خطاب : الرسول القائد (١٥)
(١٣) - https://st-takla.org/Coptic-Search-St-Takla.org/site_search.php?q=%D8%B3%D9%8A%D9%81&op=and

سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها)([١٤]) ،وكذلك المؤرخ الفرنسي "لوبون" قال: (قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند . التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل . ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها.. ولم يكن الإسلام أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا في الوقت الحاضر)([١٥])

إنَّ أكبر دولة في عصرنا الراهن تتشدَّقُ بالحرية، ومنها حرية التَّدَيُّن، قد تلجأ إلى التدخُّل في تلك الحرية بالتقييد والحَظْر، بقوة السلاح، لمصلحة تَراها، وخارج نطاق دولتها، ولا تجد مثل هذا يتعارض مع "حرية التدين" التي ترفع لواءها، أعني بهذا الكلام: "الولايات المتحدة الأمريكية" فقد جاء في كتاب "يوميات هيروشيما" ما نصُّه: (وكان من بين التطورات التي أدخلها الأمريكيون إلى اليابان بعد الهزيمة إجبار "الامبراطور" على إعلان أنه لا ينحدر من سلالة الآلهة، وأنه ليس سوى بشر مثل بقية الناس، لا يجب أن يُعبَد، فأُلغِيَت عبادة "الامبراطور" بصفة نهائية في عام ١٩٤٦م). أقول: إذا كان قد اعتُبِر استخدام أمريكا للقوة في إلغاء عبادة البشر عملًا إنسانيًّا مجيدًا –فإن استخدام الإسلام للقوة في إلغاء عبادة الحجر– على الرأي الذي يقول بذلك– هو عمل أكثر مَجَادَةً وإنسانية!. أَمْ –تُرَى– يختلف الحكم في الشيء الواحد بحَسَب ما إذا صدر من المسلمين أو من الأمريكيين؟؟!!.([١٦])

إن للمسلم في هذه الحياة مهمة جليلة وعظيمة وضحها الصحابي الجليل ربعي بن عامر في حواره مع رستم قائد الفرس ، عندما سأله قائلاً: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه حتى نفضي إلى موعود الله. فقال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أَبَى، والظفر لمن بقي([١٧]).

فإذا سُمِحَ لهم بتوصيل دعوة ربهم فبها ونِعْمَتْ، وإن لم يسمح لهم بذلك قاتلوا من يمنعونهم من إيصال الدعوة باللسان والحكمة. والذي يجب أن نعلمه أن كل رسول مُطالَب بالبلاغ، ومن مصلحة الناس في الدنيا أن يصلهم البلاغ ، والإسلام دين عالمي يجب تبليغه إلى الناس كافة، وقد ورد في كتاب الله تعالى آيات حول عموم الرسالة وعالمية الإسلام وأنها الرسالة الخاتمة للإنسانية والبشرية فلا رسالة سماوية بعدها، منها:

١ – {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ – أي القرآن– (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص:٨٧–٨٨].

٢ – {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا– أي كل حيّ –وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}[يس:٦٩–٧٠]

٣ – {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان:١].

٤ – {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ:٢٨].

([١٤]) – في كتابه " الأبطال وعبادة البطولة " نقلا عن حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٦٦ للعقاد ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

([١٥]) – غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص(١٢٨، ١٢٩) ط الهيئة المصرية للكتاب.

([١٦]) – انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، ١/٥٢٤، وكتاب: يوميات هيروشيما، د. متشهيكوهاتشيا، ص: ٢٤٢ تعريب: د. رؤوف عباس حامد ، عن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية د. محمد أحمد مبيض ص: ٨ – ١٠ .

([١٧]) – تاريخ الطبري ٥١٨/٣ دار التراث بيروت ط٢ و المنتظم لابن الجوزي ١٦٨/٤ دار الكتب العلمية ط١ والكامل لابن الأثير ٢٩٨/٢ دار الكتاب العربي بيروت ط١ والبداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٤٦ طبعة احياء التراث العربي ط١ .

٥ – {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف:١٥٨].

أساس تبليغ هذه الرسالة للناس بالحكمة والموعظة الحسنة {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أحسن} [النحل:١٢٥] أما الهدف النهائي لهذه الدعوة السلم في العلاقات الدولية والتعاون : {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [الأنفال:٦١]. والبر والقسط هو الاساس في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد الأمة جميعها : { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم...} [الممتحنة :٧] والعدل المطلق قوام المجتمع والحكم ، فلا تفاوت بسبب قرابة أو مودة أو عداء ، وتحقيق مبدأ المساواة في حقوق المواطنين، وتحريم الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض ،وجعل العمل الصالح لخير الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة منشأ كل تقدير أو شرف: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا} [الأنعام:١٣٢]. {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}

إنّ الإكراه لا يؤسس عقيدة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦]؛ لذلك فإن الإسلام لا يقهر ولا يجبر أحدًا على دين يرفضه، وعلى ذلك فالحرية مكفولة في أحكام دستور الإسلام، ولو صح قول بعضهم أن الإسلام سَلَّ سيفًا وفرض نفسه على الناس جبرًا، لما وجدنا شيئًا اسمه "الجزية" أو "ذميون"؛ فالجزية لغير المسلمين الذين لم يرضوا دخول الإسلام ولم يجبرهم الإسلام على اعتناقه، إنهم في حرية تامة، عقائدهم ومعابدهم محترمة، يطبقون أحكام دينهم فيما بينهم، وقد جاءت النصوص الصريحة تحرِّم إيذاءهم؛ فقد قال رسول الله ﷺ: "مَنْ آذَى ذِمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ" ،فالجهاد في أساسه وسيلة سلمية دعوية لنشر الإسلام : {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل:١٢٥] وعند وجود العوائق تصير لقتال المانع الجائر فهي :

١ – لإزالة عوائق الحرية العقلية، وحماية الشخصية الإنسانية من الانحدار في هوة من الإسفاف، وإتاحة المجال لإبراز خصائصها الخيِّرة، وتخليصها من شوائب الخرافة والوهم وعبادة المادة واستغلال المستضعفين؛ لتقرر كلمة الله في الأرض وتعلو.

٢ – ولرد الظلم والبغي والعدوان عن الدين والوطن والأهل والمال والولد: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج:٣٩]..... – ٣– ولكفالة حرية الدين والاعتقاد.

٤ – ولتأمين طريق الدعوة لدين الله بأمر من الله، باعتبارها رسالة اجتماعية إصلاحية، ومنقذة شاملة، تنطوي على مبادئ الحق والخير، والعدل والمساواة والإخاء، وعبادة الله وحده.

٥ – ولنصرة المظلومين المضطهدين من الشعوب: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال:٧٢].

يقول هيو كينيدي في مقدمة كتابه "الفتوح العربية الكبرى –كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه": (في ثمانينات القرن السابع الميلادي ،كان هنالك راهب اسمه حنا بارينكايا يؤلف ملخص لتاريخ العالم في ديره النائي بالقرب من نهر دجلة سريع الجريان تحتضنه الجبال التي تقع الآن في جنوب شرق تركيا ،وعندما وصل لكتابة تاريخ الزمن الذي يعيش فيه استغرق في تأمل الفتح العربي للشرق الأوسط الذي كان لا يزال ماثلا في الذاكرة ، وعندما فكر في هذه الأحداث الدرامية انتابته الحيرة فسأل نفسه كيف يمكن لرجال عراة يركبون دوما ترس أو درع أن يتمكنوا من الانتصار ويحطّوا من شأن روح الكبرياء الفارسية ؟، وقد صدمه أكثر أنه لم تمر سوى فترة زمنية قصيرة حتى تم تسليم العالم بأسره إلى العرب ، لقد أخضعوا كل المدن الحصينة وفرضوا سلطانهم من البحر إلى البحر ومن الشرق إلى الغرب –مصر ، وتكريت إلى قبادوقيا ، ومن اليمن إلى أبواب ألان(في القوقاز) ، والأرمن والشوام والفرس ،والبيزنطيين والمصريين ، وكافة المناطق فيما بينها كانت أيديهم فوق الجميع كما يقول النبي ؟.

وبالنسبة إلى حنانيا باربنكايا الذي كان راهبا تقيا كانت الإجابة واضحة : **إنها إرادة الرب** ، لم يكن هنالك آخر يمكن أن يفسر هذه الثورة الخارقة للعادة تماما في أمور البشر والآن وبعد ثلاثة عشر قرنا من الزمان ،في عالم لا يكون التدخل الإلهي تفسيرا كافيا للتغيرات التاريخية الكبرى بالنسبة لكثير من الناس ، تأتي محاولة اقتراح أنماط مختلفة من الإجابات ... ([18]))

إن **للحروب عند المسلمين آدابٌ جذبت الشعوب المغلوبة** ، لخصها الخليفة الأول أبو بكر الصديق في عشر خصال، جاءت في خطبته التي وَدَّعَ بها جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وفيها يقول: "يا أيها الناس، قفوا أُوصِكُم بعشر فاحفظوها عني: ١- لا تخونوا ولا تغلُّوا. ٢- ولا تغدروا ولا تمثلوا. ٣- ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا. ٤- ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة. ٥- ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه. ٦- ولا تقطعوا شجرة مثمرة. ٧- ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة. ٨- وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له. ٩- وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام؛ فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه. ١٠- وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقًا. اندفعوا باسم الله".([19])

ومن آداب الإسلام في الجهاد: عدم التمثيل بالقتيل، أو الإحراق بالنار، أو تجويع الأعداء، أو إرهاب الأسرى. ومن الآداب: ضرورة إعلان الحرب قبل البدء بالقتال؛ للابتعاد عن الخداع والخيانة، ولا تعلن الحرب إلا بعد استنفاد جميع وسائل النصح والدعوة، ثم عدم التفاخر بالنصر أو مُرَاءَاة الناس: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ} [الأنفال: ٤٧].

يقول السير توماس أرنولد : ((.. **لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها "فرديناند وإيزابيلا" دين الإسلام من إسبانيا،!!** أو التي جعل بها "لويس الرابع عشر" المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا،!! أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة))([20]).

هذا الكتاب مكوّن من بحثين البحث الأول تم تحت عشرة مطالب تصف سيرة النبي ﷺ في الحروب ووصاياه الرحيمة والتي كانت خلاصتها تقليل القتل في أدنى حد ممكن أو الخلاص فقط من أئمة الكفر كي تقف الحرب عند حدّ لا تتخطاه كي يأمن المدنيّون ، ومنع العقوبات الجماعية وتحريمها والحفاظ على ارواح النساء والأطفال والعمال الغير مقاتلين وأئمة الملل والدين الغير مقاتلين، وحمايتهم من البطش والانتقام ، وتقليل شهوة القتل عند أفراد الجيش ومنع العنف عند وجود الحل المسالم ، ومنع التخريب وإبادة مظاهر الحياة عند الخصوم تضمن المبحث الأول :

البحث الأول أخلاقيات النبوة في الحروب :

- **المطلب الأول : لم تكن حروب النبي حروب تخريبٍ كالحروب المعاصرة تقليل القتل .**

([18]) - هيوكينيدي ، الفتوح العربية الكبرى "كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه" ترجمة قاسم عبده قاسم ص ١٥ المركز القومي للترجمة بإشراف جابر عصفور ، القاهرة الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨

([19]) - تاريخ الطبري ٢٢٦/٣ طبعة دار التراث بيروت ط٢ .

([20]) - سير توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام –بحث في نشر العقيدة الإسلامية : ص ٢٢٨ وهو من المراجع الأساسية لهذا الكتاب ، فقد تم نقل نصوص أساسية منه للرد على بعض الشبه وهنالك دراسة بسيطة عنه في بحث انتشار الإسلام .

- **المطلب الثاني : الثقافة الحربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام .**
- **المطلب الثالث : نبي الرحمة ونبي الملحمة .**
- **المطلب الرابع : جهاد النبي ومبدأ الرحمة .**
- **المطلب الخامس: الوصايا النبوية المتعلقة بأخلاقيات الحرب .**
- **المطلب السادس: حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام .**
- **المطلب السابع: غايات الحرب في حياة النبي محمدﷺ وأهدافها السامية .**
- **المطلب الثامن: إحصائية شاملة عمّا جرى في حروب النبي ﷺ من أحداث .**
- **المطلب التاسع : حروب النبي ﷺ في نظر المنصفين .**
- **المطلب العاشر : رد شبهتي التجاوز في التعامل مع بني قريظة والاغتيال السياسي .**

البحث الثاني ويتحدث عن انتشار الإسلام ويقارن بينه وبين انتشار المسيحية في دول أوروبا وفيه خمسة مطالب :

- **المطلب الأول : انتشار الإسلام بالسيف في تبليغ تعاليمه ونشر مبادئه، تهمةٌ باطلة لعوامل متعددة .**
- **المطلب الثاني : لماذا شُرِع الجهاد في الإسلام؟ أليْس لإجبار النَّاس على اعتِناق الإسلام؟**
- **المطلب الثالث: الفتوحات الإسلامية بين ردّ العدوان ونشر الدعوة .**
- **المطلب الرابع: الحرب في الكتب المقدسة وانتشار المسيحية أيهما انتشر بحد السيف ؟ الحروب الدموية!**
- **المطلب الخامس : سر انتشار الإسلام السريع .**

هذا وقد استفدت مما كتب الدكتور محمد أحمد المبيض في كتابه أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية بالدرجة الأولى ، والدكتور راغب السرجاني في كتابه: أخلاق الحروب في السنة النبوية ،والدكتور حميد الصغير في أخلاقيات الحروب في السيرة النبوية فلهم الشكر ، ومن كتب الشيخ محمد الغزالي عامة ككتب فكرية.

البحث الأول: أخلاقيات النبوة في الحروب

- المطلب الأول : لم تكن حروب النبي حروب دموية وتخريبٍ للحياة كالحروب المعاصرة .
- المطلب الثاني : الثقافة الحربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام .
- المطلب الثالث : نبي الرحمة ونبي الملحمة .
- المطلب الرابع : جهاد النبي ومبدأ الرحمة .
- المطلب الخامس: الوصايا النبوية المتعلقة بأخلاقيات الحرب .
- المطلب السادس: حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام .
- المطلب السابع: غايات الحرب في حياة النبي محمدﷺ وأهدافها السامية .
- المطلب الثامن: إحصائية شاملة عمّا جرى في حروب النبي ﷺ من أحداث .
- المطلب التاسع : حروب النبي ﷺ في نظر المنصفين .
- المطلب العاشر : رد شبهتي التجاوز في التعامل مع بني قريظة والاغتيال السياسي .

١ – هل اتسمت حروب النبي محمد ﷺ بالدموية ؟

خلاصة أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية !

لم تكن حروب النبي حروب تخريبٍ كالحروب المعاصرة التي يحرص فيها المتقاتلون على إبادة مظاهر الحياة لدى خصومهم، بل كان النبي والمسلمون يحرصون أشدّ الحرص على الحفاظ على العُمران في كل مكان، ولو كان بلاد أعدائهم؛ فقد جاء في وصيّة الرسول ﷺ لجيش مؤتة: "ولا تَقْطَعَنَّ شَجَرَةٍ وَلا تَعْقِرَنَّ نَخْلا ولا تَهْدِمُوا بَيْتًا([٢١])"

تميَّزت حروب الرسول بأنها حروب غير دموية، بمعنى أنها لم يكن فيها ما يُعرف الآن بجرائم إبادة الشعوب، حيث نجد فيما يُسمى بحضارات العالم الحديثة أن بعض الزعماء أخذوا قرارات نتج عنها إفناءٌ لِكَمٍّ هائلٍ من البشر في مدينة أو دولة أو أحيانًا قارة!. لم تكن حروب الرسول على هذه الصورة، ذلك أن النبي كان حريصًا على تجنب القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإذا اضطر إليه حاول أن ينهيه بسرعة، وأثناء القتال نفسه كان يحفظ دماء المدنيين، وكذلك يحفظ دماء المستكرهين([٢٢]) على القتال، ثم بعد القتال كان يعفو إذا ملك، ويسامح ويرحم إذا غَلَب. فجاءت حروب الرسول ﷺ على مستوى من الرقي لا تعرفه – بل لا تفهمه – "الحضارات" الحديثة!

لغة الأرقام لا تكذب! فلقد تم إحصاء عدد الذين ماتوا في كل غزوات الرسول وحروبه ﷺ ، سواء من شهداء المسلمين، أو من قتلى الأعداء، وبتحليل هذه الأعداد، وربطها بما يحدث في عالمنا المعاصر، ترى العجب! لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كل معاركهم أيام رسول الله ، وذلك على مدار عشر سنوات كاملة، ٢٦٢ شهيدًا، وبلغ عدد قتلى أعدائه صلى الله عليه وسلم ١٠٢٢ قتيلاً، حرصت هذه الإحصائية على جمع كل من قُتل من الطرفين حتى ما تم في حوادث فردية، وليس في حروب مواجهة، و الجمع من الروايات الموثَّقة بصرف النظر عن الأعداد المذكورة، وذلك كي أتجنب المبالغات التي يقع فيها بعض المحققين بإيراد الروايات الضعيفة التي تحمل أرقامًا أقل، وذلك لتجميل نتائج غزوات الرسول ﷺ . وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلاً فقط([٢٣])!!

ولكي لا يتعلل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة ولذلك جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإنني قمت بإحصاء عدد الجيوش المشتركة في المعارك، ثم قمت بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد الجيوش، فوجدت ما أذهلني!! إن نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١% فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢%! ، وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي ١,٥% فقط! إن هذه النسب الضئيلة في معارك كثيرة بلغت ٢٥ أو ٢٧ غزوة ، و٣٨ سرية ([٢٤])، أي أكثر من ٦٣ معركة، لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحروب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

([٢١]) – البيهقي في سننه الكبرى (١٧٩٣٥)

([٢٢]) – الذين خرجوا في جيش الأعداء مكرهين لقتال المسلمين وهم في المعركة لا يقاتلون إلا دفاعا عن النفس .

([٢٣])– اعتمدت في حصر الأرقام على ما ورد أولاً في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، ثم على روايات كتب السيرة بعد توثيقها، كسيرة ابن هشام، وعيون الأثر، وزاد المعاد، والسيرة النبوية لابن كثير، والطبري، وغيرهم. يذكر بعضهم أن شهداء حادثة بئر معونة هم سبعة وعشرون شهيدًا بينما الصواب سبعون شهيدًا، أو كما يُسقط بعضهم قتلى بني قريظة من الحساب بحجة أنهم لاقوا ما يستحقون نتيجة خيانتهم، بينما الصواب أن نثبتهم لأنها كانت معركة حقيقية بصرف النظر عن أسبابها .!

([٢٤]) – ابن القيم الجوزية: زاد المعاد ١٢٥/١، ابن حزم: جوامع السيرة ١٦/١. ابن كثير: السيرة النبوية ٤٣٢/٤.

ولكي تتضح الصورة بشكل أكبر وأظهر وبإحصاء عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية كمثال لحروب الحضارات الحديثة وبحساب نسبة القتلى بالقياس إلى أعداد الجيوش المشاركة في القتال، تصُدِمْ بمفاجأة مذهلة!!! إن نسبة القتلى في هذه الحرب الحضارية بلغت ٣٥١% !!! ومن جديد.. إن الأرقام لا تكذب!!! لقد شارك في الحرب العالمية الثانية ١٥.٦٠٠.٠٠٠ جندي، ومع ذلك فعدد القتلى بلغ ٥٤.٨٠٠.٠٠٠ قتيل!!! أي أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش المشاركة! وتفسير هذه الزيادة هو أن الجيوش المشاركة جميعًا – وبلا استثناء – كانت تقوم بحروب إبادة على المدنيين، وكانت تسقط الآلاف من الأطنان من المتفجرات على المدن والقرى الآمنة، فتبيد البشر، وتُفني النوع الإنساني، فضلاً عن تدمير البنى التحتية، وتخريب الاقتصاد، وتشريد الشعوب!! لقد كانت كارثة إنسانية بكل المقاييس! وليس خافيًا على أحد أن المشاركين في هذه المجازر كانت الدول التي تعرف آنذاك – والآن – بالدول المتحضرة الراقية! كبريطانيا وفرنسا وأمريكا وألمانيا وإيطاليا واليابان!

أي تحضّر هذا؟! وعن أي رقيٍّ يتكلمون؟! ثم أين أولئك الذين يصفون رسولنا ﷺ بالعنف والإرهاب؟! قارن هذه النسب المفجعة بما كان على عهد رسول الرحمة ﷺ إن العودة للأرقام سترد كل مُنصفٍ إلى جادَّة الطريق([٢٥])!! إن شخص رسول الله(الرحمة للعالمين) أبعد ما يكون عن حمل الناس على اعتناق الإسلام بالسيف، وهو الذى قال لأعدائه بعدما قدر عليهم: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " هكذا دون شرط أو قيد، حتى دون اشتراط الإسلام عليهم . فلما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح ووجد رجالات قريش جالسين مطأطئ الرؤوس ينتظرون حكم رسول الله ﷺ الفاتح فيهم، فقال: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم»؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فعفا عنهم بعدما ارتكبوا من الجرائم ضده وضد أصحابه ما لا يقادر قدره، ولا يحصى عده، ومع هذا فقد عفا عنهم ولم يعنف ولم يضرب. ولم يقتل ([٢٦]).

والنتائج الحقيقية: تحويل العرب الوحوش إلى عرب متحضرين، والعرب الملحدين الوثنيين إلى عرب مسلمين موحدين و القضاء على أحداث السلب والنهب وتعزيز الأمن العام في بلاد تفوق مساحتها مساحة فرنسا بضعفين .

لقد غيّر النبي ﷺ أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان وأخذ الثأر والفوز بالوتر وكبت الضعيف وتخريب العمران وتدمير البنيان وهتك حرمات النساء والقسوة على الضعيف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل والعبث والفساد في الأرض في الجاهلية، إذ صارت هذه الحرب في الإسلام جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة وأغراض سامية وغايات محمودة يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان وغدت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان.

إن تحول المجتمع إلى نظام العدل والنصف بدلاً عن نظام يأكل فيه القوي الضعيف، حتى يصير المجتمع إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ الحق منه وصارت بذلك الحرب جهاداً لتخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون

([٢٥]) – دراسة قام بها الأستاذ الدكتور راغب السرجاني ونشرها على موقعه وفي كتبه بعنوان هل اتسمت حروب النبي محمد بالدموية ؟ راجع كتابه :" أخلاق الحروب في السنة النبوية " ص : ١٥٤– ١٦٢. راجع بالنسبة للأعداد كتاب" رحمة للعالمين "للمنصور فوري المجلد الثاني حيث لم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فقمت بجمع الأعداد من القتلى حسب المعارك النبوية.

([٢٦]) – النسائي في السنن الكبرى ح(١١٢٣٤)والأزرقي في أخبار مكة ١٢١/٢ الناشر دار الأندلس بيروت و وأخرج فقرات منه تختلف طولاً وقصراً: ابن أبي شيبة في مصنفة ١٤/ ٤٨٧ برقم (١٨٧٥٠)، وأحمد ٢/ ٢٠٧، وأخرجه أحمد ٢/ ١٧٩، ٢١٢ –٢١٣، وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" ٥/ ٨٦

ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً. وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان وغدت وسيلة لبسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

أومن قام بتبديل الحرب من شرٍّ محضٍ إلى خيرٍ محضٍ يكون إرهابياً أو سفاكٍ للدماء؟. أفترى من يأمر بهذا العدل والإنصاف والرحمة والرأفة حتى مع العدو أثناء القتال يمكن أن يوصف بأنه إرهابي أو قاتل أو سفاك للدماء؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!! علماً بأن جميع البلاد التي فتحها بالسيف ظهر فيها الإسلام وانتشر ثبت أهلها على الإسلام وصاروا دعاة له ومدافعين عنه، مما يؤكد أن انتشار الإسلام وثباته لصفاته الذاتية فيه وليس انتشاره عائداً إلى نشره بالقوة السيف فقط كما أن أكثر بقاع الإسلام وبلاده مما فتح سلماً دون حرب أو قتال كما ثبت ذلك في دواوين السيرة وكتب التاريخ.

صورة سريعة حول المواجهات الحربية النبوية : بدأ الرسول الكريم ﷺ دعوته بأن عرض الإسلام والقرآن على أصحابه الثقات فأسلم أبو بكر وعثمان والزبير وابن عوف وغيرهم وكلهم أغنياء ميسورين ،وعرض نفسه في مواسم الحج على القبائل داعيا لدين الله " التوحيد " فاستجاب له قوم من الأوس والخزرج وبقي النبي يدعو قومه في مكة محتملا الأذى والالم والظلم والفتنة ثم هاجر إلى المدينة دون أن يريق قطرة دم وبعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة اضطر النبي أن يحارب الفئات التالية مكرها فلم يترك ودعوته :

١– قريش " سكان مكة " ٢– اليهود في المدينة وخيبر ٣– الروم والغساسنة العرب الخاضعين لهم ...

أما قريش ([٢٧]): هاجر النبي وأصحابه وصودرت أملاكهم وأموالهم فظُلم وظُلم أصحابه وفي المدينة أعلن على قريش حربا اقتصادية استباقية يرغمها على الاعتراف بحقوقه في مكة وحقه في نشر الدعوة لعلمه بنية قريش تأليب العرب ومقاطعتهم ليثرب فقريش كلمتها مطاعة فلا تريد انتشار الدعوة الجديدة كي لا تذهب سمعتها وهيبتها وبعدما أسلمت أسلم العرب فقد استمرت ملاحقة قريش للمهاجرين داخل المدينة ، وتهديد النبي ﷺ فقد اشتد خوفها وحرصها على القضاء على النبي وصحبه ؛ لذا بدأت المؤامرات تحاك للكيد بالمسلمين ، منها محاولة خطف بعض المهاجرين من داخل المدينة كما حصل من أبي جهل والحارث بن هشام مع عياش بن أبي ربيعة لذلك كان النبي يحرسه صحابته عند مقدمهم للمدينة خوفا من محاولات الاغتيال، إضافة إلى التضييق على كل مهاجر ، ومن أفلت بشيء من ماله لاحقته كما حصل مع صهيب ، وأرسلت للمسلمين تقول لهم : « **لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم** . » [٢٨] ، فخرج النبي ﷺ في بدر يريد قافلة ابي سفيان التي فيها أموال أصحابه التي نهبت في مكة لكنها تمكنت من النجاة ، فخرجت قريش رياء ومفاخرة بكامل قوتها حتى عبيدها خرجوا ،تريد إفناء العصبة الموحدة كي لا يعبد الله في الأرض فأذن الله لنبيه بالقتال : {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠)واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل } (البقرة) . { وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها }[النساء:٧٥] .

([٢٧]) – انظر الحلبي : السيرة الحلبية (٤٧٢/١ وما بعدها) ؛ ابن كثير : البداية والنهاية (٥٤/٣) ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم (٩١–١٠٣) ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (١٨٦/١) ، ابن سيد الناس : عيون الأثر (٢٣١/١وما بعدها) ؛ الصلابي : السيرة النبوية (١/ ١٥٧–٢٢٤) الجزائري : هذا الحبيب (٩٨–١١٩) ؛ البوطي : فقه السيرة (٧٩–٩٨) ،

([٢٨]) – المنصور فوري : رحمة للعالمين (١١٦/١) نقلاً عن الرحيق المختوم (٢١٦)

فنرى القتال لم يشرع إلا دفاعا عن النفس وما إلى ذلك من العرض والمال وما يذكر لرسول الله بالفخر والكرامة أنه في بدر ما أراد قتالا أو سفك دماء وأنه أرادها حربا اقتصادية لتهادنه قريش وتسمح له بنشر دعوته التي تمنعه من نشرها وليعوض عما ذهب وصودر من أموال أصحابه . وفي أحد أراد البقاء في المدينة والمحاصرة لدفع قريش بأقل خسائر ،وفي الخندق اتخذ النبي موقف المدافع وفرّق قريشا بإنشاب خلاف بينهم كي لا تُزهق أرواح من الطرفين ، وعندما أراد فتح مكة أغلق وقطع الطرق الذاهبة إلى مكة وليفهم قريشا التي تطاولت على صلح الحديبية ولم تفِ بعهدها استخفافا وحقدا عندما رأت القبائل تدخل في دين الله بالإقناع والموعظة الحسنة .

أراد النبي دخول مكة دون أن تزهق أرواح أو تراق دماء فلما وصل قرب مكة جاءه أبو سفيان فقال النبي للعباس : **اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله** ([٢٩]) أراد النبي أن يقنع ابا سفيان بعدم جدوى المقاومة وهذا ما فعله أبو سفيان فقال لأهل مكة : **يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به**([٣٠]) ... وعهد النبي لأمرائه عند دخول مكة " **أن لا يقتلوا أحدا إلا من قاتلهم** ([٣١])" . كان النبي حريصا على عدم سفك الدم وهو حريص على سلامة الدماء ولو كان صاحبها على شركه و وثنيته .

ألم يكن النبي محقا في محاربته لقريش ، ألم يكن في موقف الدفاع أمام من ناصبوه العداء وحاولوا القضاء على رسالته ولم يراعوا فيه إلا ولا ذمة فأخرجوه وصحبه من ديارهم وصادروا أموالهم، استطاع بهذه الحروب أن يحرر الجزيرة العربية من الشرك والوثنية بأقل الخسائر وخلال مدة وجيزة فخلال مدة ،إن حروب النبي لم يتجاوز قتلى الحروب من العرب أربعمائة وأربعين رجلا ! فأي دعوة في العالم حققت مثل هذه الانتصارات في مثل هذه المدة الزمنية وبهذه القلة القليلة من الخسائر البشرية .؟ ([٣٢]) هذا وقد **اعترف مرجليوث بأن محاربة النبي لقريش كان أمرا مشروعا وإنسانيا** ([٣٣]). من خلال السرد الإجمالي لظروف حروب النبي ﷺ مع المشركين يمكن استنتاج التالي : إنها حروب ألجأت لها الضرورة حيث لم يبق وسيلة غيرها . إنها حروب من أجل السلام . إنها حروب تهدف من الدرجة الأولى حماية المسلمين من سطوة الظالمين الذين حاولوا بأي وسيلة سلب حريتهم الدينية ومصادرة أموالهم وبيوتهم بل مصادرة أرواحهم ([٣٤]).

أما حروب النبي ﷺ مع اليهود : فلنا معها وقفة طويلة في رد الشبهات : قال المستشرقون " حاول محمد ﷺ أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد !! وباستعمال وسائل غير مقدسة ([٣٥])" . إن مرجليوث عذر النبي ﷺ في حروبه لقريش ولحروبه ليهود المدينة لكن لم يعذره في غزوه لخيبر .! أجلى النبي بني قينقاع عن المدينة بعد بدر لمؤامرتهم وتطاولهم وغرورهم فمما قالوا : " يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة فلو حاربتنا لعلمت أنا الناس ويقول ابن الاثير ([٣٦]) فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه ثم يذكر قصة المرأة المسلمة التي تعرض لها اليهود في سوق قينقاع ... والنبي محق كل الحق في إجلاء بني النضير بعد أحد لتطاولهم وتآمرهم مع قريش ضد المسلمين ومحاولتهم اغتيال النبي وكذلك ببني قريظة بعد

([٢٩]) – الطبري (٣ / ٥٤) ،والكامل (١١٩/٢) ، وعيون الاثر (١٧٠/٢) .
([٣٠]) – الطبري (٥٤/٣) والكامل لابن الأثير (٢/ ١٢٠) .
([٣١]) – الطبري والكامل (٢ /١٢١) .
([٣٢]) – راجع الاسلام في قفص الاتهام ص ٩٥ –٩٨ .ومقدمة كتاب غزوة بدر الكبرى لنفس المؤلف
([٣٣]) - Muhammad and the Rise of Islam, David Samuel Margoliouth , pp. 462-3
([٣٤]) – د. محمد احمد المبيض أخلاقيات الحروب في السيرة النبيوية ص : ٢٥ .
([٣٥]) – يوليوس فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ١٥ ، ٢٢ .
([٣٦]) – الكامل لابن الأثير (٣٠/٢). دار الكتاب العربي بيروت طبعة ١٩٩٧ .

الخندق لنكثهم عهودهم مع النبي في أشد الساعات حرجا لاستئصال المسلمين بشكل تام بعد أن ساعدوا قريشا وحرضوها ضد النبي.

مع كل صلف اليهود واستكبارهم كان الرسول ﷺ يرفق بهم إذا نقضوا عهدهم أو حاربهم فانتصر عليهم فكان لا يعاقبهم إلا بمقداء ما يكف أيديهم عنه ، وكان يحكّم فيهم من يختارونه بأنفسهم حكما عليهم بينه وبينهم ، وصفوة القول أن معاملة النبي إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها([٣٧]) . إن اليهود عزّ عليهم أن يروا أرستقراطيتهم مهددة باستقرار أمر العرب والتفافهم حول رسول الله فلا ضمان لمركزهم والأمر هكذا فكانوا ينقضون عهودهم في أحرج الاوقات ويمالئون أعداء المسلمين عليهم ليستأصلوا شأفتهم و يبيدوهم عن آخرهم حتى أنهم حاولوا قتل رسول الله مرتين مرة بفخذ شاة مسمومة ومرة بإلقاء حجر عليه من سطح دار كان جالسا في صحنها .([٣٨])

أما بالنسبة لخيبر فأمر مرجليوث عجب ،إن التاريخ ينص بصراحة أن اليهود عندما أخفق العرب في القضاء على محمد ﷺ جمعوا شملهم وتحزّبوا أحزابا واستعدوا للإغارة على المدينة ليدهموا المسلمين فيها وعلم النبي بتأهبهم للإغارة والقضاء على الإسلام في معقله فعاجلهم وسار إليهم سار إلى خيبر صاحبة الزعامة والرأس المدبر ليهود المنطقة (يهود تيماء وفدك ووادي القرى ومهاجري يهود المدينة الذين استقروا فيها)، إن موقف يهود خيبر معروف حيال الدعوة وعداؤهم العلني العملي للإسلام ومكائدهم المتواصلة والتاريخ يدحض هوى مرجليوث فإن الرسول أتي بعين (جاسوس) فأقر أنه مرسل إلى خيبر يعرض معونة يهود فدك ونصرتها على أن يجعلوا لهم ثمر خيبر والذي قبض على العين علي بن أبي طالب وقال العين " إن جميع اليهود سيمدون خيبر بالمعونة ([٣٩])" لكن شك مرجليوث في صدق ما قاله التاريخ لأن صدق التاريخ في هذه الحالة يدحض دعواه ويصد هجماته على النبي .

أما حروب النبي ﷺ ضد الغساسنة وأسيادهم الروم : ففي مؤتة أرسل النبي في السنة الثامنة للهجرة رسولا للحارث بن أبي شمر الغساني ملك الغساسنة يدعوه للإسلام فقتل الحارث رسول رسول الله : شجاع بن وهب الأسدي وليس هكذا تعامل الرسل والوفود وهذا انتهاك للعرف الدولي القائم أن الرسل لا تقتل مهما عملت وتكلمت وقال : من ينزع مني ملكي أنا ذاهب إليه([٤٠]) مع أنّ النبي ما أراد منه ملكه بل أراد هدايته واسلامه لينتشر الإسلام في الشام والبلقاء، لذا سيّر النبي جيشا من ثلاثة آلاف مجاهد بقيادة زيد بن حارثة لتأديب من قتل ممثل الإسلام والنبوة فلقي زيد جموع الغساسنة والروم ، إن النبي ما رفع سيفا بوجه الغساسنة وأسيادهم الروم إلا بعد قتل رسوله إليهم واستعداد الحارث للسير إلى المدينة لحرب الإسلام في عاصمته فكانت مؤتة عملا دفاعيا استباقيا.

أما تبوك : فقد بلغ النبي أن الروم تجمعوا على حدود فلسطين لقتال المسلمين ومعهم بعض القبائل العربية المتنصّرة فدعا المسلمين للخروج إليهم قبل أن يغزوهم في عقر دارهم ، وصل النبي تبوك وأقام فيها أياما وصالحه أهلها بعد انسحاب الجيش الرومي باتجاه الشمال وصالح أمير دومة الجندل وأيلة وعاد دون سفك دماء ، ألم يكن المسير لأسباب مشروعة ، لقد خاض

([٣٧]) – د .حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام : ١ / ١٣٢.

([٣٨]) – المنتظم لابن الجوزي (٢٩٧/٣) و (٢٣٧/٤) دار التراث العربي و تاريخ الاسلام للذهبي (٢٥١/٢) طبعة التوفيقية .

([٣٩]) – د.حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ١٣٤/١ .

([٤٠]) – ابن كثير البداية والنهاية (٢٠٤/٤) احياء التراث العربي ، والطبري وابن الأثير .

النبي حروبا عادلة بعد أن وضع السلم أساسا لسياسته والحرب للدفاع وكان الحفاظ على الأرواح أمله وكان تأديب الظالم المغرور بأقل الدماء هدفه وكان التسامح منطبعا في ذاته وهو غايته ، إنه القدوة الحسنة لمن بعده في الجهاد .

الخلاصة: كانت الجبهة الشمالية ناحية الشام تراقب هذا الكيان الناشئ ، وتشعر بخطره عليها ، وبدأ عرب الشام بإشعال فتيل الصراع بين المسلمين والروم البيزنطيين من خلال عدة تحرشات ومضايقات بالمسلمين ، كان أهمها إيذاء التجار المسلمين الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة ، وكان وراء هذه المضايقات قبيلة كلب بدومة الجندل ، فقام النبي ﷺ بغزوها ، لكنهم تفرقوا ولم ينل منهم النبي ﷺ ، ثم حصل الموقف نفسه من قبيلتي جذام ولخم اللتين قطعتا الطريق على المسلمين واستلبت كل ما معهم ،فأرسل عليهم النبي ﷺ زيد بن حارثة في سرية سنة ٦هـ . (٤١) وقام نصارى الشام بزعامة الامبراطورية الرومانية بالاعتداء على كل من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك ، فقد قتلوا والي معان حين أسلم ، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام . (٤٢) علم النبي ﷺ من خلال التجار الأنباط أن الروم جمعت جموعاً لغزو المدينة ومعهم كثير من متنصرة العرب كلخم وجذام ، وأن مقدماتهم قد عسكروا في البلقاء . (٤٣)

استطاع النبي ﷺ أن يؤمن حدود الجبهة الشمالية ، ويبسط هيبة المسلمين فيها ويضمن الحماية للتجار المسلمين ولمن أسلم في تلك الناحية من عدم تعرضه للإيذاء أو التعذيب ، ونلحظ على هذه الغزوة أنها لم يحصل فيها قتال ، أما السرايا التي خرجت منها فكان الهدف الأول منها تحقيق الموادعة والسلام مع أمراء تلك المناطق ، فهي حرب باردة من أجل السلام . (٤٤) ومع بقاء التهديد الروماني للمسلمين في تلك الناحية أعد النبي ﷺ جيشاً آخراً للمواجهة مع الروم واختار له أسامة بن زيد ﷺ قائداً ، وعاجلته الوفاة قبل خروج الجيش فأوصى في لحظاته الأخيرة بإنفاذه ، فأكمل خلفاؤه بعده المسيرة التي انتهت بفتح الشام ومصر ([٤٥]).

٢– الثقافة الحربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام :

سجلت كتب التاريخ والأدب العربي ما اشتهر وعرف بأيام العرب، وهى عبارة عن مجموعة من الملاحم القتالية التي نشبت بين العرب قبل مبعث النبي والذى يعنينا هنا أن نقف على بعض الجوانب التي تصلح للمقارنة (الأسباب ـ الزمن المستغرق ـ الآثار التي خلفتها هذه الحروب) . وقد ذكرت كتب التواريخ أياماً كثيرة للعرب (البسوس ـ وداحس والغبراء ـ يوم النسار ـ يوم الجفار ـ يوم الفجار ـ يوم ذي قار ـ يوم شعب جبلة ـ يوم رحرحان ٠٠٠ إلخ) والمتأمل في هذه الملاحم والأيام يرى أن الحماسة الشديدة والعصبية العمياء وعدم الاكتراث بعواقب الأمور والشجاعة المتهورة التي لا تتسم بالعقل، كانت هي الوقود المحرك لهذه الحروب، هذا فضلاً عن تفاهة الأسباب التي قامت من أجلها هذه المجازر، والمدة الزمنية الطويلة التي استمرت في بعضها عشرات السنين، والآثار الرهيبة التي خلفتها هذه الحروب([٤٦]) ، إن الكلمات التي قيلت في وصف آثارها من الفناء والخراب وتيتم الأطفال وترمل النساء ٠٠٠ إلخ لتوقفنا على مدى ما أحدثته الحرب في نفوس الناس من اليأس والشؤم، ويصف لنا الشاعر زهير

---

(٤١) انظر الحلبي : السيرة الحلبية (١٧٩/٣)
(٤٢) انظر الحلبي : السيرة الحلبية (٧٨٦/٢) ؛ الذهبي : تاريخ الإسلام (٤٧٩/٢) ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم (٤٣٥)
(٤٣) انظر الملاح : الوسيط في السيرة النبوية (٤٨٤)
([٤٤]) انظر أبو شهبة : السيرة النبوية القرآن والسنة (٥٠٣/٢)
([٤٥]) – د. محمد أحمد المبيض ، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ص ١٨–٢١
([٤٦]) – العلامة محمد أمين البغدادى ، سبائك الذهب ص ٤٤٣ ط دار الكتب العلمية

بن أبي سلمى طرفاً من ذلك في معلقته المشهورة وهو يخاطب الساعين للسلام بين عبس وذبيان: تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفا.....نوا ودقوا بينهم عطر منشم

يقول الشاعر للساعين للسلام: إنكما بتحملكما ديات الحرب من مالكما، أنقذتما عبسا وذبيان من الفناء بعدما يأسوا، ودقوا بينهما عطر منشم، ومنشم هو اسم لامرأة كانت تبيع العطر يضرب بها المثل في التشاؤم، دليل على عظم اليأس الذى أصاب نفوس الناس من انتهاء هذه الحرب ([٤٧]) .

إن الجزيرة العربية أغلبها بيئة صحراوية ، وهي عبارة عن مجتمعات قبلية إلا بعض الحواضر على أطرافها ، والبيئة الصحراوية أكسبت أهل الجزيرة ثقافة تنزع إلى القسوة ، فحرّ الصحراء وجدب الحياة وشظف العيش قد ألقى بظلاله على نفوسهم التي ورثت قسوتها من قسوة الطبيعة حولهم ، وهذه القسوة كانت تترجم أحياناً بشكل همجي في الحروب .ونتيجة لضيق العيش وانتشار الجدب والقحط ، واضطراب المناخ الصحراوي انتشرت الحروب وسادت ثقافة النهب والسلب بين القبائل ، وكانت القبائل القوية تشن الغارات على القبائل الضعيفة ينهبون من خلالها الأموال ويقتلون الرجال ويسبون النساء ، وتحولت الجزيرة العربية كلها بسبب ذلك إلى أرض مخوفة مرهوبة مرعبة سطا فيها سلطان القوة على الأخوة ، وتجاوز الإسفاف الحدود لدرجة كانت الغارات تقع على الأقارب والأهل ، وهذه الثقافة عبر عنها الشاعر القطامي بقوله :

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا ([٤٨])

فالقبائل بحكم طبيعة الصحراء كانت تلجأ أحياناً لقتال أقرب الناس إليها ، بل أكثر الحروب كانت بين بطون القبيلة الواحدة أو ذات الأصل الواحد . وما دامت الحرب قد أصبحت وسيلة من وسائل العيش ؛ لذا حرصت كل قبيلة على غرس حب القتال في نفوس أبنائها ، والذي تحول إلى شغف نحو السيطرة والظلم والبغي والمبادرة بالعدوان ، بل أصبح جزءً من ثقافة العربي تغنيه بالظلم والمبادرة بالعدوان . يقول عمرو بن كلثوم :

إذا الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظُلِمنا ولكن سنبدأ ظالمينا ([٤٩])

هذه الأبيات سيقت في مقام الفخر ، وهي تعكس طبيعة العربي الذي يفخر بالظلم والبطش والمبادرة بالاعتداء على الغير ، وبالمقابل كان وصف قبيلة من القبائل أنها لا تظلم هو من أقبح أشكال الهجاء وأقذعه . يقول النجاشي هاجياً بني العجلان : قُبَيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل ([٥٠])

فهذه الكلمات لها مدلولها المهين في نفس العربي الجاهلي ، بالرغم أنها تعد من المكرمات في الإسلام ، ويلحظ في بيت الهجاء السابق أن عدم الغدر أو ظلم الغير يشير إلى مهانة أصحابه وذلهم ؛ إذ إنها لا تقع في عرف الجاهلي إلا من مهين لا يملك مواجهة الغير ، أما العزيز فلا محالة يملك في عرف العرب أن يظلم ويغدر لأن الظلم في ظل ثقافة الغاب هو السبيل الوحيد

([٤٧]) – شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٨٣، ط مصطفى الحلبي.
([٤٨]) – انظر الأسمر : القدوة في السيرة النبوية (٣٧)
([٤٩]) – انظر سالم : دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣٦٤/١)
([٥٠]) – القيرواني : زهر الآداب وثمر الألباب (٣١/١) ؛ البكري : فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (١٦٧/١)

الذي يضمن للعربي استرداد حقه ، وهذا المنطق أصبح فرضية يسلم بها أكثر العرب في الجاهلية ، حتى حكماءهم وذوي الحلم منهم ،ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى الذي عبر عن هذه الفرضية مستخدماً أسلوب العموم بما يشير إلى أن ثقافة العربي كانت تنزع للظلم واعتباره الوسيلة الوحيدة لاسترداد الحقوق ، فيقول معبراً عن ذلك في معلقته :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم [٥١]

أثر انتشار ثقافة امتداح الظلم وحب السيطرة على أخلاقيات الحرب في الجزيرة العربية .

نشوب الحروب لأتفه الأسباب : من ذلك حرب داحس والغبراء المشهورة بين عبس وذبيان ، والتي امتدت لأربعين سنة ، وسببها الظاهري هو الرهان على فرسين : داحس لبني عبس والغبراء لبني ذبيان ، وتخلل الرهان غدر وخديعة من جهة ذبيان انتهت بنشوب الحرب بين القبيلتين ، ومنها أيضاً حرب البسوس والتي اشتعلت شرارتها الأولى من جراء تعرض كليب التغلبي لناقة البسوس وضربها على ضرعها ، وهذا الناقة كانت لمن هو في جوار بني بكر ، ورأت فيها بنو بكر إهانتين : الأولى بالاستهانة بهم وضرب ناقتهم ، والثانية بالتعدي على حقوق الإجارة وإهانة من هو في جوار بني بكر ، وتجسدت الإهانة لدي جساس المجير فصمم على الانتقام من كليب وانتهى الأمر بأن أرداه قتيلاً وتفجرت حرب طاحنة بين تغلب وبكر استمرت أربعين عاماً ، وكانت مجموعة من الأيام المبنية على تسلسل حالة الثأر بين الفريقين . [٥٢]

الغلو في النوازع الانتقامية ؛ حيث كانت بعض القبائل لا تقبل بمقتل أحد أشرافها إلا بإفناء أهل القبيلة التي منها المعتدي ، ومنها أيضا حرب البسوس التي فجرها مقتل كليب وعدم قبول أخيه المهلهل بأي بادرة صلح حتى ينتقم من بكر كلها مقابل أخيه الذي لم يعدله بأحد . يقول المهلهل لما أسرف في الدماء في بني بكر :

أكثرت قتل بني بكر بربهم حتى بكيت وما بكى لهم أحد

آليت بالله لا أرضى بقتلهم حتى أبهرج بكراً أينما وجدوا [٥٣]

وفي أبيات أخرى يقول : ولست بخالع درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار

وإلا أن تبيد سراة بني بكر فلا يبقى لها آثار

والغريب أن بعض أشكال الثأر كانت تأخذ منحىً لا أخلاقياً البتة ، ينم عن قسوة وهمجية لا تليق ببشر ، وهذا واضح من بعض النذور الانتقامية منها على سبيل المثال : أن سلافة بنت سعد بن الشهيد قد قتل زوجها وبنوها الأربعة في غزوة بدر ، وقد كان عاصم قتل منهم اثنين الحارث ومسافعاً ، فنذرت لئن أمكنها الله منه لتشربن في قحف رأسه الخمر . » [٥٤] فهذا النذر يبرز مدى القسوة اللاأخلاقية التي تميز بها العرب في الجاهلية في نوازعهم الانتقامية التي لا يحدها حدود ، ونذرها هذا يحتاج لفصل رأس عاصم ثم تفتيت جمجمته وتفريغها من المخ ثم شرب الخمر في ناحية منها ، ومن ذلك تلك الصورة البشعة التي رسمتها هند بنت عتبة ، وهي تلوك كبد حمزة ﷺ بفمها في حالة هستيرية .

انتشار الغدر والخديعة في حروب الجاهلية : فأكثر الحروب في الجاهلية مبنية على الإغارة على الغير ، وتتميز باتخاذ الغدر وسيلة لتحقيق الانتصار والغلبة على العدو ، وهذا الأسلوب ملاحظ حتى في تصرفات الجاهليين مع النبي ﷺ منه

---

(٥١) – انظر النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب (٤٧/٣) ؛ سالم : دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣٦٤/١)

(٥٢) – انظر عبد ربه : العقد الفريد (٩٣/٥) ؛ نبوي : دراسات في الأدب الجاهلي (٤١ وما بعدها)

(٥٣) انظر النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٠٧/١٥) ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد (١٣٤/٥)

(٥٤) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٣١/١١) ؛ ابن حجر : فتح الباري (٣٨٤/٧) ؛ الواقدي : المغازي (٣٥٦/١)

غدر قبيلتي عضل والقارة بسرية النبي ﷺ واستدراجها لكمين وهو ما يعرف بفاجعة الرجيع ، ومنها الغدر الذي تعرض له سبعون من القرآء في حادثة بئر معونة ، والغدر في حروب الجاهلية يبرره امتداح الظلم في ثقافتهم ، والعبرة بتحقيق الغلبة دون النظر للوسائل ، ولو تتبعت أيام العرب في الجاهلية لرأيت أن الغدر عنصر أصيل فيها ، وقد اعتبر الشاعر النجاشي في بيته السابق أن عدم الغدر في الذمة هو نقيصة في حق أصحابه يستحق أن يُهجَوا عليها . [٥٥]

الغلو في سفك الدماء : ومن ذلك ما يروى عن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة أنه أرسل إلى قبيلة بكر يدعوهم إلى طاعته ، فأبو عليه ذلك ، فحلف المنذر ليسيرن إليهم فإن ظفر بهم ليذبحنهم على قلة جبل أوارة – اسم لجبل لبني تميم – حتى يبلغ الدم الحضيض ، وسار إليهم بجموعه فالتقوا بأوارة فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزمت بكر ، وأسر المنذر من بكر أسرى كُثُر ، فأمر بهم فذبحوا على جبل أوارة ، فجعل الدم يجمد ، فقيل له : أبيت اللعن ! لو ذبحت كل بكري على وجه الأرض لم تبلغ دماؤهم الحضيض ، لكن لو صببت عليه الماء ، ففعل فسال الدم إلى الحضيض . [٥٦]

والخلاصة : أمكن تصور بعض أخلاقيات الحرب في المجتمع الجاهلي إلا أنها لا تمثل قانوناً يحكم تصرفات الجاهلي ؛ خاصة أن ثقافة الغاب المهيمنة على فكره تبيح له كل وسيلة لتحقيق مآربه ونوازعه بل تبيح له ارتكاب أي شيء في حروبه دون رادع ، وقد عبر عمرو بن كلثوم في معلقته عن هذه العقلية المبيحة لكل طيش وسفاهة وهمجية متصورة في الحروب فيقول :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا [٥٧]

فكل سفاهة وهمجية متصورة تقع من البعض تجاه قبيلة الشاعر ستقابله قبيلته بهمجية وسفاهة لا يمكن تصور وقوعها ، وهذا هو المنطق العام الذي يحكم أخلاقيات الحرب في الجاهلية ، وهذا ما تعبر عنه معلقاتهم . [٥٨]

٣- نبي الرحمة ونبي الملحمة

اشتهر النبي بهذين الوصفين واتصاف النبي ﷺ بهما إشارة إلى أنه تميز بهما عن سائر الأنبياء ، ونبي الرحمة وصف عام يستغرق كل تصرفات النبي ﷺ خلال سيرته العطرة ، أما نبي الملحمة فهو وصف خاص تعلق بسيرة النبي الجهادية ، وقد عبر عنه النبي ﷺ من خلال آثار كثيرة منها : « **لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ**»[٥٩]«**اعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**» [٦٠] فهل إقدام النبي ﷺ على المواجهة العسكرية يتنافى مع حقيقة كونه رسول الرحمة العالمية ؟ فهم يرون أن مجرد اختيار النبي ﷺ لنهج القتال يعتبر مطعناً في نبوته ، وشرخاً في ادعاء المسلمين أنه رسول الرحمة العالمية كما يزعم البعض .

أولا : من تتبع سير الأنبياء يجد أن النبي يبعث لقومه فيدعوهم لله سبحانه وتعالى ، فيؤمن البعض ويبقى الأكثرون على غيهم وكفرهم ، وتختم رسالة النبي ورحلته مع قومه بنزول تأييد من السماء له فينجو من آمن معه ويهلك الباقون ، فقوم نوح أهلكهم الله سبحانه وتعالى بالطوفان وقوم هود بالريح ، وفرعون بالغرق ، وقوم لوط بالرجم من السماء ..إلخ ويلحظ في العقوبة

---

(٥٥) انظر عبد ربه : العقد الفريد (٥/ ٨٣ وما بعدها)

(٥٦) انظر : ابن الأثير : الكامل (٤٣٨/١) ؛ جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية (٩٩)

(٥٧)- انظر الحموي : خزانة الأدب (٦٤/١) ؛ نبوي : دراسات في الأدب العربي (٣٣٦)

(٥٨)- المعلقات هي القصائد التي لاقت قبولاً وإعجاباً مميزاً من أكثر العرب ، ولأهمية هذه القصائد تم تعليقها في الكعبة ، وقبول تلك القصائد يشير إلى أن مادتها إضافة إلى صياغتها هي موطن قبول عند أكثر العرب وتمثل طريقة تفكيرهم وثقافتهم الأصيلة ، وقد اخترت هنا عدة أبيات من المعلقات للدلالة على أن هذه الأبيات إنما تمثل طريقة تفكير المجتمع الجاهلي على وجه العموم .

(٥٩)-أخرجه البخاري برقم ٣٦ (٢٢/١)

(٦٠)-أخرجه البخاري برقم ٢٦٦٣ (١٠٧٣/٣)

الربانية أنها تكون حاسمة أو ماحقة في حق العصاة ، لا تبقي منهم ولا تذر ، فهم إما خامدون أو غرقى أو صرعى كأعجاز نخل منقعر أو كهشيم محتظر . أما مع خاتم الأنبياء فقد تغير منهج العقوبة ، أو شكل النصرة و التأييد الرباني للنبي ، ولعل طبيعة رسالة محمد ﷺ من حيث كونها رسالة عالمية اقتضى هذا التغيير ، ولو نهج التأييد الرباني مع محمد ﷺ نفس نهج الأنبياء السابقين لكانت لحظة خروج النبي ﷺ من مكة بعد مؤامرة قتله أو سجنه أو إخراجه هي لحظة الحسم الرباني في حق مكة شأنها شأن الأمم السابقة المكذبة لأنبيائها [٦١]، ولترتب على ذلك أمرين في غاية الخطورة وهما :

١ – هلاك كل أهل مكة وبالتالي تفويت أي فرصة هداية مستقبلية لأفرادها .

٢ – تحول مكة إلى بؤرة لعنة ربانية كما حصل لديار ثمود وغيرهم ، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه عندما مر بثمود أمر الصحابة بعدم استخدام مياههم ، والخروج منها بسرعة باكين .

وكلا الأمرين يعتبر من أشكال النقمة على أهل مكة جزاءً وفاقاً لمخالفتهم وتكذيبهم لنبيهم ، فكان في تغيير نظام العقوبة الشاملة إلى الجهاد والقتال كعقوبة جزئية تستهدف أئمة الكفر فقط بمثابة نهج يحمل أسمى معاني الرحمة من الله ورسوله .

ومن تتبع هدي النبي يجد أنه كان يحاول دائماً تجنيب قومه وغيرهم العقوبة الشاملة ، وهذا واضح من حواره مع جبريل في الطائف ، وقوله له : « **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** .»[٦٢]وفي لحظة الإيذاء الشديد له كان يقول : « **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّ قَوْمِي لا يَعْلَمُونَ**»[٦٣]بل كان النبي ﷺ في أكثر المواقف حساسية وإيذاء يتجنب الدعاء بالنقمة على قومه أو الأقوام التي يحاربها . نخلص مما سبق أن فرضية الجهاد كانت من أعظم أشكال الرحمة التي تميز بها النبي محمد ﷺ ؛ لأنها كانت عقوبة جزئية مقابل عقوبات شاملة مقارنة مع الأنبياء السابقين ، وبدلاً من أن يكون الهلاك شاملاً ، أضحى انتقائياً بما يهيئ الفرصة للأكثرين لكي ينعموا بنعمة الهداية .لذا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن وصف محمد ﷺ بأنه نبي الملحمة هو عين الرحمة بالبشرية ؛ لأن مقتضى هذا الوصف أن العقوبة الربانية لمعاندي الأنبياء قد تحولت من عقوبة ماحقة من السماء إلى عقوبة انتقائية محدودة على يد النبي نفسه ، وإذا نظرنا إلى أن مجمل من قتل في غزوات النبي ﷺ لا يزيد عن الألف إلا بقليل يتضح لنا مدى الرحمة الربانية للبشرية ببعثة محمد ﷺ .

ثانيا :جهاد النبي محمد ﷺ مقارنة مع الأنبياء السابقين فقد عرف الجهاد والقتال في أمتين : أمة الإسلام وبني إسرائيل ، ومقارنة بين الجهاد في الأمتين نجد أن هناك اختلافاً في الأهداف والنتائج بين كلٍ منهما ، ويبرز لنا واضحاً جلياً أن الجهاد في أمة الإسلام كان عنوان رحمة لكل الأمم ، بخلاف الأمم السابقة ، وطبعاً نعول هنا على النصوص الواردة في التوراة مع علمنا بتحريف التوراة على وجه الإجمال (٦٤) ، ذلك لأن أهل الكتابين في عصرنا الحاضر هم أكثر أهل الأرض هجوماً وتشويهاً واتهاماً لنظام الجهاد والقتال في الإسلام ، فلنقارن بين هدي النبي ﷺ في الجهاد والقتال وبين ما يعتقدون صحته في كتبهم المقدسة لنر هل لهذه الهجمة أي وجه من الصواب ، وإذا كنا في نظرهم موطن تهمة فإن النصوص تثبت من يستحق الاتهام .

---

[٦١]– جاءت بعض الآيات الدالة على أن لحظة الحسم تكون مع إخراج النبي ﷺ من مكة منها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : الآية ٧٦]

[٦٢] – أخرجه البخاري برقم ٣٢٣١ (١١٥/٤)

[٦٣] – أخرجه مسلم برقم ١٧٩٢ (١٤١٧/٣)

[٦٤] – ثبت عندنا أن التوراة والإنجيل دخلها تحريف واسع على وجه العموم ، وكل نص خالف معاني التوحيد والعقيدة فهو لا محالة محرف ، لكن النصوص التشريعية لا يمكن بسهولة الحكم بتحريفها مع بقاء الاحتمال قوياً خاصة إذا كانت في تعاليمها تمس عصمة أنبيائهم ، ومن هذه النصوص ما ذكرت هنا ، و لعل السبب في عدم قدرتنا على الجزم بتحريف النصوص التشريعية بالرغم من صعوبة أحكامها أن شريعة بني إسرائيل شريعة خاصة فقد تتميز ببعض الأحكام الشديدة .

ورد في سفر التثنية « **حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ ، وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ ، وَإِنْ لمْ تُسَالِمْكَ بَل عَمِلتْ مَعَكَ حَرْباً فَحَاصِرْهَا وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ ، وَكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ التِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ ، هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدّاً ، التِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلاءِ الأُمَمِ هُنَا، وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلاءِ الشُّعُوبِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيباً فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا** » [٦٥]

وفي سفر العدد نقل سخط موسى عليه السلام على الجيش لأنه استبقى النساء والأطفال دون قتل : « **فَسَخِطَ مُوسَى عَلَى وُكَلاَءِ الجَيْشِ رُؤَسَاء وَرُؤَسَاء المئات القَادِمِين مِنْ جُنْدِ الحَرْبِ ، وَقَالَ لهم مُوسَى هَلْ أَبْقَيتُم كُلّ أُنْثَى حَيّة .. فَالآنَ اقْتُلُوا كُلّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ وَكُلّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بمَضَاجِعِ فاقْتُلوها** . » [٦٦]

وأما سفر صموئيل الأول فيحكي عن داود أنه في حروبه لم يستبق على طفل ولا امرأة [٦٧] وفي موطن آخر من نفس السفر : « **فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ ، وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ ، بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جَمَلاً وَحِمَاراً** . » [٦٨]

تصرح بعض النصوص بمشروعية التمثيل والتعذيب والحرق لبعض الشعوب المغلوبة كما في سفر الأخبار الأول : «**وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِينَ بِهَا ، وَنَشَرَهُمْ بِمَنَاشِيرَ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسٍ ، وَهَكَذَا صَنَعَ دَاوُدُ لِكُلِّ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ** »[٦٩] هذه بعض النصوص التوراتية [٧٠] ، ويتضح من خلالها عدة أمور منها :

١ – القتال هو بغرض السيطرة والاستعباد ، إذا كان المستهدف من القرى القريبة يتم إهلاك جميع أهلها سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً صغاراً أم كباراً ، أما إذا كانت القرى بعيدة فإن فتحت القرية صلحاً فيكون كل من فيها عبيد ،وإن فتحت من خلال الحرب فيقتل كل من فيها من الذكور ، والنساء والأطفال يستعبدون .

٢ – شريعة بني إسرائيل لا تجرم قتل الأطفال والنساء ، والنصوص تشير إلى أن موسى وداود عليهما السلام قاما بقتل الأطفال والنساء .

٣ – تجيز شريعة بني إسرائيل القتل بأبشع الصور كالحرق والنشر والصلب والتمثيل بالجثث حتى الموت كما أشارت النصوص في حق النبي داود عليه السلام .

٤ – مبدأ العفو غير وارد في ثقافة بني إسرائيل ، والقتل أحياناً يشمل البقر والغنم والخيل وغيرها من الحيوانات مما يشير إلى حالة عدائية مع كل موجودات العدو .

لكن من تتبع هدي النبي في الجهاد والقتال يخلص إلى النقاط التالية : أكثر غزوات النبي كانت دفاعية كما سيتضح لنا . مبدأ الدعوة وهداية الناس كان يغلب على الأهداف الأخرى ،بل هو الهدف الأسمى في كل غزوات النبي ، والنبي

---

[٦٥] – سفر التثنية ، الإصحاح ٢٠ ، النص ١١ – ١٧

[٦٦] – سفر العدد ، الإصحاح ٣١ ، النص ١٤–١٩

[٦٧] – سفر صموئيل الأول ، الإصحاح ٢٧ ، النص ٥ – ١٢

[٦٨] – صموئيل الأول : الإصحاح ١٥، النص ٣

[٦٩] – الأخبار الأول : الإصحاح العشرون ، النص ٣

[٧٠] – يتضح من النصوص السابقة أن رائحة الوضع تفوح منها ، فالمعلوم أن الأنبياء هم أرحم البشر بالبشر ، وهذه الأعمال غير متصورة منهم حتى مع قولنا بخصوصية شريعة بني إسرائيل ؛ إذ كيف يتصور من الأنبياء مثل هذه التصرفات التي لا تحمل أي مسحة أخلاق أو رحمة بالبشر والحيوان ، وكيف يتصور منهم هذه العدائية للغنم والبقر فضلاً عن المدنيين من البشر . لكن سبب طرح هذه النصوص هنا هو أن أهل الكتابين قد شنوا حملة شعواء على نبي الرحمة ، ويهولون من كل حدث صدر منه في غزواته وحروبه ، إضافة إلى طعنهم بالقرآن على اعتبار أنه معزز للفكر الدموي في شرائح المجتمع الإسلامي ، ولو نظرنا إلى مجموع حروب النبي ﷺ والنصوص القرآنية الدالة عليه وحدث واحد مما ذُكر في كتبهم التي يعتقدون بها ويرون صحتها لوجدنا البون شاسعاً بينهما .

محمد ﷺ قد تميز بهذا الجانب عن أنبياء بني إسرائيل التي كانت رسالتهم خاصة بهم من دون الناس ؛ لذا لم تتسع حروبهم لهذا الهدف ، بينما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة عامة هيمن عليها فكر الرحمة ؛ وهيمنة هذا الفكر كان له الأثر في تمثل أخلاقيات بلغت درجة المثالية في الإحسان في حروبه كلها . الغرض الأساسي من الجهاد والقتال هو حسر الصد عن سبيل الله وتأمين تحرك الدعوة بنهجها السلمي بدون عوائق . القتال عند المسلمين مضبوط بأخلاقيات كثيرة جعلت منه صورة مثالية لم تعهد من بشر ، وهذه الأخلاقيات تكفل بقاء الحرب النبوية في دائرة الحروب الرحيمة التي لا تتجاوز حدود المعتدين فقط ، وتتميز بالتسامح والإحسان للأمم المهزومة ، وتتضمن رعاية لحقوق المدنيين بأرقى صورة عملية عرفتها البشرية كما سيتضح لنا خلال العرض التفصيلي لأخلاقيات الحرب ووصايا النبي لجيوشه

بالنظر لغزوات النبي وحروبه مقارنة بنظام عقوبة مخالفي الأنبياء نجد أنها انتقال رحيم من العقوبة الشاملة إلى العقوبة الانتقائية ، وبالنظر إلى جهاد النبي وما ثبت في شرائع الأمم السابقة نجد مدى الرحمة التي تميزت بها غزوات النبي وحروبه ، وادعاء بعض الأعداء أن النبي محمد ﷺ كان دموياً أو يدعو للدموية هو ادعاء فارغ من الصحة ، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك ، بل نظرة واحدة موضوعية للتاريخ تكفي للخروج بمسلمة وهي أن البشرية لم تعهد بشراً أرحم بالبشرية من محمد ﷺ حتى في حروبه وغزواته التي كان التسامح عنواناً لها ، وهذا ما سنلاحظه جلياً خلال العرض التفصيلي لأخلاقيات الحرب في سيرة النبي ﷺ .

٤- جهاد النبي ﷺ ومبدأ الرحمة :

يرى البعض أن المعارك والغزوات التي خاضها النبي تتنافى وكونه نبي رحمة ؛ ولا وجه التقاء بين الدماء والرحمة ، وهذا فهم خاطئ يتنافى وطبيعة البشرية ، بل هذه الغزوات كانت شكلاً من أشكال الرحمة النبوية بالبشرية ، ومن فهم ظروف غزواته و دواعيها وضروراتها بالوجه الصحيح ، يخلص إلى نتيجة هامة هي أن عدم وجود هذه الغزوات يعتبر خللاً في مظهر من مظاهر الرحمة لا العكس ، ولكي يتضح الأمر لا بد من بيان الموازنة الفكرية التي تبرز منهج النبي ﷺ في تعاطيه مع المواجهة العسكرية وضروراتها ، وذلك في النقاط التالية :

أولاً : التدخل الجراحي عند الضرورة هو مظهر من مظاهر الرحمة: لا يختلف عاقل في أن التدخل الجراحي بالرغم من آلامه وآثاره والدماء التي تسيل عند إجرائه يعتبر مظهراً من مظاهر الرحمة عندما لا توجد وسيلة غيره لإنهاء الألم وملاحقة الورم ، ولو امتنع الطبيب من استخدامه رعاية للآلام التي يمكن أن يعانيها المريض عند إجراء العملية ، وترك المريض يستفحل فيه الورم أو يستشري فيه المرض ، عندها لا يستحق الطبيب وصف الرحمة ، بالرغم من أنه لم يؤلم المريض بالتدخل الجراحي .

هذه الموازنة العامة التي تبرز ضرورات التدخل الجراحي ، وتتفق البشرية كاملة على أن عدم اعتبارها منافي للرحمة ، بل تلك الممرضات اللواتي يستخدمن المباضع والمشارط ويجرحن المرضى لاستئصال ورم ونحوه استحققن وصف ملائكة الرحمة في نظر البشرية بالرغم من تلك الدماء التي تسيل تحت مشارطهن ، وبالرغم من صرخات المرضى بين أيديهن ، بل لا ينظر لتلك الصرخات والدماء مقابل حسن العاقبة وحصول العافية ، وكل عاقل ينظر للطبيب أو الممرضة بعين الامتنان على الواجب الذي يقومان به . هذا بخصوص علاج الأبدان ، و ما ذكرت مسلمة تتفق على صحتها البشرية بعمومها ، إضافة إلى اتفاقها على أن التدخل الجراحي يتعين عندما لا توجد أي وسيلة أخرى للشفاء ، وتركه يعتبر منافياً للرحمة .

أما بخصوص أمراض البشر الروحية (العناد والكفر والكبر ومراغمة الحق والصد عن سبيل الله وما يترتب على ذلك من مظالم وفوضى ..إلخ) فيتصور الإشكالية نفسها بل أشد منها ، ويتعين التدخل الجراحي إذا استنفدت كل الوسائل الأخرى ، والأصل أن ينظر للتدخل الجراحي أو المواجهة العسكرية حال استفحال أمراض الأمم وتعذر الوسائل الأخرى على أنه مظهر من مظاهر الرحمة لا منافياً لها ، والأصل أن ينظر للطبيب بعين الامتنان لذلك التدخل الجراحي خاصة بعد حسن العاقبة وحصول العافية في الأمم ، ولولا الجهاد والمواجهة العسكرية التي قام بها النبي ﷺ لما نعم خالد بن الوليد وأبو سفيان وعكرمة بن جهل بنعمة الإسلام ، بل لما خرج الإسلام من المدينة المنورة إلى ربوع العالم أجمع ، ولما استنارت البشرية بنور الهداية ولبقيت بعللها وأمراضها التي كان سينتج عنها أضرار على مستوى الدنيا أعظم بكثير مما نتج حصيلة حروب المسلمين مع غيرهم .

وبالمقابل لو لم تكن تلك الغزوات لا نحسر الإسلام في المدينة وبقيت الجزيرة على غيها وكفرها وحرمت البشرية نور الرسالة ومظاهر رحمتها ، ولأفضت عوامل الكيد الداخلي والخارجي بنواة الدولة الإسلامية على حسمها وإنهائها في سنواتها الأولى ، ويبقى التساؤل الهام هنا وهو أي رحمة عالمية في ترك وسيلة ساعدت في حرية نشر رسالة الإسلام عند تعذر الوسائل الأخرى ؟

ثانياً : آخر العلاج الكي :ذكرت سابقاً أن التدخل الجراحي يعتبر مظهراً من مظاهر الرحمة عند تعذر أي وسيلة للعلاج ، ولا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، فهو علاج بغيض إلا أن الضرورة تقتضيه رحمة بالمريض وخوفاً من عواقب المرض المتضاعفة ، وقد أشار النبي ﷺ إلى أن أحد أسباب الشفاء الثلاثة الكي ؛ وبالرغم من ذلك كره النبي استخدامه لما يترتب عليه من آلام وتشوهات لكن الضرورة تلجئ إلى استخدام هذا العلاج البغيض النافع ، وذلك لحسم مرض عجزت أمامه الوسائل الأخرى ، فأصبحت ضرورة حسم المرض أعظم من مفسدة استخدام الكي ، لكنه آخر وسيلة يلجأ إليها ، وذلك عند استنفاد كل الوسائل الأخرى .

والملاحظ من منهج نبي الرحمة أنه كان يستخدم الدعوة السلمية ويحض عليها ويمنع غيرها ؛ لكن عندما ضُيق عليه وأصحابه ، ولوحقوا في كل مكان حتى أنهم عندما فروا للحبشة بدينهم لاحقتهم قريش عبر البحار ، وعندما هاجروا للمدينة لا حقتهم وقامت بمحاولات اختطاف من قلب المدينة لبعض المهاجرين كما حصل من أبي جهل والحارث بن هشام مع عياش بن ربيعة ، فهذه الملاحقة والصد عن الرسالة اقتضى التدخل العسكري من باب الدفاع ؛ لذا جاء الإذن باستخدام العلاج الأخير بعد تعذر كل وسائل العلاج الأخرى يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ [الحج:٣٩] فالآية فيها إشارة إلى أن القتال كان محظوراً لكن استفحال الظلم في الجزيرة العربية وشدة الملاحقة لأهل الرسالة بحيث لم تبق لهم وسيلة سوى الدفاع عن رسالتهم ودفع الظلم عنهم ، فتعين استخدام القتال كوسيلة من وسائل الدعوة التي تؤمن حرية انتشارها ، وأصبح استخدام القتال من باب البغيض النافع ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة:٢١٦] بل كانت أشعار الصحابة ورجزهم في المدينة تشير

صراحة إلى أن المسلمين قد دخلوا الحرب كرهاً بعدما بغى عليهم أهل الشرك [٧١]، عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :« **رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَعَرَ صَدْرِهِ وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ الشَّعَرِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِ اللَّهِ :**

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا [٧٢]

ثالثاً : استخدام القتال لا يعني الإكراه على تعاليم الإسلام : كون القتال وسيلة من وسائل الدعوة لا يعني فرض التعاليم على الأمم المهزومة ، فهذا أمر مرفوض كلياً ويتنافى مع منهج الرحمة ، وقد أكد القرآن المكي والمدني على رفض هذا المبدأ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:٩٩] ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة:٢٥٦] وإنما يقصد بكونه وسيلة من وسائل الدعوة من ناحية تأمينه لانتشار الرسالة بالطرق السلمية والدعوية ، بحيث يواجه أئمة الكفر الذين يصدون الناس عن الإيمان بالرسالة ، أو يمنعون وصولها إليهم ، و في أي مرحلة يمكن من خلالها تبليغ الرسالة دون صد ففي هذه الحالة لا يجوز استخدام القتال بأي حال من الأحوال ، ومن تتبع غزوات النبي ﷺ وجهاد الخلفاء بعده يجد هذا المبدأ بقيوده واضحاً ، والمعلوم أن قتال المسلمين للفرس والروم وغيرهم من الأمم كان باعثه هو تأمين نشر دعوة تحاول هذه الأمم وأدها والكيد لها ، وبالمقابل نجد الصحابة وصلوا في فتالهم إلى خراسان وإلى أرمينية ، ولم يفكروا قط بغزو الحبشة التي كانت قريبة جداً منهم ، والسبب في ذلك أن الأمم الأخرى فرضت القتال على المسلمين بينما الحبشة لم يكن منها صد وكيد للدعوة الإسلامية ؛ لذا تركت وشأنها ، وهناك إشارة لطيفة ذكرها المستشرق جوستاف لوبون (طبيب ومؤرخ فرنسي) مدللاً على أن الإسلام انتشر بالدعوة وليس بالسيف فيقول : « **لم ينتشر القرآن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل .** » [٧٣]

وهذه لفتة عجيبة تستحق التأمل فالمغول هم الذين قهروا العرب ، ولكن لم يمنع ذلك من اعتناقهم الإسلام ، فالإسلام انتشر وأصحابه مهزومون عسكرياً ، فهل كان السيف وراء إسلام المغول أم هناك قوة أخرى ؟ الإجابة التي لا تحتمل غيرها هي أن هناك قوة أعظم من السيف تغلغلت في قلوب المغول المنتصرين ، وهي قوة الحق الذي جاء به محمد ﷺ ، وهي نفس القوة التي تغلغلت في ربوع الهند وأطراف العالم الشرقي كأندونيسيا وماليزيا ، فتلك البلاد لم يفتحها المسلمون بسيوفهم ، وإنما فتحوها بأخلاقهم التي استمدوها من رسالة محمد ﷺ .

رابعاً : الهدف الأوحد من غزوات النبي ﷺ هو هداية البشرية لا استغلالها : من تتبع غزوات النبي ﷺ يجد أن الهدف الأساس التي كانت تخضع له هو هداية الناس ، ولم تكن السيطرة وتوسيع الملك والاستيلاء على خيرات الأمم أحد أهدافه في أي غزوة من غزواته ، وهذا مبدأ واضح كان يؤكد عليه النبي ﷺ دائماً منه قوله لعلي ﷺ عندما أعطاه الراية لفتح خيبر :" **عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ**

---

[٧١] – راجع : العتيبي : الحرب والسلام في الشعر العربي من صدر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي (١٨٠وما بعدها) وفيه أمثلة من الشعر أخرى تدل على أن المسلمين دخلوا الحرب كرهاً بعدما فرضت عليهم .

[٧٢] – أخرجه البخاري برقم ٦٨٠٩ (٢٦٤٤/٦)

[٧٣] – لوبون : حضارة العرب (١٢٨)

وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ " [٧٤] فهذا الأثر واضح الدلالة في تربية النبي ﷺ لأصحابه على تقديم الهداية على غيرها من مغانم الدنيا ومكاسبها ؛ بحيث يرى المسلم أن حصولها هو الهدف الأسمى لتضحياته وقتاله ، بل من نظر إلى غزوة حنين يجد تطبيقاً عملياً نموذجياً لم تعهد مثله البشرية جميعاً ؛ حيث وزع النبي ﷺ أكثر الغنائم تأليفاً للقلوب ، ونالت قريش وكبارها كصفوان بن أمية ممن كانوا أشد الناس عداوة للنبي ﷺ الحظ الأوفى منها ، ورجع هو وأكثر الناس تضحية وعطاء للدين (الأنصار) ولم يحملوا معهم من حطام الدنيا شيئاً ، مما يشير صراحة إلى أن هذه الغزوات كانت باباً من أبواب الرحمة بالبشرية .

الخلاصة: المواجهة العسكرية كانت إجراءً ألجأت له الضرورة ومقتضيات الرحمة بالبشرية ؛ لذا هو شكل من أشكال الرحمة النبوية بالبشرية . والدعوة السلمية أصل في رسالة محمد ﷺ ، والمواجهة العسكرية استثناء يكفل حرية نشر الدعوة الإسلامية بعيداً عن الصد والقهر والاضطهاد ، وذلك عند تعرض الدعوة السلمية لمثل تلك التصرفات القسرية المانعة للناس اختيار طريقهم نحو الهداية . و لا تعني المواجهة العسكرية استخدامها وسيلة لإلجاء الناس لاعتناق رسالة الإسلام ، وهذا وجه من أوجه الرحمة فيها .لقد خضعت المواجهة العسكرية في السيرة النبوية لأخلاق مثالية وأهداف سامية تكفل استقطاب الناس وإعجابهم برسالة الإسلام ، وهذا ما ميزها عن القتال عند الملل الأخرى .

٥- الوصايا النبوية المتعلقة بأخلاقيات الحرب

كان النبي ﷺ إذا بعث جيشا قال : « **انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ، .. أَبْعَثُكُمْ عَلَى أن لَا تَغُلُّوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا تحرقوا كنيسة وَلَا تَعْقِرُوا نَخْلاً** »[٧٥]وفي رواية :« **انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ ،وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ،وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .** » [٧٦] وفي وصيته لجيش مؤتة : "**أُغْزُوا بِسْمِ اللّهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاَللّهِ لَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلَيدًا و لا امْرَأَةٍ ، ولا كَبِيراً فَانِيَاً ، ولا مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَةٍ ، ولا تَقْرَبُوا نَخْلاً ولَا تَقْطَعُوا شَجَراً ، ولا تهدموا بناءً ، وَإِذَا لَقِيتُم عَدُوّكم مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُوهُمْ إلَى إحْدَى ثَلَاثٍ : فإمّا الإسْلَام ، وإمّا الجِزْيَة ، وإمّا الحَرْب .** [٧٧]

هذه الوصايا الجامعة للنبي ﷺ جاء التأكيد على عناصرها من خليفته الصديق ﷺ بقوله لجيش أسامة بن زيد الذي أرسله نحو : « **يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب بالسيف خفقا ، اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون** » [٧٨]

---

[٧٤] – أخرجه البخاري برقم ٢٩٤٢ [البخاري مع الفتح (١٣٠/٦)]

[٧٥] – أخرجه أبو داود برقم ٢٦١٣ (٣٧/٣) ؛ ابن ماجة برقم ٢٨٥٧ (٩٥٣/٢) ؛ و عبد الرازق في المصنف واللفظ له (٢٢٠/٥) ؛ قال البوصيري عن رواية ابن ماجة : إسناده حسن [مصباح الزجاجة (١٧٥/٣)]

[٧٦] – أخرجه أبو داود برقم ٢٦١٤ (٣٧/٣) ؛ والبيهقي [السنن الكبرى (٩٠/٩)]

[٧٧] – انظر البيهقي : السنن الكبرى (٩١/٩)

[٧٨] – الطبري : تاريخ الطبري (٢٤٦/٢)

وأكد الصديق على هذه التعاليم لأمراء جيشه نحو الشام بقوله : « **أوصيكم بتقوى الله ، اغزوا في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، فإن الله ناصر دينه ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تجبنوا ، ولا تفسدوا في الأرض ، ولا تعصوا ما تؤمرون .. ولا تغرقن نخلا ، ولا تحرقنها ولا تعقروا بهيمة ، ولا شجرة تثمر ، ولا تهدموا بيعة ، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين اتخذ الشيطان في رؤوسهم أفحاصا فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم إن شاء الله** » [٧٩]

ملاحظات عامة على الوصايا المذكورة ، يليها ملاحظات تفصيلية :

استهلت أكثر الوصايا السابقة بمطالبة الجيش قادة وجنوداً بتقوى الله ؛ أي الخوف منه وخشيته عند كل تصرف يقومون به خلال حربهم ، هذه الخشية التي تردعهم عن التجاوز أو الاعتداء أو الإيغال في القتل ، أو عدم احترام التعاليم التفصيلية المتعلقة بإعلان الحرب وفق الشروط الدعوية أو المتعلقة باحترام حقوق المدنيين على وجه الخصوص ، أو احترام الممتلكات العامة والخاصة من خلال عدم إتلافها إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك والحارس على كل هذه التعاليم التفصيلية هو تلك التقوى التي حرص النبي ﷺ على تعزيزها في قلب كل جندي في الجيش الإسلامي .

يلحظ من الوصايا السابقة أنها تضمنت كل أخلاقيات الحرب من المنظور الإسلامي ، واشتملت على الأمور التالية :

ضرورة إعلان الحرب قبل البدء بها من خلال تخيير الأعداء بين خصال ثلاثة : إما الإسلام ، أو الجزية أو الحرب ، وهذا أصل عام يحكم كل غزوات النبي ﷺ وسراياه

ضرورة عدم التعرض للمدنيين وعدم مقاتلة إلا الحربيين المقاتلين من الأعداء ، أما النساء والأطفال والشيوخ والفلاحون والعبّاد والرهبان من أهل الملل الأخرى وغيرهم من المدنيين فلا يجوز بحال التعرض لهم أو قصدهم بقتل أو إيذاء ونحوه ، وتقتصر الأعمال الحربية على المقاتلين من الأعداء فقط .

ضرورة عدم التعرض للممتلكات الخاصة أو العامة بإتلاف أو تدمير ويشمل الحكم الشجر والدواب وكذلك غيرها من الممتلكات كالأبنية والكنس ، ولا يستثنى من ذلك إلا الممتلكات التي يتحصن فيها الأعداء أو الممتلكات التي يؤثر إتلافها على استسلام الأعداء ، وهذا استثناء من الأصل العام لا يُلجأ إليه إلا للضرورة الداعية له .

بينت النصوص حرمة الاعتداء على أماكن العبادة للملل الأخرى بأي حال ، وذكرت النصوص أيضاً حرمة التعرض لأهلها بأي شكل ، بل صرحت النصوص السابقة بضرورة تركهم وما يتعبدون به .

حذرت النصوص السابقة الجيش الإسلامي من عدة أمور منها عدم الخيانة أو الغدر ، وعدم التمثيل بجثث الأعداء ، وعدم الإفساد بالأرض ، وعدم النهب من المال العام (الغلول) ، وهي أخلاقيات عامة تحكم علاقة الجيش الإسلامي مع أعدائه المقاتلين .

يلحظ من وصايا النبي ﷺ لجيوشه أنها تضمنت كل حقوق المدنيين في الحروب ، ولم تغفل منها شيئاً ، ولعل الفارق الجوهري بين تعاليم النبي ﷺ وبين القوانين المعاصرة المتضمنة لحقوق المدنيين في الحروب أن أتباع النبي ﷺ كانوا يتعاملون مع تعاليمه ووصاياه بقدسية جعلت لها رصيداً حقيقياً في الواقع ويندر مخالفتها منهم إلا حال الخطأ؛ أي هي تعاليم ترجمت من الناحية التطبيقية على الواقع، بينما كثيراً من القوانين المعاصرة قد حرمت الترجمة الفعلية عند اصطدامها بالواقع ، وعصرنا شاهد

[٧٩] – البيهقي : السنن الكبرى (٨٥/٩) ؛ وابن أبي شيبة برقم ٣٣١٢١ [المصنف (٤٨٣/٦)]

على ذلك ، ومن هذا الوجه يمكن القول أن حقوق المدنيين في الحروب لم تجد لها ترجمة حقيقية في الواقع إلا في عهد المسلمين .

التفصيل في ثمانية نقاط :

١ – حماية حقوق المدنيين

أشارت كثير من النصوص على ضرورة حصر المعارك في المقاتلين من الأعداء واعتبار أي تجاوز لذلك بمثابة اعتداء منهي عنه يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ﴾ [التوبة:١٢] ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة :١٩٠] فالآيتان حصرتا القتال في أضيق صوره ، فهو إما رد اعتداء بمواجهة الحربي المقاتل ، وإما التركيز على أئمة الكفر ؛ أي قادة الصراع في فريق الأعداء ممن يتحملون الحظ الأكبر في مواجهة المسلمين والصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى ، بل نلحظ في الهدي العملي في السيرة النبوية أن النبي ﷺ في غزوة بدر قد وصى صحابته الكرام بعدم التعرض لأشخاص سماهم بأسمائهم ؛ لأنهم خرجوا مع جيش مكة كرها دون إرادة حقيقية في المواجهة مع المسلمين . فإذا كان هدي النبي ﷺ لصحابته تجنيب عدد من الرجال المقاتلين مع العدو القتل أو قصد قتلهم ، فمن باب أولى تجنيب غيرهم من المدنيين خاصة أن الحرب في عرف الشريعة هي حالة استثناء وضرورة ، والضرورة تقدر بقدرها ؛والله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين كما صرحت الآية الأولى ، يقول ابن كثير في تفسيره للاعتداء في الآية : « .. **أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا ، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي كما قاله الحسن البصري من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان ، والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع و تحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة** . » [٨٠]

من هذا الوجه جاءت وصايا النبي ﷺ بتجنيب النساء والولدان والشيوخ والفلاحين والرهبان وغيرهم من المدنيين القتل أو الإيذاء ؛ حيث يعتبر ذلك اعتداءً وتجاوزاً منهياً عنه ، بل جاءت بعض تعاليم النبي ﷺ إلى أن تجاوز الحد والاعتداء في حق العدو يترتب عليه سخط الله الموجب لعقوبته منها وبينت الوصايا أن من الاعتداء توسيع دائرة الحرب وآثارها لتشمل المدنيين . لقد توسع الدكتور وهبة الزحيلي في بيان مفهوم المدينين الذين لا يجوز قتلهم فيقول : « .. المحاربون : هم كل من نصب نفسه للقتال بطريق مباشر ، أو غير مباشر ، وذلك كالجنود الإجباريين والمتطوعين .. أما المدنيون الذين ألقوا السلاح ، وانصرفوا إلى أعمالهم ، وكل من له صفة حيادية فعلاً عن معاونة العدو كالملحقين العسكريين الأجانب ومراسلي الصحف ، ورجال الدين التابعين للقوات المسلحة ، فهؤلاء لا يعتبرون محاربين يهدر دمهم . » ([٨١])

٢ – تجنيب النساء والأطفال والشيوخ والعمال ويلات الحرب

جاء التصريح من النبي ﷺ وخليفته بتجنيب النساء والشيوخ والأطفال والعمال ويلات الحرب منها قوله ﷺ : « **وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا و لا امْرَأَةٍ ، و لا كَبِيرًا فَانِيًا** » **ومنها قول الصديق** : « **ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة** » « **ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء** »،نصوص صريحة سابقة ،لا تحتمل التأويل بتجنيب النساء والولدان والشيوخ القتل أو الإيذاء ، وهي وصايا بدأت مع بداية الجهاد في السيرة النبوية وتشربها أتباع النبي منذ اللحظة الأولى في اختيار المواجهة العسكرية ، واستمرت وصايا النبي مع استمرار المعارك ، ولم يقتصر جهد النبي على جانب التوصية ، بل تعداها نحو مراقبة امتثال

([٨٠]) – ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢١٥/١)

([٨١]) – د. وهبة الزحيلي ، آثار الحرب ص : (٤٨٠)

صحابته لأوامره وملاحقة أي تجاوز يحصل منهم ، ورد أن النبي قد أعطى أبا دجانة سيفه في غزوة بدر واشترط عليه أن يأخذه بحقه ، وبالفعل كان أبو دجانة من أكثر الفرسان شجاعة في المعركة ، وكان يقول : « **رَأَيْت إنْسَانًا يَخْمُشُ النّاسَ خَمْشًا شَدِيدًا ،فَصَمَدْت لَهُ فَلَمّا حَمَلْت عَلَيْهِ السّيْفَ وَلْوَلَ فَإِذَا امْرَأَةٌ فَأَكْرَمْت سَيْفَ رَسُولِ اللّهِ أَنْ أَضْرِبَ بِهِ امْرَأَةً**».[٨٢]

لقد نزّه أبا دجانة سيف رسول الله ﷺ أن يقتل به امرأة بالرغم من أن هذه المرأة كانت في صفوف المقاتلين ، ولئن امتنع من قتل امرأة مقاتلة فمن باب أولى الامتناع عن قتل امرأة غير مقاتلة . وفي القصة إشارة إلى أن هناك هدياً مسبقاً في تجنيب النساء القتل ، ويحتمل أن يكون أبو دجانة قد فهم ذلك من مجموعة تعاليم سابقة للمعركة ترشد إلى ذلك على اعتبار أن المعركة الأولى لم تحض بهدي مباشر ذي علاقة بتجنيب المدنيين القتال خاصة أن جو المعركة وموقعها كان عسكرياً بحتاً بعيداً عن بيوت المدنيين ، لكن في هذه المعركة على وجه الخصوص نبه النبي ﷺ على حصر القتال بأضيق صوره وأوصى بعدم التعرض حتى لبعض الرجال المشاركين لعدم إرادتهم القتال مع المسلمين ، فمن باب أولى عدم التعرض للنساء . موقف أبي دجانة إنما فعله من باب الفضيلة وليس حكماً شرعياً ، والمرأة التي تقاتل يجوز قتلها .

والملاحظ مراقبة النبي وحرصه على رعاية حقوق المدنيين في الحروب: عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:« **وُجِدَتْ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ** . » وفي رواية «**فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ** »[٨٣] و عن رباح بن ربيع رضي الله عنه قال:« **كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِى غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَىْءٍ فَبَعَثَ رَجُلاً فَقَالَ:« انْظُرْ عَلاَمَ اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ » فَجَاءَ فَقَالَ :عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ. فَقَالَ ﷺ : مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ قَالَ :وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَبَعَثَ رَجُلاً فَقَالَ : قُلْ لِخَالِدٍ لاَ يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلاَ عَسِيفًا**» [٨٤] و عن عكرمة:« **أَنَّ النَّبِي صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم رَأَى امْرَأَةً مَقْتُولَةً بِالطَّائِفِ ،فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ ،مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا يَا رَسُولَ الله أَرْدَفْتُهَا ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَصْرِبَنِي ، فَتَقْتُلَنِي فَأَمَرَهُ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم أَنْ تُوارى** » [٨٥] هذه مجموع روايات يحتمل أنها تشير إلى حادثة واحدة ، وقد ذكرتها بمجموعها ؛ لأن لكل رواية منها دلالة مغايرة لغيرها ، وأمكن استنتاج التالي من مجموع الروايات السابقة :

نلحظ من الروايات السابقة أن النبي قد استوقفه وجود امرأة بين القتلى ، وفي مثل هذه الحروب الطاحنة يتصور سقوط نساء فيها ، خاصة في غزوة حنين بالذات التي استخدم قائد المشركين مالك بن عوف العنصر النسائي فيها ، وأركبهن الإبل خلف الرجال ، وبالرغم من ذلك استهجن النبي ﷺ وجود امرأة قتيل بين القتلى ، فسارع يؤكد على تعاليمه بقوله : ما كانت هذه لتقاتل ؟ وفي الرواية الأخرى قال : ألم أنه عن قتل النساء ؟ وفي الرواية الأولى والثانية أكد على نهيه عن قتل النساء والأطفال مبرزاً استنكاره لهذا الحدث ، وفي الرواية الأولى والثالثة شيء لطيف وهو أن القتيل كان امرأة لكن النهي استوعب النساء والأطفال والعسفاء أي الأجراء والعمال ، وذلك تأكيد على حرمة هذه الأصناف ، واغتنام الفرصة للتأكيد على ذلك .

لم يكتف النبي ﷺ بالنهي عن قتل النساء والأطفال والأجراء، بل سارع بإجراء تحقيق ميداني في ملابسات قتل المرأة ، فتبين له أن المرأة حاولت اغتيال أحد الجنود فسارع بقتلها ؛ أي أن قتلها كان دفاعاً عن النفس ولم يكن قصداً . وللتأكيد على حساسية الأمر وخطورته سارع بإرسال تعاليمه لقائد الجيش ينهاه عن تكرار هذا الحدث من جهته ، وفيه إرشاد إلى أن القائد الميداني يتحمل المسئولية الكاملة عن مثل هذه التجاوزات ، وقد تضمنت التعليمات صنفين يحظر قتلهم ، وهما النساء والعسفاء

---

[٨٢] – انظر الطبري : تاريخ الطبري (٧٤/٢) ؛و ذكر الحاكم نحوه برقم ٥٠١٩ وقال : صحيح الإسناد المستدرك (٢٥٦/٣)

[٨٣] – أخرجه البخاري برقم ٢٨٥١(١٠٨٩/٣) ؛ ومسلم برقم ١٧٤٤ (١٣٦٤/٣)

[٨٤] – أخرجه أبو داود برقم ٢٦٦٩ (٥٣/٣) ؛ و ابن ماجة برقم ٢٨٤٢ (٩٨٤/٢) ؛ قال الألباني صحيح ، السلسلة الصحيحة ، حديث رقم ٧٠١ .

[٨٥] – أخرجه البيهقي : السنن الكبرى (٨٢/٩) ؛ الهيثمي : موارد الظمآن (٣٩٨/١) ، والحديث له شواهد في الصحيح

؛ أي العمال والأجراء ، وبهذا يتضح أن الحدث أو التجاوز الواحد كان يتعاطى معه النبي ﷺ بحساسية شديدة ، وكان يغتنمه في تعزيز تعاليمه و التأكيد على كل الأشكال المحظورة المتصور وقوعها من الجيش .

تضمنت النصوص السابقة ثلاثة أصناف من المدنيين يحظر التعرض لهم وهم النساء والأطفال ، والعمال والأجراء سواء تم استئجارهم للقيام بأعمال غير قتالية في الجيش كالخدمة والتمريض ونحو ذلك ، أو يراد بهم الأجراء في أي عمل مدني آخر بعيداً عن أرض المعركة من باب أولى ، وهذا يشمل كل أصحاب الوظائف المدنية بعيداً عن العمل العسكري، فكانت هذه الوصايا شاملة لكل أصناف المدنيين .

قول النبي ﷺ : « ما كانت هذه لتقاتل » فيه إشارة إلى أن حقن دماء المدنيين إنما هو لعدم مشاركتهم في القتال والمواجهة ، أما إن حصل منهم أي مشاركة في القتال ففي هذه الحالة يجوز قتلهم ، وينسحب حكمهم حينئذ على حكم المقاتل في ساحة المعركة .

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ قَالَ :«**أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،وَغَزَوْتُ مَعَهُ فَأَصَبْتُ ظَهْرًا ،فَقَتَلَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى قَتَلُوا الْوِلْدَانَ ، وَقَالَ مَرَّةً الذُّرِّيَّةَ ،فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَهُمْ الْقَتْلُ الْيَوْمَ حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّةَ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا هُمْ أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ .فَقَالَ أَلَا إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً**» [٨٦] وفي رواية أخرى عنه: «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً يَوْمَ حُنَيْنٍ ،فَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ ،فَأَفْضَى بِهِمْ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ ، فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ الذُّرِّيَّةِ ؟ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانُوا أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ ! قَالَ :أَوَهَلْ خِيَارُكُمْ إِلَّا أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ نَسَمَةٍ تُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهَا لِسَانُهَا** . » [٨٧] وهذه الحادثة يمكن أن نستنتج منها ما يلي :

هذه الحادثة حصلت في غزوة حنين ، وهذه الغزوة بالذات لها ملابسات خاصة ، فالمعلوم أن النبي قد فتح مكة بعشرة آلاف جندي ، وترتب على فتحها أن جيشت ثقيف والطائف جيشاً عرمرماً لمواجهة النبي فخرج النبي لملاقاتهم وخرج مع جيشه ألفان من المؤلفة قلوبهم أو من مسلمة الفتح ، وكانت هذه المعركة مفاجئة للنبي، واختلط في جيشه من لم يتربَ على تعاليم الرسالة وهم مسلمة الفتح ، وكانت الغزوة في بدايتها تحت نظر الرسول ﷺ (القائد العام للجيش) وانتهت بفرار جيش الأعداء باتجاهات عديدة إلى الطائف وأوطاس وغيرها ، فأرسل النبي عدة سرايا لملاحقة الفارين ، ويتصور أن الحدث وقع مع أحد هذه السرايا كما تصرح الرواية الثانية ، كذلك يتصور أن الحدث وقع ممن لم يتربوا حقيقةً على التعاليم من مسلمة الفتح وغيرهم من القبائل التي شاركت مع النبي في فتح مكة ، وهذا واضح من اللبس الذي وقعوا فيه عندما سألوا النبي قائلين بعدما أنكر النبي عليهم فعلتهم : أليسوا أولاد المشركين ؟ فهذا الاستفهام من بعض أفراد السرية يشير إلى ذلك الالتباس الذي وقعوا فيه ، ويدل على أنهم ممن لم يتشربوا تعاليم الرسالة بعد ، ويرشد إلى ذلك أن النبي ﷺ لم يقل لهم مستنكراً أنه لم ينه عن قتل النساء والأطفال كما في حادثة المرأة ، مما يشير إلى أن النبي يعلم أن أصحاب هذه السرية لم يسمعوا هذه التعاليم قبل ذلك وإلا لذكرهم بها، بل نجد النبي ﷺ يجيب على استفهامهم بتوضيح اللبس الذي وقعوا فيه مبرزاً أن خيارهم أصلاً كان من أولاد المشركين ، وكونهم أولاد مشركين لا يبيح قتلهم .

---

[٨٦] – أخرجه أحمد في المسند (٤٣٥/٣) ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير والأوسط ، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد (٣١٦/٥).

[٨٧] – أخرجه أحمد في المسند (٤٣٥/٣) ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير والأوسط ، وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد (٣١٦/٥) .

نلحظ أن النبي ﷺ بعد هذه الحادثة قد كرر نهيه للمسلمين « **أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً** » والتكرار يؤكد على خطورة الحدث وضرورة التزام التعاليم وعدم الاستهانة بها ، وهذا التكرار يوحي بالألم والإنكار الشديد من رسول الله ﷺ لهذا الحدث الذي وقع ، واعتبره تجاوزاً خطيراً لا ينبغي أن يتكرر .

٣ – حماية رجال الدين من أصحاب الملل الأخرى : شرعت الحرب في رسالة الإسلام لدفع الظلم وإقرار العدل في الأرض ، وحملت تعاليم الرسالة بذرة احترام الملل الأخرى واستيعابها ضمن بوتقة الرسالة بعيداً عن الفكر الإحلالي الإقصائي ، ودون إكراه على تعاليم الرسالة ، وهذا ما يفسر ذلك الكم الهائل من الأحكام المتعلقة بأهل الذمة وطرق التعامل معهم داخل المجتمع المسلم ، وبخصوص الحرب جاءت الوصايا صريحة بحرمة التعرض للرهبان بأي شكل من أشكال الإيذاء ، ومن وصاياه بهذا الشأن :« **ولا تَقْتُلُوا وَلِيداً و لا امْرَأَة ، وَ لَا كَبِيرَاً فانياً ، ولا مُنْعَزِلاً بِصَوْمَعَة**» ومن وصايا أبي بكر: « **وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له** » « **وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له** » [٨٨] فالنصوص السابقة صريحة بحرمة التعرض للرهبان بأي شكل من الإيذاء، بل يجب تركهم وعبادتهم ، ولم يعهد في حروب النبي ﷺ أنه قصد راهباً متعبداً بقتل أو نحوه في سائر حروبه ، وينسحب هذا الحكم على غيره من أهل الكتاب [٨٩]،نقل المؤرخ الأوروبي لوبون عن ميشود في كتابه تاريخ الحروب الصليبية قوله : « **إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد (ﷺ) قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب (ﷺ) النصارى بسوء حين فتح القدس ، بينما ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها** . » (٩٠)

٤ – حماية الممتلكات العامة والخاصة : جاء في الوصايا الإشارة إلى حظر أي اعتداء من الجيش الإسلامي على أي شكل من أشكال الممتلكات العامة منها قول الرسول ﷺ : « ..**وَلَا تَحْرِقُوا كَنِيسَةً وَلَا تَعْقِرُوا نَخْلاً** » « **وَلَا تَقْرَبُوا نَخْلاً وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَاً ، وَلَا تَهْدِمُوا بِنَاءً** » وقول أبي بكر ﷺ : « **ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة** » « **ولا تغرقن نخلا ، ولا تحرقنها ولا تعقروا بهيمة ، ولا شجرة تثمر ، ولا تهدموا بيعة** » ، فهذه النصوص تعتبر أصولاً لحماية الممتلكات العامة أو الخاصة وعدم التعرض لها بشيء أما عن التربية الإيمانية والفكرية الحاضنة للأصول السابقة فيمكن تفصيلها على النحو التالي :

إن جيشاً تربى على تعاليم رحيمة تمنع من التفريق بين طير وفراخه ، وتمنع من إيذاء حشرات كالنمل ، وتمنع من إتلاف شجرة غير مثمرة في جوف الصحراء لهو أولى باحترام ما هو أعظم من ذلك من حيوان أو نبات ،إن وفرة التعاليم القاضية باحترام المخلوقات تحول دون انتقال حال العدائية بين المسلم وعدوه إلى ما يقتنيه العدو من ممتلكات ، والتربية النبوية والقرآنية قاضية بالفصل بين الأمرين ، وهذا ما لا تجده إلا في تعاليم رسالة الإسلام ، وفي غيره من الجيوش تجد حالة العداء لا تقتصر على العدو بل تنسحب نحو كل ممتلكاته [٩١] تعتبر المحافظة على الممتلكات العامة وعلى وجه الخصوص الغطاء النباتي والحيواني

---

[٨٨] – سبق تخريجها

[٨٩] – هناك اتفاق بين الفقهاء على عدم جواز قتل الرهبان المتفرغين للعبادة في الحرب [انظر الكاساني : بدائع الصنائع (١٠١/٧) ؛ عليش : منح الجليل (١٤٤/٣ وما بعدها) ؛ الشافعي : الأم (٢٤٠/٤) ؛ ابن قدامة : المغني (١٠ / ٥٣٩ وما بعدها)]

[٩٠] – لوبون : حضارة العرب ، حاشية صفحة (١٢٨)

[٩١] – من تتبع حروب التتار يجد أن حالة العداء قد انتقلت إلى كل شيء يقتنيه العدو لذا كثر التدمير وحرق الممتلكات ، بل تعدى الأمر نحو معاداة عناصر ثقافة الغير ، وهذا واضح من تدمير التتار لمكتبات بغداد وإلقاء الكتب في الأنهار ، وحالة العدائية هذه كانت ملاحظة بشكل واضح في الحرب العالمية الثانية ، وذلك من خلال التدمير المروع لكل ما يقتنيه الأعداء حتى أصبحت المدن خراباً ورسماً بعد عين .

أصل عام يحكم أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ؛ لذا جاء التصريح به بإطلاق في وصايا النبي ﷺ وخليفته ، لكن هذا الأصل له حالات استثنائية تقتضيها الضرورة الحربية في أضيق صورها وهو ما عبرت عنه الآيات في سورة الحشر في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [الحشر:٥] فالجواز هنا في قطع أشجار بني النضير وزرعهم إنما اقتضته الضرورة الحربية لإجلائهم للاستسلام ، وقد حرق النبي أيضاً نخل أهل خيبر والطائف ، والتحريق أو القطع يخضع لفقه الأولويات ومن باب ارتكاب مفسدة لدرء ما هو أعظم منها ، وهي لا تمثل فكراً عاماً يقتضي حالة عدائية تدميرية لموجودات العدو و ممتلكاته ، وإنما تدل على أصل استثنائي محكوم بطبيعة العدو ومقتضيات المعركة وضروراتها ، فإذا كان هناك مصلحة حربية في تحريق شجر العدو فيقال بجواز هذا الفعل ، وإن لم يكن هناك أي منفعة حربية من تحريقه أو قطعه فنرجع للأصل العام القاضي بعدم التعرض للشجر بشيء . بخصوص إتلاف ذوات الأرواح فهذا لا يحل قتله لمغايظة العدو أو إلجائه للاستسلام لوجود أصل عام بين فيه النبي ﷺحرمة قتل عصفور إلا بحقه ، وحقه هو أن يذبحه لكي يأكله . [٩٢]

٥ – حماية الأبنية و أماكن عبادة الملل الأخرى : جاءت الوصاياً صريحة في حرمة الاعتداء على مباني العدو ، وذلك في قول النبي ﷺ : « **ولا تهدموا بناءً** » وهذا الأسلوب يفيد العموم لأنه مفرد في سياق النفي ؛ وهذا يقتضي عدم هدم أي بناء من أبنية العدو وهذا يشمل الممتلكات العامة والخاصة ، والنهي في وصايا النبي ﷺ إنما سيق لبيان المحظور ؛ لذا يقتضي التحريم حيث لا قرينة تصرفه عن ذلك لكن في غزوة الطائف على وجه الخصوص نصب النبي ﷺ المنجنيق وضرب حصونها ، وتصرف كل ما يلجئ العدو للاستسلام . ومن هذا الوجه يمكن القول أن الممتلكات العامة والخاصة ينظر إليها بتفصيل :

١ – ممتلكات تدعو الحاجة الحربية إلى إتلافها كتلك التي تعوق تحركات الجيش أو سيطرته على أرض المعركة ، أو تساعد العدو في رصد المسلمين والنكاية بهم ، فهذه يحل إتلافها للضرورة الحربية .

٢ – ممتلكات تحول دون تقدم الجيش أو تمنع من وصوله للأعداء ، فهذه أيضاً يحل إتلافها ، وتشمل أيضاً كل ما يؤثر إتلافه على معنويات العدو ويلجئه للاستسلام .

٣ – ممتلكات يعود بإتلافها ضرر على المسلمين ، فهذه لا يحل إتلافها قطعاً .

٤ – ممتلكات لا تدعو الحاجة الحربية لإتلافها ولا الإبقاء عليها ، فهذه الممتلكات لا يحل أيضاً إتلافها وتحمل وصية النبي ﷺ السابقة في عدم هدم الأبنية على هذا النوع .

ونخلص مما سبق إلى أن الإتلاف للممتلكات بوجه عام محظور وحرام إلا لضرورة حربية ، فإذا لم تتعين الضرورة الحربية ، فلا يجوز تدمير الأبنية والممتلكات كشكل من أشكال العدائية مع كل ما يتعلق بالعدو . [٩٣]

---

[٩٢] – انظر الشافعي : الأم (٤/٢٨٧)

[٩٣] – بعد أربعة عشر قرناً انتبه العالم إلى مثل هذا التشريع القاضي باحترام الممتلكات خلال الحرب ، ففي اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧ م جاء التنصيص على أن الإتلاف محظور إلا لضرورة حربية ؛ حيث جاء في المادة ٢٣ من لائحة الحرب البرية : « لا يجوز تدمير ممتلكات العدو أو حجزها إلا إذا كانت ضرورات الحرب تقتضي حتماً هذا التدمير . [انظر القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية (٢٥) ؛ الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٤١) ؛ أبو النصر : اتفاقية جنيف الرابعة لحماية المدنيين (١٧٨ وما بعدها)] أما الضرورة الحربية فقد توسع بها أصحاب القانون الدولي كما يتضح من القوانين ذات العلاقة بلائحة الحرب البرية والجوية ، والتي تسمح بعض مدلولات بنودها بتخريب المدن لأجل إلجاء العدو للهزيمة ، كما في المادة ٥١ من لائحة الحرب البرية ، والمادة ٢٤ من لائحة الحرب الجوية ، بل يرى شراح تلك المواد أن الحفاظ على الممتلكات أو المدنيين في ظل الحروب المعاصرة هو خرافة ، بمعنى أن وجود الحرب في ظل التقنية الحربية المعاصرة كفيل بتدمير كل شيء ؛ لذا يبقى حديثهم عن قوانين حماية الممتلكات عبارة عن ديباجة نصوص لا رصيد لها في الواقع [انظر تلك المواد : القانون الدولي المتعلق بسير العمليات العدائية (٢٥ وما بعدها ، ١٣٠) وانظر أيضاً : هيف : القانون الدولي العام (٧١٠) ؛ الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٦)]

هذا بخصوص الأبنية بشكل عام أما أماكن عبادة العدو فقد أرشدت نصوص كثيرة إلى احترامها وعدم التعرض إليها ، بل بعض الآيات أشارت إلى أن عدل الإسلام ضمن سنن المدافعة هو الكفيل بحفظ أماكن العبادة بأشكالها المتعددة للملل ذات الأديان السماوية السابقة يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] بينت الآية أن سنة المدافعة هذه هي الكفيلة بإقرار العدل وبدونها تتعرض أماكن العبادة كصوامع الرهبان أو الصابئة ، وبيع النصارى وكنائس اليهود ومساجد المسلمين للهدم ؛ حيث يتعرض لها الوثنيون فلا يبقوا منها شيئاً ، أما المسلمون فإن تعاليم رسالتهم تتسع لقبول بقائها داخل الدولة الإسلامية وعدم التعرض لها بأي شكل [٩٤] ، يقول ابن خويزمنداد من المالكية : « **تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نارهم** . » [٩٥] ومن هذا الوجه جاءت وصايا النبي ﷺ بنهي الجيوش الإسلامية من التعرض للكنس والبيع بأي شكل ،ومن وصاياه بهذا الشأن : « **وَلَا تَحْرِقُوا كَنِيسَةَ**» ومن وصايا أبي بكر« **ولا تهدموا بيعة** » **(٩٦)** وكان أول تعامل للنبي ﷺ هو مع يهود المدينة المنورة في عقر دار الإسلام ، حيث كتب وثيقة بينه وبينهم بمثابة دستور ينظم العلاقة بينهم مبرزاً لكل طرف واجباته وحقوقه ، ومن بنود هذه الوثيقة النص التالي : « **وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إِلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ** » ومضت الوثيقة تعدد بطون اليهود في المدينة مثبتة لها ما أثبتته ليهود بني عوف . [٩٧]

فالنص السابق صريح في التأكيد على مبدأ الحرية الدينية دون إكراه أو تعسف ، ويترتب على قول النبي ﷺ لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم أن أماكن العبادة للدينين هي موطن احترام من الطرفين وهذه هي التجربة الأولى للنبي ﷺ مع يهود المدينة ، وكانت مع نشاة الدولة الإسلامية ، والتجربة الثانية التي تدل صراحة على احترام أماكن عبادة الملل الأخرى حصلت في آخر العهد النبوي مع نصارى نجران الذين وفدوا عليه في المدينة بعدما أرسل إليهم ، فدخلوا المسجد النبوي ، وصلوا فيه صلاتهم نحو جهة الشرق ، وعندما رآهم النبي ﷺ يصلون بصلاتهم نحو قبلتهم في مسجده أشار إلى صحابته أن يتركوهم وما يصلون ، ثم بعد ذلك عرض عليهم الإسلام ، وجادلهم ، ثم نزلت آية المباهلة ، فعرض عليهم المباهلة امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى ، فامتنع وفد نصارى نجران عن المباهلة ، وصالحوا النبي ﷺ على الجزية ، وأعطاهم النبي ﷺ ذمة الله ورسوله وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم إضافة إلى عدم التعرض لكنسهم ، وكتب لهم كتاباً بذلك . [٩٨]

يقول لورد هدلي عن سماحة موقف النبي ﷺ مع نصارى نجران : « ..**ولما استتب له الأمر وخضعت له شبه جزيرة العرب إلى أقصاها ، وجاءه وفد نصارى نجران اليمنيون بقيادة البطريرك لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام ، بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم وأمر بأن لا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية ، وأن تبقى كنائسهم**

---

[٩٤] – انظر الطبري : جامع البيان (١٧٤/١٧ وما بعدها) ؛ الشوكاني : فتح القدير (٣م٤٥٧ وما بعدها)

[٩٥] – القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٧٠/١٢)

[٩٦] – سبق تخريجها

[٩٧] – انظر ابن هشام : السيرة (٣٤/٣) ؛ المباركفوري : الرحيق المختوم (٢١٣) .

[٩٨] – عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ : حُلَّةٍ النِّصْفُ فِي صَفَرٍ ، وَالْبَقِيَّةُ فِي رَجَبٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَعَارِيَة ثَلَاثِينَ دِرْعًا ، وَثَلَاثِينَ فَرَسًا ، وَثَلَاثِينَ بَعِيرًا ، وَثَلَاثِينَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ السِّلَاحِ يَغْزُونَ بِهَا ، وَالْمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوهَا عَلَيْهِمْ ، إِنْ كَانَ بِالْيَمَنِ كَيْدٌ أَوْ غَدْرَةٌ عَلَى أَنْ لَا تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ ، وَلَا يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ ، وَلَا يُفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ مَا لَمْ يُحْدِثُوا حَدَثًا ، أَوْ يَأْكُلُوا الرِّبَا . [أخرجه أبو داود برقم ٣٠٣٧ (١٦٦/٣) ؛ و الضياء : الأحاديث المختارة ، برقم ٤٩٢ (٥٠٨/٩) قال ابن حجر : رواته موثقون ، إلا أن في سماع السدي من ابن عباس نظر ، لكن الحديث له شواهد [انظر الدراية (١٣٣/٢) ؛ وتلخيص الحبير (١٢٥/٤)]

ومعابدهم كما هي يؤدون فيها شعائرهم الدينية كما كانوا يفعلون من قبل . » [٩٩] ولم يقتصر الأمر على عدم التعرض لأماكن عبادة العدو ، بل أبدى النبي ﷺ سماحة منقطعة النظير تجاه مقدساتهم كما حصل في خيبر ؛ فقد كان من بين ما غنم جيش النبي ﷺ عدة صحف من التوراة ، فطلب اليهود ردها فأمر النبي ﷺ بتسليمها لهم . [١٠٠] وهذا الموقف يبرز مدى تسامح النبي ﷺ في رعاية مقدسات العدو ؛ حيث رد إليهم الصحف بالرغم من اعتقاده بتحريفها ، ولم يفعل ما فعله الرومان عندما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة [١٠١] .

وهذا المنهج سار عليه خلفائه في احترام أماكن عبادة الغير ، فبعد فتح الشام وقدوم عمر ﷺ إليها صالح أهل إيلياء (القدس) وكتب لهم عهداً جاء فيه : « **بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وصلبهم وسائر ملتهم أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم** ... » [١٠٢] وكتب أيضاً لأهل مدينة اللد ومدن فلسطين الأخرى عهداً شبيهاً به [١٠٣] وبمثل نصوص هذه الوثيقة عاهد خالد بن الوليد ﷺ أهل الحيرة وأهل دمشق ، وكذلك عمرو بن العاص مع أهل مصر ، بل تضمنت أيضاً لعن أي مسلم يخرجهم منها . [١٠٤] وعندما كان عمر بن الخطاب بالشام ، وقد حانت الصلاة وهو في كنيسة القيامة ، فطلب البطريق من عمر ﷺ أن يصلي بها ، وهم أن يفعل ثم اعتذر متعللاً بأنه يخشى أن يصلي بالكنيسة ، فيدعي المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم فيأخذوها من النصارى . [١٠٥]

فهذه السماحة منقطعة النظير من المسلمين تجاه البلاد المفتوحة عبر عنها نصارى الشام حيث كتبوا إلى أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٣ هـ قائلين :« **يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا** . » [١٠٦] وهذه المواقف مجتمعة تشير إلى أن احترام أماكن عبادة العدو كان جزءً أصيلاً من أخلاقيات الحرب التي تمثل بها جيش النبوة .

٦ – تحريم التمثيل بالأعداء أحياءً أو أموات : روى عَبْدَ اللَّه بْنَ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ : « **نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ النُّهْبَى وَالْمُثْلَةِ** .» [١٠٧] وعَنْ أَنَسٍ وسمرة بن جندب رضي الله عنهما قَالا: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحُثُّ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُثْلَةِ** . » بل بعض الآثار تشير إلى أن من ارتكب هذا المحظور ولم يتب سيعرض نفسه للقصاص الرباني يوم القيامة ، يقول الرسول ﷺ :«**مَنْ مَثَّلَ بِذِي رُوحٍ ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » [١٠٨] ، بل تعاطت الرسالة المحمدية بحساسية مفرطة مع ظاهرة التمثيل حتى مع الحيوانات ، وأبرزت النصوص أنها موجبة للعن والطرد من رحمة الله سبحانه وتعالى ،

---

[٩٩] – عبد الوهاب : محمد رسول الله في نظرة علماء الغرب (٣٩)
[١٠٠] – انظر أبو شهبة : السيرة النبوية (٤١٩/٢) ؛ التاجي : سيرة النبي العربي ﷺ (٢٦/٢)
[١٠١] – انظر الصلابي : السيرة النبوية (٣٩٢/٢)
[١٠٢] – الطبري : تاريخ الطبري (٤٩٩/٢)
[١٠٣] المرجع السابق نفس الجزء والصفحة
[١٠٤] انظر الحوفي : سماحة الإسلام (٧٠ وما بعدها)
[١٠٥] انظر الحوفي : سماحة الإسلام (٦٧)
[١٠٦] البلاذري : فتوح البلدان (١٣٩)
[١٠٧] أخرجه البخاري برقم ٥١٩٧ (٢١٠٠/٥)
[١٠٨] أخرجه أحمد برقم ٥٦٦١ (٩٢/٢) ؛ قال الهيثمي:رواه أحمد والطبراني في الأوسط ، ورجال أحمد ثقات [مجمع الزوائد (٢٤٩/٦ وما بعدها)]

لما فيها من عبث بخلق الله ، عن ابن عمر ﷺ قال : « **لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيَوَانِ** »[١٠٩]والإسلام ينظر للميت نظرته للحي في حرمة تشويهه ، وذلك تكريماً لآدميته يقول النبي ﷺ : « **كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا** . »[١١٠] والمراد به أن كسر عظم الميت يترتب عليه من الإثم ما يترتب على كسر عظم الحي[١١١]، وفي ذلك إمعان وتأكيد على حرمة الميت عند الله ﷻ ، والكافر أو الحربي الميت قد انتقل لدار الحق والجزاء ، فلا وجه للتمثيل به أو تشويهه بعد موته . ومن تتبع الجانب العملي في السيرة النبوية يجد أن النبي ﷺ لم يرخص في الحروب بالتمثيل بالآدمي حياً أو ميتاً ، حتى لو توفرت دواعي التمثيل كأن مثل العدو بجثث المسلمين

وهذه أمثلة عملية دالة على تحريم المثلة وعدم خضوعها لمبدأ المعاملة بالمثل : كان بين أسرى بدر سهيل بن عمرو ، وكان خطيباً مفوهاً ، فقال عمر ﷺ : يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل فلا يقدم عليك خطيباً أبداً ، فأجابه النبي ﷺ قائلاً : « **لَا أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلُ اللّهُ بِي وَإِنْ كُنْت نَبِيّا وإنّهُ عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا لَا تَذُمّهُ عَلَيْه** »[١١٢] فعمر ﷺ خشي من سهيل أن ينال من رسول الله ﷺ ويحرض عليه بعد فك أسره فأراد أن ينزع ثنيتيه الأماميتين لكي لا يتمكن من الخطابة في الصد عن دين الله أو النيل من رسول الله ، فهذه مسوغات الموقف العمري ، و هو موقف قد تشهد له ضرورات الحروب وطبيعة الأعداء ، وقد تؤيده المدارس المعاصرة خاصة إذا كان العدو لا يؤمن له جانب معين فليحتاط لهذا الجانب ، لكن لاحظنا أن نبي الرحمة تجاوز عن هذه المصلحة التي ذكرها عمر ﷺ مقابل مفسدة عظمى لا تتفق وتعاليم رسالة الرحمة العالمية ، فالتمثيل حتى لو وجدت دواعيه يتنافى واحترام إنسانية الإنسان التي يدعو لها الحبيب محمد ﷺ ، وفي رد النبي ﷺ إشارة واضحة إلى أن تعاليم السماء تحكمه في كل موقف يخوضه .

غزوة أحد أخذت شكلاً انتقامياً من كفار قريش وتم الإعداد لها عاماً كاملاً ، وبعدما تمكن الكفار من المسلمين في نهاية المعركة أمعنوا في الانتقام بشكل وحشي جداً وسلطوا تلك النار الانتقامية التي اتقدت في قلوبهم نحو جثث المسلمين فبقروا بطونهم وشوهوا جثثهم بشكل مروع جداً ، وشاركت النساء في تلك الهجمة المسعورة على الجثث ؛ ومن بينهن كانت هند بنت عتبة التي مزقت جسد حمزة تمزيقاً مروعاً وأخرجت كبده ولاكته بأسنانها في حالة هستيرية مروعة ، وكان هدف الكفار في إباحة التمثيل بالجثث الإمعان في إيذاء المسلمين وقهرهم . وبعد المعركة طاف النبي ﷺ وصحابته الكرام في أرض المعركة وهالهم ما رأوا من تشويه لجثث أحبابهم ، وكان أكثرهم ألماً الحبيب محمد ﷺ بعدما رأى ذلك التشويه غير المعهود في جثة أحب الناس إليه ، وهو عمه وأخوه في الرضاعة حمزة ﷺ ، فبكى بكاءً شديداً عليه ، حتى سمع لبكائه شهيقاً . بل لهول الصدمة وبشاعة المنظر ، قال النبي ﷺ : « **لَوْلَا أَنْ تَحْزَنَ صَفِيّةُ ، وَيَكُونَ سُنّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْته ، حَتّى يَكُونَ فِي بُطُونِ السّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطّيْرِ وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللّهُ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنْ الْمَوَاطِنِ لَأُمَثّلَنّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ.** »[١١٣]وقال المسلمون رعاية لحال النبي وكمده على عمه : « **وَاَللّهِ لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللّهُ بِهِمْ يَوْمًا مِنْ الدّهْرِ لَنُمَثّلَنّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يُمَثّلْهَا أَحَدٌ مِنْ الْعَرَبِ** » [١١٤] كلمات خرجت من فم النبي ﷺ في لحظة انفعالية خلال موقف من أبشع المواقف التي عاشها ، وإن كان محمدٌ ﷺ كغيره من البشر

---

[١٠٩] أخرجه البخاري برقم ٥١٩٦ (٢١٠٠/٥)

[١١٠] أخرجه أبو داود برقم ٣٢٠٧ (٢١٢/٣) ؛ وابن ماجة برقم ١٦١٦ (٥١٦/١) ؛ وأحمد برقم ٢٤٧٨٣ (١٠٥/٦) ؛ وابن حبان برقم ٣١٦٧ [صحيح ابن حبان (٤٣٧/٧)] والحديث صححه الألباني برقم ٣٢٠٧ [صحيح الترغيب والترهيب (٢٢١/٣)]

[١١١] انظر عون المعبود (٢٤/٩)

[١١٢] انظر ابن أبي شيبة : المصنف (٣٦٥/٧) ؛ الزيلعي : نصب الراية (١٢٠/٣)

[١١٣] – انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١٢٠/٦) ؛ الحاكم : المستدرك (٢١٨/٣) ؛الهيثمي : مجمع الزوائد (١٢٠/٦)

[١١٤] – انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك (٧٢/٢) ؛ ابن كثير : البداية والنهاية (٤٤/٤)

إلا أن عواطفه محكومة بمنهجه ؛ لذا جاء التوجيه الرباني مباشرة بعد تلك الكلمات ليصحح مسار تلك العواطف ، وأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل:١٢٦] فعفا النبي ﷺ ، وصفح مباشرة ونهى عن المثلة .

هذا الموقف له عدة دلالات منها : رسالة الإسلام مضبوطة بأخلاقيات ربانية لا تسمح لأفرادها أن يتجاوزوا معاييرها ومثلها العليا حتى لو وجدت دواعي لهذا التجاوز من باب المعاملة بالمثل . وما حصل في غزوة أحد كان له الأثر الكبير في تأكيد النبي ﷺ على حرمة التمثيل ، وذلك لما رأى فيه من امتهان لآدمية الإنسان ؛ لذا كان ينهى عن المثلة في خطبه بنفس الدرجة التي كان يحض فيها على الصدقة مما يشير إلى أن النهي عن المثلة أخذ حظاً وافراً من هديه وإرشاده . إن المثلة امتهان لآدمية الإنسان ؛ لذا التمثيل بالجثث في نظر رسالة الإسلام ليس فيه إيذاء للعدو بقدر ما فيه اعتداء وطعن في تكريم الله سبحانه وتعالى له ، و هو من هذا الوجه اعتداء على حق من حقوق الله سبحانه وتعالى ، وأهل الرسالة أبعد الناس من التقحم على حقوق الله سبحانه وتعالى . والتمثيل بالجثث لا يخضع لمبدأ المعاملة بالمثل لمنافاته للفضيلة التي تدعو لها رسالة الإسلام، لكنه قد يخضع للقصاص . [١١٥]

٧- تحريم الخيانة والغدر في المعارك والوفاء بالعهود : يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال:٥٨] تنص الآية إلى أن النبي ﷺ إن خاف خيانة قوم لعهدهم ، فله أن ينهي العهد معهم ، ويخبرهم بانتهاء العهد وانتقاضه لئلا يتهموه بالخيانة ، ثم ختمت الآية بأن الله سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين ، والنبي ﷺ أبعد القوم عن تقحم ما لا يحبه الله ؛ كذلك تشير الآية على حرمة مجاراة المشركين والكافرين في نقض المواثيق والعهود بطريق الغدر والخيانة ، بل بطريق الإعلان الصريح من جهته بنبذ المعاهدة وعدم التزامه بها . [١١٦] فالخيانة في رسالة الإسلام لا تخضع لمبدأ المعاملة بالمثل ، بمعنى لو بدر من العدو شكل من أشكال الغدر والخيانة فلا تقابل بمثلها ، وهذا ما أكد عليه النبي ﷺ بوجه عام بقوله : « **أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ** » [١١٧] وكذلك الغدر من الجرائم العظمى التي ينصب لها لواء خاص بها يوم القيامة يقول الرسول ﷺ : « **لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ يُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ** . » [١١٨]

أمثلة تشير إلى مدى تجنب النبي ﷺ وصحابته لأي شكل من أشكال الخيانة والغدر ، تذكر كتب السير أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح أسلم وكان من كتاب الوحي ، ثم ارتد ولحق بالكفار ، فلما دخل النبي ﷺ مكة أهدر دمه ، ففر إلى عثمان ﷺ ، فلما جاء به عثمان ﷺ ليستأمن له ، صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم أعطاه الأمان ، فلما انصرف مع عثمان ﷺ ، قال رسول الله ﷺ لمن حوله : « **مَا مَنَعَكُمْ أَنْ يَقُومَ رَجُلٌ مِنْكُمْ إِلَى هَذَا الْفَاسِقِ فَيَقْتُلَهُ ؟ فَقَالَ عَبَّادُ بْنُ**

---

[١١٥] – المعاملة بالمثل معناه في الحروب إذا حدث من جيش ما تصرف معين ، فللجيش المقابل أن يوقع نفس التصرف في أفراد الجيش الآخر ، وهي تنظر لوقوع التصرف من جهة ما دون النظر إلى الفرد القائم به ، أما القصاص فإنه مماثلة بين العقوبة والجريمة ، بحيث توقع عقوبة مماثلة على فرد ارتكب جرماً ما ، والقصاص لا يتعدى المجرم نفسه إلى غيره ؛ أي هو عقوبة قاصرة ، وخلال تتبعي للسيرة النبوية وجدت أن النبي ﷺ لم يخضع التمثيل بالجثث للمعاملة بالمثل إطلاقاً ، لكن في عهد الخلفاء وقعت بعض التصرفات وحصلت بعض الأقوال المبيحة للمثلة بالعدو ودلائل السياق أن التمثيل عندهم قد خضع لمبدأ القصاص بحيث تلحق عقوبة مشابهة لتلك التي ارتكبها على سبيل المثال أفراد من المرتدين في حق المسلمين وذلك في عهد أبي بكر ﷺ ، ومن هذا الوجه نقول أن المثلة لا تخضع للمعاملة بالمثل ، لكن أمكن خضوعها لمبدأ القصاص ، وبذلك نجمع بين جميع الآراء ونلم شعث جميع الأحداث .

[١١٦] الحداد : أخلاق النبي في القرآن والسنة (١٣٦٦/٣)

(١١٧) أخرجه أبو داود برقم ٣٥٣٤ (٢٩٠/٣) ؛ والترمذي برقم ١٢٦٤ وقال : حسن غريب (٥٦٤/٣) ؛ والحاكم برقم ٢٢٩٦ ، وقال : صحيح على شرط مسلم [المستدرك (٥٣/٢)] قال الألباني : صحيح [السلسلة الصحيحة برقم ٤٢٣(٧٨٣/١)]

[١١٨] – أخرجه البخاري برقم ٣٠١٦ (١١٦٤/٣) ؛ ومسلم برقم ١٧٣٥ (١٣٥٩/٣)

بِشْرٍ: أَلَا أَوْمَأْت إلَيّ يَا رَسُولَ الله ؟ فو الذي بَعَثَك بِالْحَقّ إنّي لَأَتّبِعُ طَرَفَك مِنْ كُلّ نَاحِيَةٍ رَجَاءَ أَنْ تُشِيرَ إلَيّ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : إنّ النّبِيّ لَا تَكُونُ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ . » [١١٩]هذا المثال صريح في أن النبي ﷺ لم يستبح لنفسه إيماءة من عينه تحمل معنىً خيانياً ، فهذا لا يليق بمقام النبوة ، وإذا كانت هذه حساسية النبي ﷺ مع أي بادرة خيانة ، ففي غيرها أولى .

وفي حادثة الرجيع تعرضت سرية من عشرة أشخاص لغدر من قبيلتي عضل والقارة [١٢٠] وانتهت باستشهاد أكثر السرية ، وأسر اثنين منهم ، وهم خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة رضي الله عنهما ، وقامت هذه القبائل ببيع الأسيرين للموتورين من أهل مكة ، أما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله في بدر ، فمكث عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله ، تروي ماوية إحدى بنات الحارث اللحظات الأخيرة لخبيب ، حيث تقول : « **فلما انسلخت الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أتيته ، فأخبرته فوالله ما رأيته اكترث لذلك وقال : ابعثي إلي بحديدة أستصلح بها . قالت : فبعثت إليه بموسى مع ابني أبي حسين – وكانت تحضنه ولم يكن ابنها ولادة – قالت : فلما ولى الغلام ، قلت أدرك والله الرجل ثأره ، أي شيء صنعت بعثت هذا الغلام بهذه الحديدة ، فيقتله ويقول رجل برجل ، فلما أتاه ابني بالحديدة تناولها منه ثم قال ممازحا له : وأبيك إنك لجريء أما خشيت أمك غدري حين بعثت معك بحديدة ، وأنتم تريدون قتلي ، قالت ماوية : وأنا أسمع ذلك فقلت : يا خبيب إنما ائتمنتك بأمان الله ، وأعطيتك بإلهك ولم أعطك لتقتل ابني . فقال خبيب : ما كنت لأقتله وما نستحل في ديننا الغدر ، قالت ثم أخبرته أنهم مخرجوه فقاتلوه بالغداة** » [١٢١]

هذه القصة لها عدة دلالات هامة : قول خبيب : ما كنت لأقتله فيه إشارة إلى أن هذا التصرف غير وارد ولا متصور ولا هو في الحسبان ، والمانع من ذلك هو أننا لا نستحل في ديننا الغدر ، ولئن كان خبيب هو أحد ضحايا غدر الغير ، فالغدر لا يقابل بمثله . والقصة تشير إلى أن الغدر لا يحل حتى في الظروف الحساسة ؛ لأنه صفة منافية للفضيلة وأخلاقيات الرسالة . قصة الرجيع وقعت بعد غزوة أحد ؛ أي كانت في السنوات الأولى للجهاد ، وقول خبيب ﷺ : لا نستحل في ديننا الغدر يدل على أن هناك تربية نبوية سابقة بينت أحكام الغدر والخيانة . وهذه القصة تبرز مدى تأدب الصحابة بأخلاقيات الرسالة ، وتشربهم لتعاليمها ، والتزامهم بها حتى في اللحظات الحرجة والظروف الحاسمة التي تتعلق بإنقاذ المهج والتي قد تستدعي حالة استثنائية تلجئ إليها الضرورة ، لكن المبدأ الأصلي المبني على الوفاء والكف عن البرءاء لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة . يمكن القول أن خبيباً كان يملك أن يأخذ الغلام رهينة ، ويطالبهم بأن يأتوا له راحلة ويؤمن هروبه من أيديهم ويضمن حياته ، ثم يطلق الغلام بعد ذلك ، لكن هذا لم يحدث من خبيب ﷺ رعاية لصورة الإسلام وصوناً للتعاليم التي تربى عليها والتي تمنع الغدر والاستغلال ، وقد يفضي الأمر إلى مقتل الغلام فيكون قد تسبب بمقتل برئ .

وقد جاءت كثير من الآيات المطالبة باحترام العهود منها قوله تعالى : ﴿ **وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً** ﴾ [الاسراء:٣٤]﴿ **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ** ﴾ [الرعد:٢٠] ، وبالمقابل جاءت كثير من الآيات التي تذم

---

[١١٩] – الواقدي : المغازي (٨٥٦/٢) ؛ الحلبي : السيرة الحلبية (٣٧/٣) ؛ الصلابي : السيرة النبوية (٤٨١/٢)

[١٢٠] – عضل بطن من بني الهول بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، ينسبون إلى عضل بن الديش بن محكم ، وأما القارة فهي بطن من الهول أيضا ينسبون إلى الديش المذكور وقال بن دريد : القارة أكمة سوداء فيها حجارة كأنهم نزلوا عندها فسموا بها [انظر : ابن حجر : فتح الباري (٣٧٩/٧)]

[١٢١] – انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى (٣٠٢/٨)

ناقضي العهود منها قوله : ﴿ **الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ** ﴾ [الانفال:٥٦] وجاءت الأحاديث صريحة في بيان أن نقض العهد أو خلف الوعد هو من علامات نفاق صاحبه يقول الرسول ﷺ : « **آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** . » [١٢٢] ومن تتبع سيرة الرسول ﷺ يجد أنه كان القدوة العليا في احترام العهود مع الغير ، ويمكن بيان مدى احترام النبي ﷺ لعهوده من خلال الأمثلة التالية :

عاهد النبي ﷺ يهود المدينة منذ قدومه للمدينة على حسن الجوار والدفاع المشترك عن المدينة ، فأوفى بعهده لهم حتى وقع منهم نقض العهد ، إما بإثارة الفتن والتعرض للمسلمين كما حصل من بني قينقاع ، وإما بالسعي لاغتيال النبي ومحاولة قتله كما وقع من بني النضير ، وإما بالخيانة العظمى من خلال التآمر مع العدو للقضاء على المسلمين في أصعب الظروف كما حصل من بني قريظة ، وقد جاء التصريح من نفس قادة اليهود على أن محمداً ﷺ كان وفياً في عهوده ، ففي غزوة الأحزاب تحرك حيي بن أخطب صاحب فكرة تجييش الأحزاب نحو بني قريظة ، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول اللهﷺ على قومه وعاهده على ذلك وعاقده ، فلما سمع بقدوم كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي : يا كعب افتح لي قال : ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم ، إني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً ، قال : ويحك افتح لي أكلمك ! قال : ما أنا بفاعل . قال : والله إن أغلقت دوني إلا على جشيشتك – أي طعامك من الحب المجروش المطبوخ – [١٢٣] أن آكل معك منها ، فأحفظ الرجل ففتح له ، فقال : ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد قد عاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه فقال له كعب بن أسد : جئتني والله بذل الدهر ويحك فدعني ومحمداً وما أنا عليه ، فلم أر من محمدٍ إلا صدقا ووفاء .

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى نقض كعبٌ عهده مع رسول الله وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ فلما انتهى إلى رسول الله الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة سيدا الأوس والخزرج لتقصي الخبر والتأكد من حقيقة نقض قريظة للعهد ، وعادا بالحقيقة المرة ، وهي أن قريظة قد نقضت عهدها وهي على أخبث حال . [١٢٤] وهذه القصة لها عدة دلالات : فيها تصريح واضح من أعداء محمد ﷺ بمدى وفاء محمد ﷺ بعهوده . وإن إرسال النبي للسعدين للتأكد من خبر بني قريظة يشير إلى مدى احترام النبي لعهوده ، فهو لا يتركها أو يتهاون بها لمجرد إشاعة أو خبر لم تتوفر الأدلة عليه ؛ لذا كان خطوته هذه من باب التثبت من الأخبار وتوفير الأدلة الصريحة الدالة على نقض الغير للعهد

يعتبر صلح الحديبية من أعظم الدروس الدالة على الوفاء المثالي بالعهود ، فقد انتهى صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ من جهة وبين سهيل بن عمرو نائباً عن قريش على أربعة شروط : أولها عودة المسلمين وعدم تأديتهم العمرة في ذلك العام على أن يؤدوها في العام الذي يليه ، وثانيها هدنة بين فريقي النزاع مدتها عشرة سنوات ، وثالثها : يلتزم محمد ﷺ بإعادة كل فرد يهاجر إليه من قريش ، ولا تلتزم قريش بإعادة أي فرد قدم إليها من المدينة المنورة ، ورابعها : من أراد أن يدخل في حلف محمد ﷺ دخل ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه .

---

[١٢٢] – أخرجه البخاري برقم ٢٦٨٢ (١٨٠/٣)

[١٢٣] – انظر ابن منظور : لسان العرب (٢٧٣/٦)

[١٢٤] انظر الطبري : تاريخ الطبري (٩٣/٢) ؛ ابن هشام : السيرة النبوية (١٧٧/٤) ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٧٨/٣) الجزائري : هذا الحبيب (٣٠٤)

كان الشرط الأول والثالث امتحاناً عسيراً على النبي وصحابته الكرام للوفاء بهذه الشروط ، ولم يكن من السهل على الصحابة الكرام بعد أن وقفوا على أعتاب البيت الحرام أن يحرموا من دخوله والاعتمار في ذلك العام ، وحصلت مراجعات عديدة من الصحابة للنبي ، وأصابت الصحابة غمة شديدة واعتبروا الالتزام بشروط الصلح من باب إعطاء الدنية ، لكن نبي الوفاء أمضى عهده وصبر على مراجعات صحابته وتخاذلهم الأولي في ذبح الهدي وحلق رءوسهم إيذاناً بالعودة للمدينة المنورة ، وكانت ساعات عصيبة على النبي وصحابته الكرام انتهت بالالتزام الكامل من جهة النبي ﷺ وصحابته الكرام . [١٢٥]

وقبل أن يجف حبر المعاهدة ، بل قبل أن تنتهي كتابتها وقع امتحانٌ آخر للنبي ﷺ وصحابته الكرام ؛ حيث جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو سفير قريش يرسف في الحديد هارباً من المشركين ، فقام له أبوه فضربه في وجهه أمام المسلمين ، وقال : يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يجيء هذا ، فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال سهيل : فوالله لا أقاضيك فقال النبي ﷺ : أجزه لي ، فقال سهيل ، لا أجيزه لك ، ومضى سهيل يجر أمامه أبا جندل وهو يصرخ : يا معشر المسلمين أأرد للمشركين يفتنوني في ديني ؟ فقال رسول الله : يا أبا جندل ! اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم . [١٢٦] كانت هذه أول تجربة عملية قاسية لشروط الصلح تبين فيها مدى وفاء النبي بعهوده ، وتبين من حديث النبي ﷺ أن التهاون في الوفاء يعتبر غدراً لا يليق بالرسالة وصاحبها .

لم يدم الأمر طويلاً على عودة النبي ﷺ إلى المدينة حتى انفلت رجل آخر من المسلمين ممن كان يعذب في مكة وهو أبو بصير الثقفي ، فأرسلت قريش في طلبه رجلين ، وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت بيننا ، فدفعه النبي ﷺ للرجلين ، وقال له : « **يَا أَبَا بَصِيرٍ إِنّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَا قَدْ عَلِمْت ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ، وَإِنّ اللّهَ جَاعِلٌ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، فَانْطَلِقْ إلَى قَوْمك ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللّهِ أَتَرُدّنِي إلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي ؟ قَالَ : يَا أَبَا بَصِيرٍ انْطَلِقْ فَإِنّ اللّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا .** » [١٢٧]

٨- **حظر العقوبات الجماعية** : الإسلام يقصر حالة الحرب في أضيق صورها على المقاتلين فقط باعتبار أن حالة الحرب هي حالة استثنائية ألجأت إليها الضرورة ، والضرورة في رسالة الإسلام تعتبر قاصرة غير متعدية ؛ لذا تقدر بقدرها ولا تتجاوز حدودها ، ووفق هذا المبدأ العام الذي يحكم حالة الحرب نجد أن تعاليم الرسالة لا تسمح بالإجراءات التعسفية التي تنال من البريء بجريرة المتهم ، ومن هذا الوجه تحظر تعاليم الرسالة أي شكل من العقوبات الجماعية التي يتسع نطاقها فتطال مجتمعاً بأسره بسبب وجود حالة حرب مع هذا المجتمع ، ولعل الوصايا السابقة التي حددت نطاق الصراع وأهله أكبر مثال على ذلك ، ومن الأمثلة التي ترشد صراحة إلى حظر العقاب الجماعي ما حصل من ثمامة بن أثال أحد أشراف نجد الذي كان أسيراً عند المسلمين ، ثم أعلن إسلامه بعد أن أحسن إليه النبي وأطلق سراحه ثم ذهب إلى مكة ليعتمر ، عن أبي هريرة ﷺ قال : « **فَلَمَّا قَدِمَ – أي ثمامة – مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : صَبَوْتَ قَالَ : لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَلَا وَاللَّهِ لَا**

---

[١٢٥] – انظر الحلبي : السيرة الحلبية (٦٨٩/٢ وما بعدها)

[١٢٦] – انظر الطبري : تاريخ الطبري (١٢٣/٢)

[١٢٧] – المرجع السابق (١٢٥/٢) ؛ ابن هشام : السيرة النبوية (٢٩٢/٤)

يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ . » [١٢٨] وفي رواية قال ثمامة : « **والله يا معشر قريش أقسم بالله لا يأتيكم من اليمامة بر ولا تمر حتى تسلموا أو يأذن فيه محمد ﷺ** » [١٢٩]

إذا كان هذا تهديداً من أحد قادة نجد بمنع الحنطة عن مكة ، فقد أقسم مندفعاً بحرارة إيمانه الغض على منع تموين مكة من الحبوب التي تنتجها اليمامة ، وبالفعل أمضى هذا الرجل تهديده ، ومنع أهلها من أن يرسلوا قمحاً إلى قريش ، حتى جهدت قريش وعانى أهل مكة ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ برسالة فيها : « **إنك تأمر بصلة الرحم ، ولكنك قطعت أرحامنا ، فقتلت الآباء وجوعت الأبناء** » [١٣٠] فأرسل النبي ﷺ لثمامة مباشرة يأمره برفع هذا الحظر ، وأن يدع الحبوب تمر إلى مكة دون قيود . [١٣١] هذه القصة نستنتج منها عدة أمور : كانت فكرة الحظر بمبادرة من أحد قادة نجد الذين أسلموا ، ولم تكن بعلم النبي ﷺ أو بمبادرة منه . ونلحظ في القصة أن النبي ﷺ عندما رأى آثار الحظر أرسل مباشرة لإلغائه بالرغم أن هناك مصلحة من ذلك وهو إلجاء قريش للإذعان للمسلمين ، لكنها في نظر تعاليم الرسالة مصلحة موهومة مقابل ما يترتب عليها من مفاسد تقضي بتجويع أهل مكة جميعاً ، وهذا يتنافى مع نهج الشريعة في حصر آثار الحرب وتضييقها قدر الإمكان . [١٣٢]

نستنتج مما سبق أن تعاليم الرسالة تحظر أشكال العقوبة الجماعية ، بل لم تخضع هذا الإجراء لمبدأ المعاملة بالمثل ، وقد سبق في العهد المكي أن استخدمت قريش هذا الأسلوب بشكل مروع مع النبي ﷺ وصحابته الكرام مدة ثلاث سنوات بما يعرف بحصار شعب أبي طالب . ومنع العقوبة الجماعية إنما يكون بين المسلمين وغيرهم عندما تكون الحالة حالة حرب بين الفريقين ؛ أي تلك الحالة التي يمكن أن تمتد سنوات ، لكن في حالة نشوب الحرب ، والتي تقتضي أحياناً حصار العدو ، فأمكن تصور قطع المؤن مدة الحصار لإلجائه للاستسلام ، وهذا تقتضيه حالة الضرورة الحربية التي لا مناص منها ، وقد استخدم النبي ﷺ أسلوب الحصار مع خيبر ومع ثقيف في الطائف ، لكن لم يصل الحد إلى تجويع من في الحصن ، فحصون خيبر كانت ملأى بالمؤن التي تكفي لأشهر ، بينما الحصار دام ١٨ عشر يوماً فقط ، وكذلك الشأن بالنسبة للطائف .

٦- حرص القيادة النبوية على تثبيط شهوة القتل أو التشفي والانتقام :

من نظر إلى طبيعة أهل الجزيرة العربية قبل الإسلام وطبيعة حروبهم يرى أن شهوة القتل في الحروب إفراز طبيعي لتلك البيئة القاسية التي كانوا يعايشونها ، فحر الصحراء وجذب الحياة وشظف العيش قد ألقى بظلاله على نفوسهم التي ورثت قسوتها من قسوة الطبيعة حولهم ،وهذه القسوة كانت تترجم أحياناً بشكل همجي في الحروب . وفي ظل هذه البيئة القاسية أشرق نور الرسالة المحمدية ، وكان لا بد من وأد ترسبات البيئة القاسية من نفوس الأتباع وتوجيه سلوكهم نحو أخلاقيات الرسالة القائمة على الرحمة والسماحة والصبر والعفو وتثبيط كل النوازع الغضبية من النفس ، لذا كانت السنوات الأولى للرسالة في العهد المكي بمثابة مدرسة عملية للأتباع نحو التحلي بتلك الفضائل ، وفي العهد المدني حيث الحروب والمواجهة العسكرية كانت التوجيهات النبوية أثناءها تهتم بحسم مادة التشفي أو الميل للقتل أو التسرع فيه ، وذلك من خلال تثبيط تلك الموروثات التي ورثوها من طبيعة المجتمع الصحراوي وثقافته الدموية ، لذا حرص النبي ﷺ في كل غزواته على التأكيد على مبدأ العفو من جهة ، ومن جهة

---

[١٢٨] – متفق عليه : أخرجه البخاري برقم ٤١١٤ (١٥٨٩/٤) ؛ ومسلم برقم ١٧٦٤ (١٣٨٦/٣)

[١٢٩] – انظر الزيلعي : نصب الراية (٣٩٢/٣)

[١٣٠] – انظر ابن هشام : السيرة النبوية (٥٢/٦)

[١٣١] – المرجع السابق نفس الصفحة .

[١٣٢] – انتبهت القوانين الدولية إلى عدم شرعية تجويع الغير كإجراء حربي بعد أربعة عشر قرناً من تعاليم النبي ﷺ الدالة على ذلك ، فقد جاء في الوثيقة الخامسة من البروتوكول الإضافي باتفاقيات جنيف لعام ١٩٧٧م في المادة ٥٤ منه : « **يحظر تجويع المدنيين كأسلوب من أساليب الحرب** . » [بندق : موسوعة القانون الدولي الإنساني (٢٩٥)]

أخرى كانت تعاليمه تؤكد على تخفيف ثائرة النفوس نحو التشفي أو الميل للقتل ، بل نراه حريصاً على تثبيط شهوة التسرع في القتل أو الحرص على إيقاعه ، أو الإقدام عليه ، وهذا يفسر قلة القتلى في حروبه مقارنة بالإنجازات التي حققها من خلالها ، ويمكن ملاحظة هذا المنهج في التالية :

أولا : تربية الجند على عدم التسرع في القتل : كان النبي ﷺ يتعامل بحساسية شديدة مع مسألة سفك الدم ، أو حتى التفكير في الإقدام عليه ، وهذه الحساسية تظهر بشكل واضح في إحجامه عن الأمر بالقتل حتى مع توفر دواعيه ، وذلك تربية لأصحابه بعدم اللجوء لهذا الإجراء حال التمكن إلا في حالات الضرورة القصوى ، وبعض التجارب العملية من النبي ﷺ تقفل الباب حتى مع وجود مبررات الإقدام على قتل بعض المجرمين ، وهذه التجارب لها الأثر في جيش النبوة على حسم فكرة الإقدام على القتل أو التسرع فيه ، وتفتح المجال واسعاً أمام الذرائع المعززة لحقن الدماء ، ومن الأمثلة الدالة على هذا الإجراء ما يلي : **النبي ﷺ وذو الخويصرة رأس الفكر الخوارجي** .

عن أَبي سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « **بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ – وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ ! فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ ! قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ: دَعْهُ** » [١٣٣] وفي رواية أخرى : « **بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا قَالَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً قَالَ : فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الْإِزَارِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ ! قَالَ : وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ ؟ قَالَ : ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ! قَالَ : لَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي فَقَالَ خَالِدٌ : وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ قَالَ : ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ فَقَالَ : إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ وَأَظُنُّهُ قَالَ : لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ** »[١٣٤] وفي رواية أخرى « **فَقَامَ إِلَيْهِ عُمَرُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ! قَالَ : لَا قَالَ : ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَامَ إِلَيْهِ خَالِدٌ سَيْفُ اللَّهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ قَالَ لَا .** » [١٣٥]

هذه الروايات الثلاثة تشير إلى قصة ذي الخويصرة مع رسول الله ﷺ ، وقد تضمنت اتهاماً لرسول الله ﷺ بالظلم في توزيع الغنائم ، وهذا الاتهام في حق رسول الله ﷺ يعتبر من أعظم الجرائم ، وهي جريمة تخل بجوهر التوحيد ، وهذا ما أثار الصحابة على ذي الخويصرة ، ولم يجدوا كفارة لهذه الجريمة إلا بضرب عنقه ، وهكذا تسارع كل من عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما بالاستعداد لضرب عنقه وطلب الإذن بذلك من رسول الله ﷺ ، لكن النبي الأعظم منعهما من ذلك

---

[١٣٣] – أخرجه البخاري برقم ٣٤١٤ (١٣٢١/٣)

[١٣٤] – أخرجه البخاري ٤٠٩٤ (١٥٨١/٤) ؛ ومسلم برقم ١٠٦٤ (٧٤٢/٢)

[١٣٥] – أخرجه مسلم برقم ١٠٦٤ (٧٤٣/٢)

بالرغم من فداحة جرم هذا الرجل ، وبالرغم من معرفة النبي لحقيقة هذا الرجل حيث إنه سيكون أصل الخوارج في مستقبل الأمة الإسلامية ، إلا أنه لم يعزز فكرة التسرع في القتل عند الأصحاب ؛ لذا نجده يبحث عن ذرائع وشبه تحول دون الإقدام على قتله أو الإساءة إليه ؛ فقال : لعله يكون يصلي ، أي أن احتمالية كونه يصلي كفيلة بحقن دمه ، والتجاوز عن جرمه ، فراجعه خالد بقوله : كم من مصلي يقول بلسانه ما ليس في قلبه . وكانت هذه المراجعة من خالد بمثابة القرينة التي يمكن أن تبيح دم هذا الرجل ، فأجابه النبي ﷺ : إني لم أؤمر بالتنقيب على قلوب الناس ، فهذا الحوار يشير صراحة إلى تلك التربية التي تلقاها الأتباع ، والتي تحول بينهم وبين التسرع في القتل أو الإقدام عليه .

مثال آخر : عمر ورأس النفاق ابن أبي سلول : عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قال : « **كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ قَالَ : يَرَوْنَ أَنَّهَا غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لَلْأَنْصَارِ ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ! فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَقِيلَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَسَعَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ . قَالَ جَابِرٌ : وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ أَقَلَّ مِنْ الْأَنْصَارِ ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ فَقَالَ : فَعَلُوهَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : يَا عُمَرُ دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ .** » [١٣٦]

الموقف السابق يبرز أن النبي ﷺ كان يربي أصحابه دائماً على عدم التسرع في القتل أو التشفي ، بل يعودهم الصبر والتأني ، ووضع الأهداف الرسالية وأخلاقيات الرسالة نصب أعينهم في كل موقف ، وبالرغم من فداحة الجريمة السابقة التي تضمنت تصريحاً بإخراج النبي ﷺ من المدينة ذليلاً إلا أن النبي ﷺ قد أقفل باب تصفيته في وجه المتسرعين على الإقدام عليه ، ولو فتح النبي ﷺ المجال لتعداد جرائم أبي سلول في حق المسلمين لما شفع له شافع في تلك اللحظة ، ولكان ضرب عنقه من باب الجزاء الوفاق لما ارتكبه في حق المسلمين خاصة أنه تولى قيادة النفاق في المدينة ، وكان من أكثر الناس كيداً للمسلمين ، وتخذيلاً لهم ، ومناصرة لعدوهم ، وهذا واضح من مواقفه المتعددة في أحد وغزوة بني النضير ، وانتهى به الأمر بإشاعة حديث الإفك الطاعن بزوج رسول الله ﷺ ، وهي جريمة من أعظم الجرائم في حق النبي ، وقد وصفه القرآن بأنه تولى كِبَر هذه الفرية ، وتوعده القرآن أعظم وعيد لفعلته هذه . فهذه بعض جرائم أبي سلول ، وكل جريمة منها كفيلة بتصفيته ، ودواعي الانتقام قوية في حق هذا الرجل ، وأولى الناس بالانتقام منه هو رسول الله ﷺ وليس عمر لكنها أخلاق محمد ﷺ الداعية للفكر الرسالي الرحيم وتغليبه على كل النزوات والشهوات .

نلحظ من الموقف السابق أن النبي قد ذكر ذريعة تحول دون قتل عمر لأبي سلول حتى مع توفر كل دواعي القتل ، وفي ذلك تربية للأصحاب على عدم اتخاذ قرار القتل أو التسرع به ، أو الحرص على إيقاعه حتى مع توفر دواعيه ، وهذه التربية كان لها دور كبير في حقن كثير من الدماء من جهة ، ومن جهة أخرى عززت تربية الإحجام عن القتل حتى مع توفر دواعيه عند أتباع الرسالة الذين مثلوا جيش النبوة ، وبالتالي قصرت فكرة الإقدام على القتل على حالات استثنائية تخضع لمقتضيات الضرورة القصوى ، وهذه التربية آتت أكلها في كل معارك المسلمين التي تميزت بقلة القتلى فيها ، وعززت من تلك الصورة المثالية التي رسمتها الجيوش الإسلامية في فتوحاتها المتكررة ، والتي تميزت بقلة القتلى قياساً مع حجم تلك الفتوح ، يقول المفكر والقانوني

---

[١٣٦] – أخرجه البخاري برقم ٤٦٢٤ (١٨٣٦/٤) ؛ مسلم برقم ٢٥٨٤(١٩٩٨/٤)

الفرنسي المعاصر مارسيل بوازار : « **منذ الفتح العربي الإسلامي ، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحاً من التسامح مع غير المسلمين ، ومع الشعوب المغلوبة في زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعاً ولا عاطفة .** » [١٣٧]

بالرغم من أن هناك مصلحة قوية في تصفية رأس النفاق أبي سلول إلا أن النبي ﷺ ألغاها رعاية لصورة الإسلام من جهة في الموقف السابق ، وفي موقف آخر يتطوع ابن رأس النفاق نفسه لقتل أبيه وجاء بهذا العرض لنبي الله ليأذن له في قتل أبيه على جرائمه إلا أن النبي ﷺ رفض طلبه رعاية لحقن الدماء وسجل مثالية غير معهودة ، وقال لعبدالله ابن أبي سلول : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ، وكلا الموقفين يشيران صراحة إلى أن مسألة حقن الدماء هي غاية عليا في نظر النبي ؛ لذا نجد النبي ﷺ ينتقل من ذريعة لأخرى كل ذلك تحقيقاً للغاية العليا عنده ، بل موقف النبي مع ابن رأس النفاق يشير إلى أنه حتى لو لم توجد ذريعة مانعة من قتله ، فالأصل التأكيد على مبدأ حقن الدماء رعاية لمبدأ الإحسان وتغليباً لخلق الرفق التي تميزت به رسالة محمد ﷺ .

مثال ثالث: عن الخيانة العظمى ،حاطب بن أبي بلتعة صحابي قام بإفشاء سر عسكري لصالح الأعداء من خلال رسالة أرسلها لقريش يبلغهم بها عن تحركات المسلمين واستعدادهم لغزو مكة ، وكان هذا السر العسكري من أخطر الأسرار العسكرية التي تمس معركة حساسة جداً للمسلمين وللرسول ﷺ الذي اهتم بجانب السرية المطلقة في هذه الغزوة بالذات لخطورتها وتعلقها بموقع مقدس كبلد الله الحرام ، لذا يعتبر إفشاء هذا السر بمثابة خيانة عظمى من حاطب لله ولرسوله ، وليس من السهل أن يشفع له شافع مقابل جرمه هذا ، لكن كان للنبي ﷺ معه موقف آخر ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ : « **بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ وَكُلُّنَا فَارِسٌ فَقَالَ : انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى جَمَلٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ قُلْنَا : أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي مَعَكِ ؟ قَالَتْ : مَا مَعِي كِتَابٌ فَأَنَخْنَا بِهَا فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا قَالَ صَاحِبَايَ مَا نَرَى كِتَابًا قَالَ قُلْتُ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ قَالَ : فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ مِنِّي أَهْوَتْ بِيَدِهَا إِلَى حُجْزَتِهَا وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ فَأَخْرَجَتْ الْكِتَابَ . قَالَ : فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا غَيَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي ، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إِلَّا وَلَهُ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ قَالَ : صَدَقَ فَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا قَالَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ . قَالَ فَقَالَ : يَا عُمَرُ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ قَالَ فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .** » [١٣٨]

فالجريمة هي الخيانة العظمى للأمة ، وعند التحقيق في دواعيها تبين أن لحاطب شبهة في الوقوع بها ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن بين صدق حاطب ، وأوصى صحابته بعدم توبيخه ولا تقريعه ، ثم رأينا موقف عمر ﷺ المبادر بطلب الإذن بضرب عنقه لخيانته ، فبين النبي ﷺ أن هناك ما يشفع لحاطب وهو كونه من أهل بدر معتبراً أن المشاركة في غزوة بدر فضيلة موجبة للجنة لا يفسدها ما يحصل من أهلها بعدها . فالنبي ﷺ بالرغم من عظم جرم حاطب إلا أنه لم يتركه نهبة للقتل أو للطعن والتجريح ، بل أبرز له فضيلة دمعت لأجلها عينا عمر الذي كان قبل ذلك يتهمهم بضرب عنقه ، وهذه القصة صريحة

---

[١٣٧] – خليل : قالوا عن الإسلام (٢٧٤)

[١٣٨] – أخرجه البخاري برقم ٥٩٠٤ (٢٣٠٩/٥)

في أن النبي ﷺ لم يقتصر مع أتباعه على منعهم من التسرع في القتل ، بل في حسم مادته من قلوبهم وذلك ببيان أهم الجوانب الإيجابية فيمن يقصدون قتله . كذلك نلحظ في جيش النبي محمد ﷺ أنه وخلال مرحلة الجهاد المبارك الذي خاضه النبي ﷺ لم يعرف أي شكل من أشكال التصفيات الداخلية في أفراده حتى مع عظم جرم بعض الأتباع ، وهذه أخلاقيات لم تعهد في جيش على الأرض مهما بلغ من رقيه الفكري والأخلاقي ، بل لم تعرف ثورة دون تصفيات داخلية ، ولم نعهد جيشاً أحجم عن هذه التصفيات إلا جيش محمد ﷺ خاصة فيما يتعلق بالخيانة العظمى للجيش وأسراره العسكرية .

ثانيا : تثبيط الفكر الداعي للقسوة أو التشفي أو الانتقام : مثاله الأقرب اختيار الرأي الأرفق في أسارى بدر تغليباً لجانب الرحمة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : « .. **فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ : مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ .** »[١٣٩] ، وفي رواية عَنِ الْحَسَنِ قال : « **اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ . قَالَ فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ . فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ . فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ تَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ وَتَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ ، فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ الْغَمِّ قَالَ فَعَفَا عَنْهُمْ .** »[١٤٠]

هذه القصة بخصوص أسرى بدر تشير إلى أن النبي كان لا يشجع المواقف التي تشير إلى القسوة ؛ لذا كان يعرض عن رأي عمر ﷺ الذي كان يميل إلى قتل الأسرى ، وهذا الأسلوب تربية لصحابته الموجودين بعد غزوة بدر إلى أن النبي يحرص في مثل هذه المواقف إلى اللين وإلى تثبيط النوازع التي ترشد إلى القسوة أو التشفي . إن تكرار إعراض النبي عن موقف عمر ، ثم إشارته في المرة الثانية أن هؤلاء الأسرى إنما هم إخوان الأمس فيه تعزيز إلى أنه كان يميل إلى موقف فيه شفقة ورحمة بهم ، وهذا واضح عندما ذهبت عن نفسه الغمة بعد رأي أبي بكر الذي نحا هذا المنحى ، وهذا الموقف فيه تربية للأصحاب لأن يتجهوا هذا الاتجاه في آرائهم . تشير السير إلى أن سعد بن معاذ كان من أصحاب الرأي القائل بقتل الأسرى منذ اللحظة الأولى ، وذلك بدلاً من أسرهم ؛ لذا عندما شرع المسلمون في أسر المشركين كره ذلك ، ورأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس فقال له رسول الله ﷺ : « **وَاللّهِ لَكَأَنّك يَا سَعْدُ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ الْقَوْمُ ، قَالَ : أَجَلْ وَاَللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ كَانَتْ أَوّلَ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللّهُ بِأَهْلِ الشّرْكِ . فَكَانَ الْإِثْخَانُ فِي الْقَتْلِ بِأَهْلِ الشّرْكِ أَحَبّ إلَيّ مِنْ اسْتِبْقَاءِ الرّجَالِ .** »[١٤١] فهذا الموقف عاينه النبي ﷺ من سعد ﷺ قبل الاستشارة في الأسرى ، ونلحظ أن النبي قد غلب الأرفق على الأشد تغليباً لفكر الرحمة وتعزيزاً له عند الأصحاب ، واختيار الأرفق منهج عام أكد عليه النبي ﷺ في تعاليمه ، من ذلك قوله : « **إِنَّ**

---

[١٣٩] – أخرجه مسلم برقم ١٧٦٣ (١٣٨٣/٣)

[١٤٠] – أخرجه أحمد برقم ١٣٥٨٠ (٢٤٣/٣) ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب وهو كثير الغلط والخطأ لا يرجع إذا قيل له الصواب وبقية رجال أحمد رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٨٧/٦)] والحديث له شاهد في الصحيح .

[١٤١] – انظر ابن هشام : السيرة النبوية (١٧٦/٣)

الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ »[١٤٢] وهذا المنهج لاحظه الصحابة من النبي ﷺ في كل شأنه شأنه حتى أصبح فكراً عاماً مهيمناً على كل تصرفاته ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : « **مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا ، كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا .** » [١٤٣]

المثال الثاني : حسم نازع التشفي والانتقام من الجنود : غزوة أحد كانت من أكثر الغزوات إيلاماً للنبي ﷺ خاصة بعدما رأى ذلك التمثيل الفظيع والتشويه البالغ الذي تعرض له عمه حمزة ﷺ ، لذا عندما رآه بكى بكاءً شديداً عليه ، حتى سمع لبكائه شهيقاً . بل لهول الصدمة وبشاعة المنظر ، قال النبي ﷺ : « **لَوْلَا أَنْ تَحْزَنَ صَفِيَّةُ ، وَيَكُونَ سُنَّةً مِنْ بَعْدِي لَتَرَكْته ، حَتَّى يَكُونَ فِي بُطُونِ السِّبَاعِ وَحَوَاصِلِ الطَّيْرِ وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنْ الْمَوَاطِنِ لَأُمَثِّلَنّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ.** » [١٤٤] وقال المسلمون رعاية لحال النبي وكمده على عمه : « **وَاَللَّهِ لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللَّهُ بِهِمْ يَوْمًا مِنْ الدَّهْرِ لَنُمَثِّلَنّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يُمَثِّلْهَا أَحَدٌ مِنْ الْعَرَبِ** »[١٤٥] كلمات خرجت من فم النبي ﷺ في لحظة انفعالية خلال موقف من أبشع المواقف التي عاشها ، وإن كان محمداً ﷺ كغيره من البشر إلا أن عواطفه محكومة بمنهجه ؛ لذا جاء التوجيه الرباني مباشرة بعد تلك الكلمات ليصحح مسار تلك العواطف ، وأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل:١٢٦] فعفا النبي ﷺ وصفح مباشرة ونهى عن المثلة .

وهذا الموقف له دلالاته فالنبي ﷺ رأى من حال صحابته الكرام أنهم بردهم بدءوا يميلون نحو فكر التشفي والانتقام ، وهذه النوازع لا تليق بأخلاقيات الرسالة ، وترك العنان لها دون توجيهها في تلك اللحظة سيترتب عليه عواقب وخيمة على مستوى أخلاقيات الحرب ؛ لذا جاء التوجيه المباشر من السماء وأعقبه توجيهاً آخر من النبي ﷺ مبني على العفو والصفح ، ثم النهي عن المثلة ، وبهذا التوجيه السريع استطاع النبي ﷺ أن يصحح مسار الفكر عند صحابته الكرام دون جنوحه نحو نوازع التشفي والانتقام .

ثالثا: تغليب فكر الرحمة على نازع التشفي والانتقام : عن العباس ﷺ في حديثه الطويل عن فتح مكة وعرض كتائب الفتح على أبي سفيان وفيه : « **حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَالَ أبو سفيان : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ العباس : هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ : يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ ... فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ : أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ؟ قَالَ : مَا قَالَ ؟ قَالَ : كَذَا وَكَذَا فَقَالَ النبي ﷺ : كَذَبَ سَعْدٌ وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُرْكَزَ رَايَتُهُ بِالْحَجُونِ** » [١٤٦] وفي رواية : « .. **وَأَمَرَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ أَنْ يَدْخُلَ فِي بَعْضِ النَّاسِ مِنْ كَدَاءٍ ، فَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنّ سَعْدًا حِينَ وَجّهَ دَاخِلًا ، قَالَ : الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمُ تُسْتَحَلّ الْحُرْمَةُ فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ – قَالَ**

---

[١٤٢] – أخرجه مسلم برقم ٢٥٩٤ (٢٠٠٤/٤)

[١٤٣] – أخرجه البخاري برقم ٦٤٠٤ (٢٤٦١/٦) ؛ ومسلم برقم ٢٣٢٧ (١٨١٣/٤)

[١٤٤] – انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١٢٠/٦) ؛ الحاكم : المستدرك (٢١٨/٣) ؛الهيثمي : مجمع الزوائد (١٢٠/٦)

[١٤٥] – انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك (٧٢/٢) ؛ ابن كثير : البداية والنهاية (٤٤/٤)

[١٤٦] – أخرجه البخاري برقم ٤٠٣٠ (١٥٥٩/٤)

ابْنُ هِشَامٍ : هُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللّهِ اسْمَعْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ! ، مَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي قُرَيْشٍ صَوْلَةٌ ،فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:أَدْرِكْهُ فَخُذْ الرّايَةَ مِنْهُ فَكُنْ أَنْتَ الّذِي تَدْخُلُ بِهَا »[١٤٧]

يستنتج من هذه القصة عدة دلالات منها : نلحظ من سياق القصة أن بعض القادة الميدانيين وهو سعد بن عبادة قد أبدى نازع التشفي والانتقام قبيل فتح مكة ، و قد صرح بهذا النازع أمام أبي سفيان ، وفي الرواية الثانية أنه كرر هذا النازع مرة أخرى عند دخوله مكة ، وقد استنكر عليه بعض الأتباع هذا النازع المستهجن في أخلاقيات الجيش فقام بإخبار النبي ﷺ بذلك مما يشير إلى أن الجنود رأوا في ألفاظ سعد شيئاً غريباً عن ثقافتهم التي تربوا عليها . كما نلحظ من النبي أنه لم يسكت على تلك الألفاظ التي تلفظ بها سعد ؛ لذا سارع بتكذيب سعد في مقولته ، والتكذيب هنا لا يراد به أنه كاذب ، بل يراد به أنه بمقولته يخالف أهداف المعركة الحقيقية ، ويرفع لها شعاراً مزيفاً لا يمت لأهداف المعركة الحقيقية المعلنة والخفية ، ومباشرة صحح النبي ﷺ شعار المعركة مبرزاً أن اليوم هو يوم المرحمة ، ويوم تعظم فيه الكعبة ، وفي الرواية الثانية استخدم النبي إجراءً احترازياً ؛ حيث نزع الراية من سعد وأعطاها لعلي ﷺ ، وفي رواية لابن سعد وذلك ليضمن عدم وقوع تجاوزات مبنية على التشفي والانتقام .

هذه القصة صريحة في أن النبي ﷺ لم يكن ليسمح لنوازع التشفي والانتقام في التغلغل في جيشه بل كان دائماً يصحح مسار الفكر ويهذب السلوك ، ويتخذ الإجراءات الاحترازية الكفيلة بعدم ترجمة هذه النوازع في أرض المعركة .

رابعا : الدم يستتبع الدم : عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ : « إِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ ، عَدَتْ خُزَاعَةُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَتَلُوهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِينَا خَطِيبًا فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ مِنْ حَرَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا ، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا ، لَمْ تَحْلِلْ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي ، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ غَضَبًا عَلَى أَهْلِهَا ، أَلَا ثُمَّ قَدْ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ أَلَا فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ ، فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَاتَلَ بِهَا ، فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يُحْلِلْهَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ ، وَارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ الْقَتْلِ فَقَدْ كَثُرَ أَنْ يَقَعَ – إن نفع [١٤٨] – لَئِنْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَنَّهُ، فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ ، وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ ، ثُمَّ وَدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ الَّذِي قَتَلَتْهُ خُزَاعَةُ . » [١٤٩]

مناسبة هذه الخطبة أن خزاعة قامت بقتل رجل من هذيل وهو مشرك في مكة عند فتحها ، وقد قتلته انتقاماً ؛ لأنه سبق أن قتل رجلاً منهم في الجاهلية ، فعلم النبي ﷺ بالأمر فغضب غضباً شديداً ، وجمع الناس وخطب خطبته السابقة .

ويستفاد من هذا الحدث عدة أمور : نلحظ من سياق القصة أن النبي قد غضب غضباً شديداً لمقتل الهذلي في مكة بالرغم من كونه مشركاً ، ورأى النبي أن خزاعة بفعلتها هذه قد استغلت موالاتها للنبي وظروف الفتح لتحقق ثأراً لها ، وهي بهذا الفعل تحقق هدفاً شخصياً لها مبني على التشفي ، وذلك على حساب الأهداف الرسالية التي كان النبي ﷺ يسعى دائماً على عدم غيابها من فكر جيشه . بين النبي أن فعلة خزاعة منافية لأخلاقيات الحرب الداعية لحسم النوازع الانتقامية ، وأن قتلهم هذا

---

[١٤٧] – انظر الطبري : تاريخ الطبري (١٥٩/٢) ؛ ابن هشام : السيرة النبوية (٦٥/٥)

[١٤٨] – انظر ابن هشام : السيرة النبوية (٧٧/٥)

[١٤٩] – أخرجه البخاري برقم ١١٢ (٥٣/١) ؛ ومسلم برقم ١٣٥٥(٩٨٩/٢) ؛ أحمد واللفظ له [المسند (٣٢/٤)]

لا يترتب عليه إلا مزيد سفك الدماء ، والدم يستتبع الدم ، ومن هذا الوجه بين النبي أن سفك الدم لا يحل المشكلة بل يعمقها ؛ لذا قال : لقد كثر القتل إن نفع ؛ أي أن القتل من كل وجه لا ينفع ؛ لذا الأصل حسمه ، وعدم الانجرار وراء الدواعي الانتقامية والنوازع الثأرية . نلحظ أن النبي قد قرر ودي قتيل هذيل ؛ ليحسم دواعي الانتقام و تسلسل الدم ، وقول النبي لخزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتل ، فيه تقريع وتوبيخ لخزاعة على فعلتهم المنكرة استجابة لداعي الانتقام ، وسياق الخطبة كله يشير إلى مدى حساسية الأمر عند النبي ؛ لذا تضمنت كثيراً من التوجيهات والتحذيرات التي تكفل عدم تكرار مثل هذه النوازع الانتقامية [١٥٠] هذه الإجراءات المتكررة من النبي ﷺ كغضبه الشديد وخطبته المطولة لتدل دلالة صريحة على أن النبي ﷺ كان يتعامل بحساسية شديدة تكفل حسم كل نوازع الانتقام والتشفي ، وتضمن عدم تدخلها في ثنايا حروبه الرسالية ذات الأهداف السامية

الخلاصة : أولاً : هذا المبحث في صميم أخلاقيات الحرب بل تضمن منهجاً كان وراء تقليل الدماء في حروب النبي ﷺ ، ومنع التصفيات النهائية داخله ، و لا يمكن تصور القيمة الأخلاقية العظمى لهذه التربية إلا إذا لفتنا الانتباه لأمرين في غاية الأهمية وهما : المسلمون في بادئ عهدهم قد تعرضوا لاضطهاد غير مسبوق ، ولا بد لهذه الاضطهاد أن يترك ظلالاً كئيبة في النفوس ، ويخلق ترسبات في كوامنها تعزز جانبي التشفي والانتقام خلال الحروب خاصة في تلك الحروب التي يكون النصر فيها حليفاً للمسلمين ؛ لذا لو ترك الأمر على عواهنه لكانت النتيجة مروعة في حق أخلاقيات الحرب عند المسلمين ، ولترجمت تلك الترسبات بأبشع صورة على أرض الواقع ؛ لذا كان التأكيد على هذا الجانب وتثبيط هذه النوازع من النفوس أكبر الأثر في مثالية أخلاقيات الحرب في السيرة ، والتجربة العملية تدل صراحة إلى أن النبي ﷺ قد نجح نجاحاً مميزاً في هذا الباب وكان قدوة عليا كفلت عدم وقوع تجاوزات من هذا الوجه . والثاني: طبيعة البيئة الصحراوية تعزز جانب القسوة والاستهانة بالدم والتشفي خاصة في ظل الثقافة التي رضعها الأصحاب من بيئتهم قبل الإسلام ؛ وهذا يبرز عظمة الإنجاز الذي قام به النبي ﷺ في هذا الجانب ، بل يشير ذلك على سعة الإناء التربوي الحاضن الذي تآزر بمجموعه في تثبيط هذه النوازع الموروثة والتي لا يسهل اجتثاثها من النفوس .

ثانياً : نلحظ من خلال المطلب الأول تلك الحساسية التي تميز بها النبي ﷺ ، وهذا الحرص الشديد الكفيل بحقن الدماء حتى مع توفر دواعي إراقتها ، فالأمثلة الثلاثة تناولت رأس الخوارج ورأس النفاق ، ورجل ارتكب خيانة عظمى ، وبالرغم من ذلك بحث النبي ﷺ عن ذرائع تكفل حقن دمائهم ، وهذه المواقف العملية عايشها الصحابة رضي الله عنهم ، وتربوا على تلك الحساسية نحو الدماء ، فإذا لم تسمح أخلاقيات الرسالة لإراقة دم رأس النفاق ورأس الخوارج ومن ارتكب خيانة عظمى فمن باب أولى أنها لا تسمح لمن هو دونهم ؛ وهذا المضمون هو ما أراد النبي ﷺ إيصاله لجيشه حتى يكفل حقن الدماء ويثبط شهوة التسرع فيه لأقصى حد .

ثالثاً : كان لهذه التربية أثرها في إنهاء أجواء الحرب بعد الانتصار ، وتضمن سماحة ساعدت على نشر الإسلام بسرعة في الأمم المغلوبة ، لأن حقن الدم له أثره في تخفيف ثائرة النفوس ، وبالمقابل الدم يستتبع الدم ، كذلك هذه التربية تفسر لنا قلة الخسائر في سائر حروب النبي ﷺ قياساً مع عظمة الإنجازات التي حققتها .

٧ – غايات الحرب في حياة النبي محمدﷺ وأهدافها السامية

[١٥٠] – اللحام : هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي (٥٢٧)

لم يكن الجهاد أو حروب النبي خاضعة للمصالح والمآرب الدنيوية ، بل كانت تحكمها أهدافاً سامية وغايات نبيلة تهيمن على كل سلوك حربي في سيرة النبي ﷺ ؛ لذا نجد الإسلام قد عدل عن لفظة الحرب واستخدم مصطلحاً جديداً وهو الجهاد ليؤكد على أن هذه الحروب هي مغايرة لكل حروب البشر التي تحكمها المصالح والأغراض الدنيوية ، وتفصيل ذلك في مطلبين :

أولا : أهداف الحرب غاياته في الإسلام ،

١- دفع العدوان وحسر الظلم وإنقاذ المستضعفين : وهذا الهدف واضح من خلال الغطرسة والطغيان الذي مارسته قريش على المسلمين ، وملاحقتها لهم في كل مكان حتى لم تبق مجالاً أمام المسلمين بعد استنفاذ كل الوسائل إلا بالحسم العسكري معها ومن يناصرها أو سلك مسلكها ، وقد صرحت كثير من الآيات في الدلالة على هذه الغاية منها : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً** ﴾ [النساء:٧٥] فالآية صريحة بأن القتال سببه هو الدفع عن المستضعفين الذين كانوا يسامون سوء العذاب من مكة ، وغايته هو إنقاذ المستضعفين من سطوتها ،قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج:٣٩] والآية صريحة في أن الإذن بالقتال إنما هو لدفع حالة الظلم التي مورست على المسلمين من خلال اضطهادهم وإخراجهم من أرضهم وملاحقتهم في كل مكان .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .** ﴾ [التوبة: ٣٦] ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة:١٩٠] هذه الآيات صريحة في أن القتال يدخل ضمن سنة المدافعة ورد اعتداء المعتدين ، وفيها إشارة إلى حصر القتال مع الفئة المعتدية . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة:١٩٤] الآية صريحة في أن القتال يراد به عقاب المعتدي وكف عدوانه بمثله دون تجاوز .[١٥١]

٢- حماية وتأمين الدولة الناشئة : كان قيام نواة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة مصدر استهجان من كل المجتمع القبلي الذي يحيط بها ، وهي من وجه آخر لقمة سائغة لذلك المجتمع الذي تمرس القتال والسلب والنهب ، والاستقواء على الضعيف ، خاصة أن غرابة هذا الكيان الناشئ في معتقداته وقيمه وتحريض سيدة العرب (مكة) عليه قد فتح شهية كل هذه القبائل للانقضاض على ذلك الكيان ووأده في مهده ، وهذا اقتضى خطوة سريعة عاجلة من النبي ﷺ من خلال إعداد جيش وبث سرايا لفرض هيبة المسلمين وحماية بيضتهم ، بل جاءت الآيات الدالة على أن إعداد جيش قوي ليس هدفه الاعتداء بقدر ما هو فرض هيبة وبث الرهبة التي تحول دون الاعتداء على المسلمين [١٥٢].يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الانفال:٦٠]

٣- حماية حرية نشر الدعوة : وهذا هدف فرضه طبيعة المجتمع الذي رفض هذا الدين الجديد وحارب أهله وصادر حرياتهم ، بل سلبهم حرية الاعتقاد نفسه واقتضى الأمر حماية الرسالة وأهلها ، وحماية حرية نشرها ، وينبغي هنا أن نفرق بين

---

[١٥١] – ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢١٧/١) ؛ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٣٦٠/٢)

[١٥٢] – انظر تفصيل نظرية الردع في الإسلام وأهدافها عند / أبو الوفا : الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام (٢٩٩/١٠ وما بعدها)

أمرين وهما : حماية نشر الدعوة ، وحماية حرية نشر الدعوة ، فليس من أهداف الحرب في الإسلام حماية نشر الدعوة ؛ لأن حماية نشر الدعوة بالحروب معناه الإكراه على اعتناق الإسلام ، وهذا مبدأ يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً ، ولو كان الفضل في انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان أهله .

لكن هدف المسلمين هو حماية حرية الدعوة ؛ أي الباعث على الحرب هو حسر جهود المشركين في الصد عن سبيل الله ومنع الناس من بلوغ الدعوة إليهم ، وإذا لم يوجد صد للرسالة ، فلا تحل الحرب بأي وجه ، وتنطلق الدعوة في بيئتها الطبيعية .[١٥٣] ،وقد جاءت كثير من الآيات الدالة على الفئة المستهدفة في القتال ، منها الآية الأولى في سورة القتال (محمد) يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [محمد:١] فالآية السابقة التي تصدرت سورة القتال قد بينت أن الفئة المستهدفة في القتال هي التي جمعت وصفين معاً وهما : الكفر والصد عن سبيل الله ، ثم شرعت الآيات التي بعدها ببيان بعض أحكام القتال مع هذه الفئة ، وقد صرحت سورة الأنفال أن هذه الفئة هي التي تقوم بالإنفاق السخي بغرض الصد عن دين الله ومنع انتشار رسالة الإسلام وملاحقة أهله ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً** ﴾ [الانفال:٣٦] وهؤلاء هم كبراء القوم وطواغيتهم من سادة الجاهلية وسدنتها ممن يحشدون الحشود ويجيشون الجيوش للكيد بالمسلمين وقهر دعوتهم وحسرها ومنع الناس أن يتواصلوا معها بالوسائل السلمية ، وقد بينت بعض الآيات بأن هؤلاء لأفعالهم الشنيعة هم المستهدفون في القتال يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ﴾ [التوبة :١٢].

هذه أبرز غايات القتال في رسالة الإسلام ، وكل منصف ينظر بعين الموضوعية يرى وضوح هذه الأهداف في السيرة العملية للنبي ﷺ يشير بيجي رودريك [١٥٤]إلى تلك الأهداف بقوله : « **الإسلام إذن لرسوله بالجهاد لرفع الظلم والاضطهاد .. ولإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة للإسلام، تلك الدعوة التي لا تكره أحداً على الدخول في هذا الدين ، وإنما تترك لهم الحرية الكاملة للاختيار لذلك ، وما إن يدخل الناس في الإسلام حتى يتمسكوا فيه ويستميتوا في الدفع عنه، إن الإسلام هو دين السلام: السلام مع الله ومن الناس جميعاً.** » [١٥٥]

ثانيا: الفرق بين مصطلحي الجهاد والحرب بالنظر إلى غايات الحرب :

نلحظ أن رسالة الإسلام قد عدلت عن لفظة الحرب ، واستخدمت مصطلحاً خاصاً بالمسلمين يعبر عن القتال والحروب ، وهو مصطلح الجهاد ، وهذا العدول يبرز أن القتال في الإسلام يخضع لمنهج لا تتسع للتعبير عنه لفظة الحرب، ولكي يتضح لنا الأمر أرى أن أعرف المصطلحين مبرزاً دواعي استخدام لفظة الجهاد بدلاً من الحرب . **أولاً : الحرب** :الحرب في اللغة نقيض السلم ، ويراد بها الاقتتال بين فئتين ، وحاربه ؛ أي قاتله[١٥٦]أما في الاصطلاح ، فقد ذكرت بعض مصادر القانون الدولي تعريفاً للحرب بأنها :« صراع مسلح بين دولتين أو فريقين من الدول يكون الغرض منه الدفاع عن حقوق الدول المحاربة ومصالحها » [١٥٧]أو هي صراع بين القوات المسلحة لكل من الفريقين المتنازعين يرمي كل منهما إلى صيانة حقوقه ومصالحه في مواجهة

---

[١٥٣] – انظر خطاب : الرسول القائد (٤٠ وما بعدها) ؛ الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٢٠-٢١)

[١٥٤] – بيجي : شاب هندي، نشأ في ظل الاستعمار البريطاني للهند، وكان نصرانيًا فأسلم في منتصف الأربعينات رغم التربية التبشيرية التي تلقاها على يد النصارى الذين كانوا منتشرين في شبه القارة الهندية.

[١٥٥] – انظر خليل : قالوا عن الإسلام (٢٨٨)

[١٥٦] – انظر ابن منظور : لسان العرب (٣٠٦/١) ؛ مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط (١٦٣/١)

[١٥٧] – غانم : مبادئ القانون الدولي العام (٥٦٤/١)

الطرف الآخر . [١٥٨] إذا الحرب في نظر القانون الدولي صراع مرتبط بالمصالح المادية لطرفي النزاع ؛ أي هو صراع تحكمه الأغراض المادية والمصالح السياسية .

ثانياً : الجهاد : هو في اللغة : المبالغة و بذل الطاقة والوسع في تحقيق الغاية ، واستفراغ ما في الوسع والطاقة في القول والفعل [١٥٩] وفي اصطلاح الفقهاء عدة تعريفات منها : « **بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عز وجل بالنفس والمال واللسان** . » [١٦٠]« **قتال مسلم كافراً غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله** . »[١٦١] « **قتال الكفار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله** . » [١٦٢]نلحظ من خلال تعريف الحرب والجهاد أن هناك اختلافاً بيناً في الغاية والغرض ، ففي تعريف الحرب نجد هيمنة للمصالح في تحديد بواعث الحرب ، بينما في الجهاد نجد أن بواعث القتال في الإسلام منزهة عن المصالح المادية والأغراض الدنيوية ، وإنما هي لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى .

كذلك الحرب كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي بسببه تزهق الأرواح وتشرد الشعوب لأجل أهداف مادية بحتة سواء كانت شخصية أم اجتماعية أم سياسية لا تكون فيها رائحة لفكرة سامية أو مبدأ نبيل . ولما كان القتال في الإسلام ليس من هذا القبيل عدل عن لفظة الحرب مطلقاً إلى لفظة تحمل في طياتها جهد الإنسان وعطاءه وبذله في سبيل غاية سامية وهي إرضاء الله سبحانه وتعالى ، وهذا المصطلح يعتبر انتقالاً من المعنى السلبي الذي تحويه لفظة حرب إلى المعاني الإيجابية التي تتضمنها لفظة الجهاد ؛ لذا لا يمكن تصور الجهاد دون وضوح لتلك الأهداف السامية التي تحكمه . فالمعاني الذي وضع لأجلها الجهاد يقصر عن استيعابها مفهوم الحرب ، والإسلام لا يريد من الجهاد ما أفاده مفهوم الحرب فحسب ، ولكن بالإضافة إليه كل معنى يبرز بذل الإنسان ما في وسعه لإرضاء الله سبحانه وتعالى . [١٦٣]

٨- إحصائية شاملة عمّا جرى في حروب النبي ﷺ من أحداث [١٦٨] [٦] [١])

١ - عدد غزوات النبي هي ٢٦أو٢٧ غزوة وقد باشر النبي القتال في تسع غزوات منها وباقي الغزوات أعدها وحضرها إلا أنه لم يباشر القتال فيها بنفسه ، وإنما بواسطة أصحابه ،وهذه الغزوات التي لم يباشر فيها النبي القتال لم يقع في أغلبها أي قتلى من الفريقين ،وعدد سراياه بلغت تقريباً خمساً وثلاثين سرية ، أكبر سرية في هذه السرايا كانت سرية مؤتة التي بلغ عدد جيش المسلمين فيها ثلاثة آلاف ، أما باقي السرايا فعددها محدود قد لا يتجاوز المئة جندي ، وأغلبها لم يقع فيه قتال .! فقط لإعلام وجود ولدفع مضرة الصائل ولبث الرهبة فهي وقائية .

٢ - عدد الذين أمر النبي باغتيالهم في الثابت اثنان وهما اليهوديان : كعب بن الأشرف ، وسلام بن أبي الحقيق ، وقد أمر النبي باغتيالهم بعدما عظمت جرائمهم وإعلامهم الفاسد الكاذب في حق محمد ودينه ،وليس بالإمكان إيجاد أي حل معهم أو

---

[١٥٨] د هيف : القانون الدولي العام (٦٧٩)

[١٥٩] ابن منظور : لسان العرب (١٣٤/٣وما بعدها)

[١٦٠] الكاساني : بدائع الصنائع (٩٧/٧)

[١٦١] عليش : منح الجليل (١٣٥/٣)

[١٦٢] القسطلاني : شرح البخاري (٣٠/٥)

[١٦٣] انظر الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (١٦ وما بعدها)

([١٦٤]) – راجع أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ، د. محمد أحمد المبيض ، ص ١٥٦-١٦٠ قال عن كتابه :حاولت فيه أن أبرز معالم أجمل صفحة من صفحات الحروب عبر التاريخ ، مبيناً مدى المثالية والواقعية التي تميزت بها ، هذه الحروب الرحيمة التي تشهد بأخلاقياتها أن محمداً ليس بشراً عادياً بل هو نبي تحكمه تعاليم السماء ، وقد فصلت الحديث في هذا البحث من خلال مبحث تمهيدي بين يدي الحروب وأخلاقياتها عبر التاريخ ، وأربعة فصول بينت فيها دواعي القتال في السيرة وأخلاقيات الشروع في الحرب ، وأخلاقيات الانتصار ، ثم أبرزت المثالية التي تميزت بها حروب النبي صلى الله عليه وسلم.

قتال مواجهة ،وعدد الذين أهدر النبي دماءهم يتراوح بين ثمانية و اثنا عشر فرداً وذلك في فتح مكة ، بينهم ثلاثة نساء قتلت منهنّ واحدة في الراجح ، أما التسعة الباقين فقد عفا النبي عن أكثرهم وقتل عدد قليل جداً منهم .[١٦٥]

٣- المرأة الوحيدة التي أباح النبي قتلها هي من بني قريظة ، وقد قتلت قصاصاً لأنها أسقطت رحاً على أحد المسلمين فقتلته ، وهذا في الراجح من أمرها ، والثابت أنه لم توجد امرأة مقتولة في معارك النبي إلا واحدة ، وهي التي كانت في حنين ؛ لذا كانت الروايات كلها تشير إلى تلك القصة في الراجح .

٤- لم يحدث قتل ذرية وأطفال قصداً مع أهلهم المقاتلين في كل معارك النبي إلا في إحدى سراياه بعد حنين ، والعدد غير معروف ، لكن أجواء السرية يشير إلى عدد محدود جداً ، وقد بينت ملابسات هذا الحدث ؛ حيث كان خطأً ميدانياً استحق القائمون به اللوم من النبي .

٥- عدد القتلى التقريبي في كل غزوات النبي وسراياه من المسلمين والمشركين ، يتراوح بين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ قتيل كأقصى حد متصور . ([١٦٦])

٦- لم تقع أي حالة اغتصاب في كل معارك النبي ! بخلاف كل معارك البشرية في القديم والحديث .

٧- لم يقتل النبي من الأسرى في الحروب إلا ثلاثة : اثنين في بدر ، وواحد في أحد .

٨- لم يعهد عن النبي أنه أوقع أي تصفية داخلية لأي عنصر تابع له أو تحت ولايته مهما كان جرم هذا العنصر حتى الخيانة العظمى .

٩- المشهور وهو بعد التحقيق خطأ قتل ما بين ٤٠٠ إلى ٧٠٠ من بني قريظة بعد خيانتهم العظمى للمسلمين في عملية ضخمة أريد منها استئصال المسلمين وذراريهم ، ورجح البعض أن قتلى بني قريظة كانوا أربعمائة فقط ، لكن هناك من رأى أن الرقم أقل بكثير من ذلك ([١٦٧]) ، وقتل أيضاً ابنا ابن أبي الحقيق اليهودي في خيبر بعد نقضهما للعهد وخيانتهما للنبي

١٠- لم يعهد عن النبي أنه نقض عهداً أبرمه مع العدو في كل معاركه ، بل كل حالات نقض العهد وقعت من غير المسلمين ؛ كذلك لم يعهد عن النبي أي حالة خيانة أو غدر .

١١- لم يعهد قتل أي شيخ كبير في معارك النبي إلا دريد بين الصمة الذي شارك في غزوة حنين وكان الخبير العسكري لجيش المشركين ، وقد قتلته إحدى سرايا النبي عند ملاحقتها لفلول الفارين ، فعلم النبي بمقتله ، ولم ينكر ذلك ، وهذا الرجل

([١٦٥]) – انظر ابن حجر : فتح الباري (٦٠٤/٧ وما بعدها)

([١٦٦]) – المعلوم أن أكثر سرايا النبي وكثيراً من غزواته لم يقع فيها أي قتيل ، أما التي وقع فيها قتال فأمكن تفصيل إحصائية مبدئية على النحو التالي : سرية عبد الله بن جحش (١ من المشركين) ، بدر الكبرى (١٤مسلماً ٧٠ مشركاً) ، غزوة السويق (٢ مسلمين) ، غزوة أحد (٧١مسلماً ٢٢ مشركاً) سرية عبد الله بن أنيس (١ مشرك) ، الخندق (٦ مسلمين ٣ مشركين) غزوة بني قريظة (٤٠٠ إلى ٧٠٠ من اليهود) سرية عبد الله بن عتيك (١ يهودي) سرية عبد الله بن رواحة (٣٠ يهودياً) سرية عمرو بن أمية الضمري (١ مسلم ٢ مشرك) سرية محمد بن سلمة (٩ مسلمين في كمين) بني المصطلق (١ مسلم ، عدد غير معروف من بني المصطلق ، وفي رواية أن قتلى بني المصطلق كانوا عشرة) غزوة خيبر (١٦ مسلماً ٩٣ يهودياً) سرية مؤتة (١٢ مسلماً ، عدد غير معروف من الروم) فتح مكة (٢ مسلم ١٢ مشركاً) غزوة حنين والطائف وسراياها (عدد غير معلوم من المسلمين وبعض المصادر ذكرت ١٦ مسلماً ، أما عدد المشركين فغير معلوم) ، ووفق الإحصائية السابقة المبدئية يكون قتلى المشركين ٦٢٥ إذا كان عدد قتلى اليهود في بني قريظة ٤٠٠ و٩٢٥ إذا كان عدد القتلى ٧٠٠ ، أما المسلمون فعددهم الإجمالي تقريباً ١٥٠ مسلماً ، ومجموع قتلى الفريقين على اعتبار أن عدد قتلى بني قريظة ٧٠٠ هو ١٠٧٥ أو ٧٧٥ على اعتبار أن قتلى بني قريظة هو ٤٠٠ فإذا أضفنا للعدد الأكبر أربعمائة احتياطاً لجبر الأعداد غير المعلومة في بعض المعارك ، أو للأعداد التي تختلف فيها الروايات المبرزة عدد القتلى ، يكون أقصى حد متصور لقتلى حروب النبي ﷺ من الفريقين هو ألف وخمسمائة شخص تقريباً .

([١٦٧]) – كتاب د. محمد احمد المبيض ، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية صفحة ١٥٦ .

كان قد تجاوز المائة وعشرين سنة ، وإقرار النبي لقتله ، لأنه كان العقل المدبر لغزوة حنين وكان أحد المشاركين فيها ، وكان أثره في المعركة أكثر من أثر مئات المقاتلين ؛ لذا قتل من هذا الوجه على اعتبار أنه أحد القادة المخططين للمعركة .

١٢- عدد حالات الغلول أو النهب من المال العام لم تتجاوز عدد قبضة اليد في كل معارك النبي ، وهذه الحالات تم معاقبتها .

١٣- الحالات التي تم فيها تحريق بعض الشجر أو قطعه أو تخريب بعض المباني اقتصرت على غزوتي الطائف و بني النضير ، ويقال أيضاً خيبر ، وذلك لضرورات حربية ، ففي الطائف تم قطع بعض الكروم وضرب حصون الطائف بالمنجنيق ، وهذا الإجراء من ضرورات الحرب، أما غزوة بني النضير فقد تم قطع شجر النخل لإلجائهم للاستسلام ، وتخريب بيوتهم وقع ابتداءً منهم لئلا ينتفع بها المسلمون .

١٤- تعرض النبي عليه السلام في العهد النبوي لعدة محاولات اغتيال منها محاولة بني النضير الفاشلة والتي أدت إلى إجلائهم عن المدينة ، ومنها محاولة عمير بن وهب الذي تواطأ مع صفوان بن أمية ليقوم بهذه المهمة بعد هزيمة بدر ، وبالفعل شحذ سيفه سماً وقدم المدينة بحجة فك ابنه الأسير ، وهناك كاشفه النبي بالمؤامرة التي أعد لها هو وصفوان في حجر الكعبة ، فأسلم حينها لتأكده من صدق نبوة النبي خاصة أنه لم يكن معه وصفوان أحد ، فعلم أن السماء هي التي أخبرت النبي بالأمر ، ومنها أيضاً محاولة فضالة عند فتح مكة ([١٦٨]) ، وأخطر محاولة اغتيال تعرض لها النبي تلك التي كانت في خيبر ؛ حيث أهدت له يهودية شاة مسمومة ، وأكل النبي منها قطعة صغيرة ، وأكل معه أيضاً بشر بن معرور ، وانتبه للسم فيها بعدما أخبرته كتف الشاة ، وجيء بالمرأة إلى رسول الله فاعترفت قائلة : أردت قتلك ، فقال لها النبي ما كان الله ليسلطك علي ، قالوا : ألا نقتلها ، قال لا . ولم يتعرض لها ولم يعاقبها .([١٦٩])

– نتائج هذه الإحصائية وما يستفاد ويستخرج منها :

ما سبق إحصائية تقريبية مجملة لعشر سنوات من حروب النبي ، تلك الحروب التي غيرت مجرى التاريخ إلى يومنا هذا ، وقلبت حال الجزيرة العربية لتمسك بزمام الحضارة على مستوى العالم القديم بعد أن كانت عبارة عن قبائل متناحرة لا يؤبه لها ، ولا ينظر لأهلها بعين الاحترام من الحضارات المجاورة ؛ بل كان العرب في نظر من حولهم عبارة عن كلاب صحراء وآكلي جُعل ، ونظرة واحدة لهذه الإحصائيات نجد أنها أعظم دليل على مدى مثالية أخلاقيات حروب النبي ، قياساً مع عظمة الإنجازات التي حققتها ، وهي بحق من أرقى أشكال الحروب الرحيمة التي عرفتها البشرية ؛ حيث كانت الأعظم تأثيراً من الناحية الإيجابية ، والأقل كلفة على مستوى الخسائر ، فمجمل الخسائر في الأرواح على مدى العشر سنوات كان في أقصى حدودها ألف وخمسمائة مقاتل من فريقي النزاع ، وقياساً مع عصرنا الذي تزخر فيه المنظمات الدولية الداعية لأخلاقيات الحرب وحقوق المدنيين ومنظمات الحياد المسلح وحقوق الإنسان ، نجد أن كل قتلى العهد النبوي لا يساوي قتلى أسبوع من أسابيع العراق من المدنيين وليس من المقاتلين ، بل أحياناً لا تساوي قتلى قنبلة واحدة من تلك القنابل التي تزن بالأطنان (كقنبلة مؤاب ، أو أم القنابل) ، والتي كانت تلقيها القاذفات الأمريكية على أفغانستان والعراق ، كذلك لو جمعنا كل شبهات المرجفين وأكاذيبهم حول العهد النبوي لوجدناها لا تمثل أيضاً أسبوعاً من انتهاكات الحرب في العراق أو في فلسطين أو في أفغانستان أو في فيتنام

([١٦٨]) – انظر ص ١٥٣ من المرجع السابق .

([١٦٩]) – الراجح أن النبي في البداية عفا عنها ، فلما مات بشر قتلها قصاصاً انظر ابن القيم زاد المعاد (٣/٣٣٦)

سابقاً وهذه حقيقة يجب ألا يزايد عليها أحد ، فدلالة الواقع أصرح دليل على درجة المثالية التي تحلى بها النبي ﷺ وجنده في حروبهم .

الإحصائيات السابقة تشير صراحة إلى أن جيش النبوة كان يخضع لتعاليم السماء التي تشرب قدسيتها ، ولا يخضع لنصوص قانونية سرعان ما تتحول لسراب عندما تصطدم مع الواقع ، وهناك فرق بين التنظير وبين حقيقة الواقع ، ومن هذا الوجه يمكن القول أنه لم توجد حروب في كل التاريخ البشري كانت بهذا الحجم القليل من الخسائر على مستوى الأرواح أو على مستوى الممتلكات ، ومن يدعي غير ذلك فيأت بآثارة من علم إن كان من الصادقين . قلة الخسائر تشير إلى أن هناك مبادئ مقدسة كان يخضع لها الجيش وقانوناً عاماً يحكمها يلخصه الغزالي بقوله : « **إن مقصود الشرع تقليل القتل ، كما يقصد حسم سبيله عند الإمكان ، فإن لم نقدر على الحسم قدرنا على التقليل.**»([١٧٠])

نلحظ أن كثيراً من المستشرقين بالرغم من سوء نوايا أغلبهم إلا أنهم لاحظوا تلك المثالية التي تحلى بها النبي في حروبه ، والتي لم يعهدوا لها شبيه في غيره من القادة ، وهذه الملاحظة تشير إشارة واضحة إلى مصداقية محمد في نبوته ، بل أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية من أعظم دلائل نبوة محمد ، ولئن كان العهد النبوي يمثل سقف تلك الأخلاقيات على مستوى التاريخ إلا أن المسلمين في حروبهم عبر القرون كانوا يهتدون بهديه بنسب متفاوتة حسب قربهم أو بعدهم عن هدي النبي ، ولعل أقل هذه النسب تمثلاً بأخلاقيات حروب النبي يعتبر من أرقى المثل الحربية الأخلاقية بالنسبة لمن حوله من الأمم ، يعبر المؤرخ المشهور ول ديورانت عن ذلك بقوله : « **إن المسلمين –كما يلوح –كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين ، فقد كانوا أحفظ للعهد منهم ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، قلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م** . » ([١٧١]) إن مجموع حروب (٢٧ غزوة و٣٥سرية) نستطيع أن نعد بعض الأخطاء فيها كلها عداً على اليد الواحدة لهي حروب مثالية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى .

هذه الإحصائيات تفضح بشكل واضح كل الأساليب المغرضة من الغرب، والتي تهدف إلى تشويه صورة النبي محمد ووصفه بالدموية والقسوة وهذا واضح في الرسوم المشينة التي صدرت في الدنمارك ، أو تشير إلى أن تعاليمه هي التي عززت العنف ، وهذا واضح من تصريحات بابا الفاتيكان ، ولعل هذه الإحصائيات أو تلك الأخلاقيات التي سبق الحديث عنها لتشير صراحة إلى أن البشرية لم تعرف قائداً رحيماً شبيهاً بمحمد ، و إن الإنسانية جمعاء لتدين لمحمد بتلك الأدبيات التي تميزت بها حروبه والتي أعادت للإنسان إنسانيته بعد أن كاد يفقدها نتيجةً لارتكاسته تحت وطأة الهمجية والعنف والقسوة التي عهدت بها العصور القديمة ؛ يقول مسيو جول لابوم الفرنسي : « **حوالي ميلاد محمد (ﷺ) نبي الإسلام في القرن السادس الميلادي كان جو العالم ملبداً بغيوم الاضطراب والفتن الوحشية في كل مكان حتى كان اعتماد الناس في سبل حياتهم على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وفي عهد هذه الأحوال الحالكة المظلمة ولد محمد بن عبد الله (ﷺ) رسول الإسلام ليتابع طريقه في تخليص الأمم من تحجرها ودفعها إلى سبيل الرقي والعمران ، حتى بلغت الغايات البعيدة التي خلقت لبلوغها**[١٧٢]» لذا نقول لهؤلاء الطاعنين إنكم بطعنكم هذا لا تسيئون لأمة المليار فقط ، بل تسيئون أيضاً

([١٧٠]) – الغزالي : المستصفى (١٧٦)

([١٧١]) – ديورانت : قصة الحضارة (١٣/ ٣٨٣) .

(١٧٢)نقلاً عن عبد الوهاب : محمد رسول الإسلام (١٧)

لإنسانية الإنسان بتشويه أجمل صورة فيه ، وأنى لكم ذلك ؟ لأن محمد في قدر الله السراج المنير ، و صنو الشمس في عطائه وبركاته ، وهل يملك أحدٌ أن يحجب نور الشمس بغربال ([173]). ([174])

القتال في الإسلام ينبض بنبضات حرية الضمير وانطلاق العدل وضمان المعتقدات على نقيض ما شهدت البشرية في الحروب، وحتى في هذا العصر الموصوف بالتنوير! ديننا لا ينهانا عن أن نَبَرَّ من لم يقاتلنا – فيكون قد قاتل العقل والحرية والقيم الإنسانية– وإن كان مشركًا. فغاية ما يريده المسلم أن يُوَقَّر هذا الدين، ويُوَقَّر إيمانه، وحريته في الدعوة إليه. هذا هو شرطه ليعايش الملل والنحل. ولا يقلقَنَّ غير المسلم على معتقداته، إذ يضمن المسلم شرط توقير دينه؛ ذلك بأن حقوق غير المسلم مكفولة في دينه بقواعد يتعبد بها المسلم ولا يملك دونه فكاكًا، على خلاف ما عند غيره! وإذ يسعى المؤمن لإعلاء كلمة الله وتوقير دينه، يملأ فراغًا لا يمتلكه غيره. فغيره مضمون بضمان دين المسلم، وليس العكس صحيحًا!

وضمان المسلم لحرية معتقدات الملل الأخرى محكوم بقواعد شرعية مرعية في الحرب والسلم. ومهما كان حكمه عقديًّا في تلك المعتقدات، فهو مأمور بالتعايش معها، والتسامح والوفاء والحسنى في الأخذ والعطاء وإقرار حرية العبادة حتى من موقع التحكم والقوة، وإن كان يرى بطلانها وشططها وزيغها. فالقوة والمكنة لا تبيح له التسلط على الضمائر والإكراه في الدين. والإسلام ضمان لذلك، وليس للمسلم في غير الإسلام ضمان لدينه. فمن هنا يتولد شرط توقير الإسلام، والسعي في ذلك بمختلف الوسائل.

٩– حروب النبي ﷺ في نظر المنصفين

صفحات التاريخ تزخر بشهادات كثير من عقلاء البشرية ممن اطلعوا عن قرب على حياة محمد ﷺ ورسالته وحروبه وأعجبوا بها ، فسطروا شهاداتهم مع اختلافهم مع محمد ﷺ في الدين والنحلة ، بل بعضهم قدم محمداً ﷺ على النبي الذي يتبع دينه ، من هؤلاء : مايكل هارت في كتابه (العظماء مائة وأعظمهم محمد) ، ويقول عن سبب اختياره لمحمد وكونه الأعظم : « **إن اختياري لمحمد ليقود قائمة أكثر أشخاص العالم تأثيراً في البشرية قد يدهش بعض القراء ، وقد يعترض عليه البعض .. ولكنه – أي محمد – الرجل الوحيد في التاريخ الذي حقق نجاحاً بارزاً في كل من المستوى الديني والدنيوي** . » [175] ، وبالمقابل وضع مايكل هارت عيسى ﷺ الذي يتبع دينه في المرتبة الثالثة ، واعتبر جيمس ماسيرمان اليهودي بطله الأول محمد ﷺ أما موسى ﷺ فقد وضعه في المرتبة الثانية ، وكذلك رأى وليم ماكنيل أن محمداً يستحق شرف وضعه في أول ثلاثة أسماء في قائمته ، وجيمس جافين النصراني قدم محمداً ﷺ على عيسى ﷺ في قائمته .[176] ويقول عنه توماس كارليل :« **رجل واحد مقابل جميع الرجال.**»[177] أما لامارتين الفيلسوف الفرنسي الكبير ، فقد قال عن محمد ﷺ بعد ذكره لكثير من خصاله: « ..**فأي رجل قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم من محمد ، وأي إنسان صعد هذه المراقي كلها كان عظيماً في جميعها غير هذا الرجل.**» [178]

([173]) – راجع كتاب د. محمد احمد المبيض ، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية نقولات متفرقة منه .

([174]) – http://rasaelnoor.blogspot.com/2012/06/blog-post_8102.html

[175] – هارت : العظماء مائة أعظمهم محمد (١٣)

[176] – نقلاً عن ديدات : الرسول الأعظم (٥٠)

[177] – المرجع السابق (١٥)

[178] – نقلاً عن محمد فهمي عبد الوهاب : محمد رسول الإسلام (٣١) ؛ ديدات : الرسول الأعظم (١٤٣)

شهادات تظهر مدى أخلاقية حروب النبي ﷺ ؛ لأن الإقرار بأخلاقية النبي وسموه باعتباره أعظم شخصية إنسانية عرفها التاريخ هو إقرار بأخلاقية كل تصرفاته على مستوى الحرب والسلم على مدار التاريخ ، بل حروب النبي ﷺ هي التي انتزعت مثل تلك الشهادات ؛ لأن الحروب هي الصفحات الأكثر حساسية في حياة القادة ، وهي الأفصح بياناً في الدلالة على أخلاقياتهم وأخلاقيات جندهم ، يقول: أميل ديرمنجم في كتابه حياة محمد **عن سمو الفضيلة عند النبي ومثالية جيشه** . « **إن محمداً رسول الإسلام قد أبدى في أغلب حياته ، بل طول حياته اعتدالاً لافتاً للنظر فقد برهن في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثيل في التاريخ ، إذ أمر جنوده أن يعفو عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء ، وحذرهم من أن يهدموا البيوت أو يسلبوا التجار ، أو يقطعوا الأشجار المثمرة ، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة ، بل قد بلغنا أنه كان يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً** . »[١٧٩]

هذا النص يشير صراحة إلى تلك الأخلاقيات التي تميزت بها حروب النبي ﷺ ، ويؤكد على ما ذكرت سابقاً أن الحرب كانت حالة استثنائية ألجأت لها الظروف ، وليست نهجاً توسعياً إحلالياً ، كذلك يتضمن الإشارة إلى ملاحقة النبي ﷺ للتجاوزات الحاصلة من بعض أفراد جيشه أو قادته الميدانين ومعالجتها ، ويبرز النص السابق مدى المثالية التي تميز بها النبي ﷺ وجيشه في حروبهم ، تلك المثالية التي لم يعهد مثلها في التاريخ في نظر أميل دريما نجم ، مثالية اعتمدت أسلوب الوسطية والاعتدال ، وتأسست على السماحة والعفو والإحسان للأمم المغلوبة .

يقول ول ديورانت : « **إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا أن محمداً (ﷺ) كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله** . »[١٨٠] هذا النص يشير إلى أن أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية لم تكن وليدة البيئة ، بل كانت نتاج تربية خلقية عالية قام بها النبي ﷺ ونجح خلالها من التأثير على أقسى القلوب وأكثرها همجية بحكم طبيعة البيئة القاسية التي ألقت بظلالها الكئيبة على أبناءها، وتمكن من رفع المستوى الروحي والخلقي لأتباعه والذي ترجم بدوره في أرض المعارك بشكل مثالي غير معهود مثله عبر التاريخ .

يقول الكاتب الروسي الكبير تولستوي : « **لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الإجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء ، وتقديم الضحايا ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص ذو قوة وحكمة وعلم ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإجلال** .»[١٨١] هذا النص فيه إشارة واضحة إلى تلك المنهجية التي تميزت بها حروب النبي والتي كفلت تحقيق الأمن والسلام في مجتمع ألف الحروب وسفك الدماء . ويقول السير وليم سوبر في كتابه سيرة محمد : « **لقد امتاز محمد (ﷺ) بوضوح كلامه ويسر دينه ، ولقد أتى من الأعمال ما أدهش الألباب ، ولم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، و أحيا الأخلاق الحسنة ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد (**

---

[١٧٩] – محمد فهمي عبد الوهاب : محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الاسلام ومشاهير علمائه . (٣٣وما بعدها) المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة

[١٨٠] – ديورانت : قصة الحضارة (٤٧/١٣)

[١٨١] – جريشة وغيره : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي (٢٩)

ﷺ).»[١٨٢] هذا النص يشير صراحة إلى عظمة التربية الخلقية التي تميز بها أتباع النبي ﷺ ، بل يرى الكاتب أن النبي ﷺ قد نجح نجاحاً مثالياً غير معهود مثله عبر التاريخ في هذا الشأن ، ويترتب على سمو الفضيلة عند أتباع النبي انعكاس دورها الإيجابي على حروبهم بشكل مثالي غير معهود مثله في التاريخ .

يقول جوستاف لوبون : « **الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم ، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والبدهية** .»[١٨٣] وفي موطن آخر يقول:« **إن القوة لم تكن عاملاً في نشر القرآن ، وإن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا ، واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى .. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الأمن بينهم ، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب.**»[١٨٤] هذا النص يشير إلى أهم أخلاقيات جيش النبوة ، وهي السماحة والعدل والرحمة واللطف والسهولة و التيسير والإحسان للأمم المغلوبة ، وهذه الأخلاق هي التي كانت وراء انتشار الإسلام ؛ أي أن الغزو الأخلاقي لقلوب الأمم المغلوبة كان أكثر وضوحاً وأعظم أثراً من الحسم العسكري ؛ كذلك في النص الأول إشارة إلى تلك القدرة العجيبة التي تميزت بها رسالة الإسلام في تهذيب النفوس وتعزيز الفضيلة فيها .

ويقول المستشرق الفرنسي أ . ل سيديو : « **من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد ﷺ من القسوة والجبن فقد نسي هؤلاء أن محمداً ﷺ لم يألُ جهداً في إلغاء عادة الآثار الموروثة الكريهة .. وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على أشد أعدائه بعد فتح مكة ، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة** .»[١٨٥] هذا النص يشير إلى أن اتهام أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية هو من باب الادعاء ، أو من باب الجناية على التاريخ بتزوير حقائقه، ويدحض الكاتب تلك الاتهامات بالتذكير ببعض الأخلاقيات المثالية التي تميز بها جيش النبوة .

١٠- رد شبهتي التجاوز في التعامل مع بني قريظة والاغتيال السياسي

والشبهة التي تثار عند الحديث عن عدم دموية الحروب النبوية هي قتله لرجال قبيلة بني قريظة، والتي اختلفت الروايات في تحديد أعدادهم، فهم يتراوحون بين أربعمائة وسبعمائة رجل وقد شكك بعض البحاثة في هذه الأرقام ورجح كون الرقم أقل بكثير من ذلك (١٨٦) (قرابة ٤٠).. وقبل الحديث عن الحدث نفسه نود أولا أن نقف على حيثيات وظروف ذلك الحكم..

---

[١٨٢] – حسام عبد الله : هذا هو الحبيب (١٨) ط١ /٢٠٠٦ الشركة الفنية للطباعة

[١٨٣] – لوبون : حضارة العرب (١٢٦)

[١٨٤] – لوبون : حضارة العرب (١٢٧ وما بعدها)

[١٨٥] – سيديو : تاريخ العرب العام (٨٣) ترجمة عبدالله الشيخ الاهلية للنشر والتوزيع الاردن .

[١٨٦] – ذكر ابن اسحق أن قتلى بني قريظة ما بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ونقل عنه الطبري الرقم ، وذكر ابن سلام في كتابه الأموال أن العدد أربعمائة [انظر ابن هشام : السيرة النبوية (٢٠١/٤) ؛ الطبري : تاريخ الطبري (١٠١/٢) ؛ ابن سلام : الأموال (١٧٣)] ويشكك بعض الباحثين في هذه الأرقام ، من هؤلاء الباحث وليد عرفات ، والدكتور هاشم الملاح ، ووجه التشكيك في عدد قتلى بني قريظة لأن عدد قتلى بني قريظة كله مصدره ابن إسحق ، وقد صرح ابن إسحق نفسه أنه قد اخذ تفاصيل أخباره من مصادر مختلفة ، وأهم مصادره هم محمد بن كعب القرظي ، وعطية القرظي ، فيحتمل أن يميلوا إلى تفخيم أجدادهم ، أو تهويل مأساتهم ،كذلك ذكر هؤلاء رواية لابن شهاب عند ابن سلام بأن النبي ﷺ قتل من بني قريظة كذا وكذا ، وهذه الرواية تشير صراحة إلى قلة العدد ، ويذكر وليد عرفات أن ناشر كتاب الأموال ذكر في الحاشية أن النسخة الشامية للكتاب ذكرت أن عدد قتلى بني قريظة كانوا أربعين . [انظر عرفات : ضوء جديد على قصة بني قريظة (٧٩١) ؛ الملاح : الوسيط في السيرة (٣٩٥)]ويعضد الرأي السابق في ظني أن النبي ﷺ قد حبس أسرى بني قريظة في دار بنت الحارث ودار حسان بن ثابت ، و المعلوم أن

فمن المعروف أن النبي ﷺ بمجرد قدومه المدينة عقد مع اليهود الموجودين بها معاهدة رائدة، تعد بمثابة أقدم دستور مسجل في العالم، والتي كان من أهم بنودها: التزام كل من المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر في الداخل. وتعهد كل من الطرفين بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي اعتداء خارجي، وعلى اليهود أن يتفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين.

في العام الخامس من الهجرة؛ أن تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل من مشركي قريش وقبائل غطفان وأشجع وأسد وفزارة وبني سليم، على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل. وكان المتوقع أن تنضم بني قريظة إلى صفوف المسلمين ضد القوات الزاحفة على المدينة بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين، لكن الذي حدث هو عكس هذا تمامًا! فلم تكتف بنو قريظة بمجرد السلبية، ولكن فوجئ المسلمون بهم يخونهم في أخطر أوقات محنتهم، ولم يرعوا للعهود حرمة، في سبيل التعجيل بسحق المسلمين والقضاء عليهم قضاء تامًا.

وبمجرد أن سمع رسول الله ﷺ بهذه الخيانة الخطيرة أرسل وفدًا مكونًا من سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير –رضي الله عنهم–؛ ليذكِّروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عهود، ويحذروهم مغبَّة ما هم مقدمون عليه، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وقالوا عن رسول الله ﷺ : من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبينه !! وهكذا ركب القوم رءوسهم، وقرروا الانضمام الفعلي للغزاة، وأخذوا يمدونهم بالمال والعتاد.

وقد تدخلت عناية الله لنصرة الإيمان وأهله، وشاء الله أن يندحر ذلك التحالف الوثني اليهودي {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب:٤٠] ، وبعدها مباشرة جاء الوحي رسولَ الله ﷺ بأمره بأن ينهض إلى بني قريظة؛ جزاءً لمكرهم وغدرهم وخيانتهم، فسار إليها وحاصرها ﷺ والمسلمون شهرًا أو خمسة وعشرين يومًا.. ولما طال عليهم الحصار عرضوا على الرسول ﷺ أن يتركهم ليخرجوا إلى أذرعات بالشام تاركين وراءهم ما يملكون، ورفض ﷺ إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، وبالفعل استسلم يهود بني قريظة، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فوكل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ أحد رؤساء الأوس .وكان سعد حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحسن إليهم في حكمه، لكن سعدًا نظر إلى الموقف من جميع جوانبه، وقدَّره تقدير من عاش أحداثه وظروفه، وشاهد كروبه ومآزقه، وعرف النذر المستطيرة التي تراءت في الأفق، فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة لولا عناية الله عز وجل التي أنقذت الموقف.. وكان هو نفسه الذي شفع لديهم بادئ ذي بدء ليرجعوا عن غدرهم وغيهم، لكن القوم مضوا في عنادهم لا يقدرون للنتائج عاقبة، ولا يراعون الله في حلف ولا ميثاق، ولذلك لما كُلِّم في شأنهم أكثر من مرة قال –رضي الله عنه–: "لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم"، ثم بعد أن أخذ المواثيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه أمر بني قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ففعلوا، ثم قال: "إني أحكم أن تقتل مقاتليهم وتسبى ذريتهم وأموالهم"، فقال رسول الله ﷺ : «حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ» !! فقتل رجالهم وسبي نساؤهم وذراريهم، ولاقى بنو قريظة أسوأ مصير على أفظع

بيوت الصحابة لم تكن كبيرة الحجم ؛ بحيث يمكن تصور أن سبعمائة رجل وضعوا في بيتين منهما فقط، بل صدرت وصية من النبي ﷺ بأن يضعوهم تحت سقف البيت بعيداً عن حر الشمس ، وهذا الإجراء يشير صراحة إلا أن عددهم هو أقل بكثير من السبعمائة .

لكن في نفس الوقت القول بأن عدد بني قريظة كانوا أربعين أو قريباً من ذلك أيضاً مستبعد ؛ لأن الآثار الصحيحة أشارت إلى أن النبي ﷺ قد قتل مقاتلة بني قريظة أو ذكورها من الرجال ، فلا يتصور أن كل ذكور بني قريظة من الرجال كانوا أربعين ؛ أما ما ذكره وليد عرفات عن النسخة الشامية من كتاب الأموال بأن العدد كان أربعين فيحتمل أن يكون تصحيفاً من النساخ ، خاصة أن الرواية الثابتة في الكتاب ذكرت رقم الأربعمائة ؛ لذا في نظري أن رقم الأربعمائة أو ما يقاربه هو أرجح الأقوال في المسألة .[انظر العمري : السيرة النبوية الصحيحة (٣١٥/١، ٣١٧) ؛ أبو شهبة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٤٠٩/٢)]

خيانة..

وهنا يحلو للبعض أن يُشكِّكوا في تصرف الرسول ﷺ ومعاملته لبني قريظة، ويعتبروا أن معاملته هذه لهم تتسم بالوحشة والقسوة، وأنه كان من الممكن أن يعاقبوا بأي عقاب آخر كالإجلاء أو النفي..وللبيان والتوضيح نقول: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبما كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم، ألم تكن هي الإبادة التامة للمسلمين أجمعين؟! على أن اليهود لم يُقدِموا على هذا العمل الخسيس إلا بعد أن تكوَّن لديهم ما يشبه اليقين بأنهم –بمساعدة المشركين– سوف يقومون بتدمير الكيان الإسلامي تدميرًا كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كليًا، ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين، وعلى تلك الصورة البشعة. ولقد كانوا حريصين الحرص كله على إبادة المسلمين، حتى لقد طلبوا من الأحزاب والمشركين أن يُسلِّموا إليهم سبعين شابًا من أبنائهم رهائن عندهم؛ ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين وتقضي عليهم قضاء تامًا.

فعلى الذين يستبشعون الحكم على بني قريظة، ويصفونه بأنه كان قاسيًا شديدًا، عليهم أن يحيطوا علمًا بجوانب الموضوع، وظروف القضية؛ ليدركوا أن اليهود هم الذين جروا الوبال على أَنفسهم ([١٨٧]).

وأخيرا : فلو تتبع إنسان نصوص العهد القديم والجديد معاً؛ لوجدها تطالب المؤمنين بهذا الكتاب المقدّس أن يبيدوا خصومهم عن آخرهم، وأن يسبوا صغارهم ونساءهم، وأن يخربوا بيوتهم ويحرقوا زروعهم؛ عقوبةً من الله تعالى لهم؛ لأنهم حاربوا المؤمنين .أما في الشرعة الدوليّة المعاصرة؛ فإنّ أمريكا قتلت في العراق (مليون شهيد) وفي أفغانستان مليوناً آخر! وفرنسا الظريفة اللطيفة قتلت أكثر من ١٠مليون جزائريّ. فلماذا تقفون عند رقم (٦٠٠) رجل خائن ناقض للعهد، ولا تقفون عند هذه الأرقام التي تزيد على مجموع أعداد دول معترفٍ بها في منظمة (الأمم المختلفة)؟ الحكم عليهم كان من منظور قوله تعالى :(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) فالرسول ﷺ كان يقضي على أهل الكتاب بشريعتهم، وشريعتهم تقول: اقتل المقاتلة، واسْبِ النساء والذراريّ. وفي تلك الأيام لم يكن قوانين دوليّة، ولا محاكم دولية عليا، إنما كانت المعاملة بالمثل هي الشرعة السائدة في الحروب.

على أنّه قد جاء في الروايات الصحيحة أنّ الذين قتلهم الرسول ﷺ من رجال بني قريظة، كان جمعهم في دار امراة من الأنصار، قريباً من سوق المدينة.(أي عددهم أقل مما ذكر بكثير) الخلاصة : {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة: ١٢].. فالرسول قتل قادتهم المجرمين الغادرين، أو قاتل المحاربين على أبعد احتمال. و هم لا يعجبهم أن يُقادَ منهم، لكنهم لا يرقبون في المسلمين إلاّ ولا ذمّة متى ما أرادوا ! {كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة:٨].

استغل هذا الحدث المغرضون للتشنيع على النبي ﷺ وجنده ، ووصفهم بالقسوة وارتكاب إبادة جماعية في حق أسرى الحرب [١٨٨]،يقول مونتجمري وات : « **لقد انتقد بعض الأوربيين الحكم الصادر بحق بني قريظة ووصفوه بالهمجية ، وقد اندهش بعض معاصري محمد (ﷺ) لعدم اكتراثه بالعواقب التي قد تنتج عن قتل بني قريظة** .»[١٨٩] وبعضهم رأى أن

---

[١٨٧] – كتاب (أخلاق الحروب في السنة النبوي) للدكتور راغب السرجاني. وعن موقع قصة الإسلام .

[١٨٨] – انظر الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي (٣٤) ؛ المرصفي : الرسول واليهود (٣/ ١٣١٠ وما بعدها)

[١٨٩] – مونتجمري : محمد نبي ورجل دولة (١٧١ وما بعدها)

النبي ﷺ قد استخدم وسائل غير مقدسة في إخراج اليهود.[١٩٠] إذا هناك اتهام واستغلال لهذا الحدث يقتضي تفنيده وبيان تكييفه الفقهي والقانوني في النقاط التالية :

أولاً : بنو قريظة ليسوا أسرى حرب بل خونة : طرح فكرة كون بني قريظة كانوا أسرى حرب ليست صحيحة من أصلها ، وذلك لعدة أسباب :

١ – بنو قريظة لم يكن بينهم وبين النبي ﷺ حالة حرب أو حالة تنافر وتعادي ، بل على العكس كانوا من مواطني الدولة ، وكان بينهم وبين النبي ﷺ مواثيق على حسن الجوار والدفاع المشترك ؛ أي هم جزءٌ من حلفاء النبي ﷺ وليسوا أعداءه ، وهم يشكلون مع المسلمين وحدة وطنية ملتزمة بالدفاع المشترك عن الوطن الواحد .

٢ – فعلة اليهود في كل الأعراف الدولية وقوانين الدول لا تندرج تحت بند أسرى حرب المتعارف عليه ، بل تحت بند الخونة الغادرين الذين ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى ضد وطنهم ، فظفرت بهم يد العدالة .

٣ – بنو قريظة حتى من وجهة القانون الدولي لا يمكن وضعهم في مكان العدو الذي استسلم وهو يخوض حرباً ، وإنما في مكان الخائنين المتآمرين على وطنهم وهو في حالة حرب ، بل ارتكبوا هذه الخيانة في أحلك ظرف مرت به المدينة المنورة،ونجاح هذه المؤامرة كان كفيل بإبادة المسلمين عن بكرة أبيهم .

٤ – كان بنود المؤامرة واضحة الدلالة في أن يهود بني قريظة عندما نقضوا الاتفاق ؛ إنما نقضوه عندما أخذوا ضمانات باستئصال المسلمين ؛ إذا كانت جريمة الخيانة العظمى في أعلى مراتبها ، والعدالة تقتضي معاملتهم بحجم مؤامرتهم .

٥ – المعروف في كل قوانين الدول ، حتى في القانون الدولي أن جريمة الخيانة العظمى لا تخضع لاستثناءات ولا تندرج تحت بند أسرى الحرب ، وأن العقوبة المعهودة لهذه الجريمة هي الإعدام .

للأسباب السابقة لا يمكن النظر لبني قريظة على أنهم أسرى حرب قطعاً ؛ لذا لاحظنا أن النبي ﷺ لم يعاملهم معاملته المعهودة لأسرى الحرب ، بل عاملهم بحجم جريمتهم بعد تحكيم عادل ومن محكم رضي به اليهود أنفسهم لكونه من حلفائهم . ويبقى تساؤل هام هنا ،وهو لماذا كان سعد ﷺ شديداً في حكمه عليهم بالرغم أنه كان من موالي اليهود؟ وهذا التساؤل يكشف لنا حجم المؤامرة وفداحة جرمها حتى في حق موالي اليهود أنفسهم ، فكونه من موالي اليهود وحلفائهم في الجاهلية يقتضي أن يجد نصرة منهم حال تعرض قومه للخطر ، فلما وجد سعد أن مواليه قد هان عليهم دماء مواليهم وتآمروا مع العدو للقضاء على المسلمين ومن ضمنهم مواليهم ، وجد في ذلك استباحة يهود بني قريظة لدماء مواليهم من الأوس ؛ لذا قابلهم من جنس ما يتمنونه لمواليهم من باب الجزاء الوفاق والبادئ أظلم .

ثانياً : مصطلح الإبادة الجماعية هي فكرة يهودية في الأصل . مصطلح الإبادة الجماعية هو مصطلح غريب عن رسالة الإسلام لا تعرفه أصلاً ، ولا يوجد في كل ثقافتها النظرية أو الواقع العملي أي وجود لمثل مدلول هذا المصطلح المستهجن ، والحقيقة أن هذا المصطلح هو فكرة يهودية تصرح به ثقافتهم ، بل كتبهم المقدسة تشير إليه إشارة واضحة ، ورد في سفر أستير : « **الَّتِي بِهَا أَعْطَى الْمَلِكُ الْيَهُودَ فِي مَدِينَةٍ ، فَمَدِينَةٍ أَنْ يَجْتَمِعُوا وَيَقِفُوا لأَجْلِ أَنْفُسِهِمْ ؛ وَيُهْلِكُوا وَيَقْتُلُوا وَيُبِيدُوا قُوَّةَ كُلِّ شَعْبٍ وَكُورَةٍ تُضَادُّهُمْ حَتَّى الأَطْفَالَ وَالنِّسَاءَ** . »[١٩١] وفي سفر يشوع : « **وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ،**

---

[١٩٠] – النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية (٢٠٢)

[١٩١] – سفر أستير ، الإصحاح الثامن ، النص ١١

مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ – حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ .. وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ مَعَ كُلِّ مَا بِهَا. إِنَّمَا الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ وَآنِيَةُ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ جَعَلُوهَا فِي خِزَانَةِ بَيْتِ الرَّبِّ .[١٩٢] وفي سفر حزقيال : « **اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفِقْ أَعْيُنُكُمْ ، وَلاَ تَعْفُوا ، اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ ، اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ. وَلاَ تَقْرُبُوا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ ، وَابْتَدِئُوا مِنْ مَقْدِسِي ، فَابْتَدَءوا بِالرِّجَالِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ أَمَامَ الْبَيْتِ ، وَقَالَ لَهُمْ: نَجِّسُوا الْبَيْتَ، واملئوا الدُّورَ قَتْلَى. اخْرُجُوا، فَخَرَجُوا وَقَتَلُوا فِي الْمَدِينَةِ .** »[١٩٣]

هذه نصوص توراتية صريحة الدلالة على أن اليهود وثقافتهم هم أصحاب فكرة الإبادة ، وذلك لما تميزوا به من فكر إحلالي ، أما رسالة الإسلام فهي رسالة استيعابية ؛ أي تستوعب الآخر وهذا يفسر لنا المساحة الواسعة في شريعة الإسلام لأحكام أهل الذمة ؛ لذا لا نجد مثل هذه النصوص في تعاليم الرسالة أبداً ، ومن نظر إلى نصوص أخرى في التوراة يجد تصريحات كثيرة تشير إلى مدلول الإبادة الجماعية في حق الأمم الأخرى ؛ لذا لا داعي لتصدير هذا المصطلح وإلصاقه في بعض تصرفات النبي ﷺ .[١٩٤]

ثالثاً : حكم سعد ﷺ في حق بني قريظة كان مثالياً قياساً إلى شريعة اليهود . ورد في سفر التثنية « **حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ ، وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ ، وَإِنْ لمْ تُسَالِمْكَ بَل عَمِلتْ مَعَكَ حَرْباً فَحَاصِرْهَا. وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى يَدِكَ ، فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ ، وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالبَهَائِمُ ، وَكُلُّ مَا فِي المَدِينَةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ التِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ ، هَكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ المُدُنِ البَعِيدَةِ مِنْكَ جِدّاً ، التِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هَؤُلاءِ الأُمَمِ هُنَا، وَأَمَّا مُدُنُ هَؤُلاءِ الشُّعُوبِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيباً فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَا** »[١٩٥]

نظرة واحدة للنص السابق قياساً لحكم سعد ﷺ ، نجد أن حكم سعد كان أرحم بكثير من تشريعاتهم بخصوص حكم الأمم البعيدة ؛ حيث إن الحكم في حقهم هو إبادة كافة الذكور ، بينما حكم سعد اقتصر على المقاتلة من الذكور . و وفقاً للنص السابق بنو قريظة لا يصدق عليهم حكم الأمم البعيدة ، بل حكم الأمم القريبة وهؤلاء حكمهم الإبادة الكاملة .فأين هذا من تعاليم رسالة الإسلام التي استوعبت اليهود داخل المدينة ، وتعامل معهم النبي ﷺ بسماحة عالية جداً ، فلما وجد منهم الغدر والخيانة التي كادت أن تستأصل المسلمين عاملهم النبي ﷺ بما يتناسب وفداحة جرمهم ، ولم يستأصلهم بل اقتصر الحكم على المقاتلين فيهم ، وهذا الحكم كانت تقتضيه الظروف الخاصة لتلك المرحلة خاصة مع تكالب الجميع على المسلمين ، فالظرف لا يسمح لمبدأ الإحسان الذي سيترتب عليه تسلسل التآمر على الأمة الإسلامية في مرحلة ضعفها ، لذا اقتصر النبي ﷺ على التعامل معهم وفق مبدأ العدل ، ونلحظ أن المسلمين عندما تمكنوا في الأرض مع فتح مكة ، وأصبح مجال التآمر على

---

[١٩٢] – سفر يشوع : الإصحاح السادس ، النصوص ٢١–٢٤

[١٩٣] – سفر حزقيال : الإصحاح التاسع ، ٤–٧

[١٩٤] – لقد هالني خلال تتبعي لنصوص العهد القديم كثرة النصوص الإحلالية التي تشير إلى إهلاك الأمم المخالفة وإبادتها وعدم التصرف معها بطريقة أخلاقية ، مما يشير إلى عمق تلك الثقافة في الفكر اليهودي ، وإن شئت فراجع : سفر الخروج الإصحاح ٣٢ ، النص ٢٧–٢٨ ؛ سفر العدد : الإصحاح ٣١ ، النصوص ٧–١١ ، ١٧–١٨ ، سفر التثنية : الإصحاح الثالث ، النصوص ٦–٧ ، الإصحاح الثالث عشر : النصوص ١٥–١٧ ، سفر يشوع : الإصحاح الثامن ، النصوص ١٨–٣٠ ، والإصحاح العاشر ٣٨–٤٠ ، والإصحاح الحادي عشر ١٠– ١٢ ، وسفر صموئيل الأول الإصحاح الخامس عشر ٣–١١ ، وصموئيل الثاني : الإصحاح الرابع ١٢ ، وغيرها كثير من النصوص . وهي بمجموعها تشير إلى ثقافة خاصة تلغي الآخر وتحرص على إنهاء وجوده كلياً ، بل كثير من النصوص السابقة لا تتضمن أي شكل من أخلاقيات الحرب كقتل المرضى والنساء والأطفال والتحريق والتدمير الكامل ، والتعذيب الفظيع ، ومثل هذه الثقافة غريبة على المسلمين ، وليس في كل نصوصهم ما يقترب من أهون نص من نصوص كتب اليهود .

[١٩٥] – سفر التثنية ، الإصحاح ٢٠ ، النص ١١– ١٧

المسلمين ضيقاً عفا عن كل أهل مكة بالرغم من شدة عداوتهم للمسلمين ، والفارق بين الأمرين هو طبيعة الظرف الحرج الذي رافق الخيانة العظمى من بني قريظة .

فمرحلة الخندق كانت مرحلة تكالب من كل أهل الجزيرة على المسلمين ؛ أي هناك حالة عدائية شاملة للمسلمين ، وترك فئة خائنة داخل المدينة لها اتصال مع قوة خارجية في خيبر وغيرها سيعرض المدينة بعد ذلك لمخاطر شديدة ، والمعلوم أن النبي ﷺ بعد غزوة بني قريظة توجه نحو العمرة ، وعندما كان بعيداً عن المدينة وعلى ثخوم مكة حصل تحريض من ناحية خيبر لقبائل غطفان للانقضاض على المدينة المفرغة من رجالها ، فلو تصورنا وجود الخونة من بني قريظة في تلك اللحظة في المدينة ، حينها أمكن توقع اكتمال المؤامرة واستباحة عقر دار المسلمين ونسائهم من الداخل والخارج .فلهذه المحاذير رأى النبي ﷺ أن تصفية هؤلاء الخونة و إنهاء وجودهم من المدينة هو ضرورة حربية في ظرف حرج ، وهذه الضرورة أيضاً محكومة بمبدأ العدل القاضي بمعاقبة المجرم بحجم جرمه ، والظرف الحرج لا يسمح بالإحسان له ؛ خاصة أن هؤلاء الخونة قد عهد منهم الغدر ونقض العهود عبر التاريخ ، وبشهادة القرآن .([196])

شبهة الاغتيالات السياسية ([197]):وهذه الشبهة أثارها كثير من المغرضين ليدللوا على قسوة النبي ﷺ ؛ حيث اعتبروه قام باغتيالات سياسية لمجرد اختلاف الرأي ؛ أي هو اغتيال لمجرد الكلمة . وكانت كتبهم تسوق كثيراً من القصص والروايات غير الثابتة أصلاً ، لذا لا طائل من ملاحقة أكاذيب أو روايات غير ثابتة هنا [198] ، وبعض هذه الروايات ثابتة في كتب السير ، وهي حالات محدودة جداً لكن بتوصيف غير الذي زعمه المغرضون في حق محمد ﷺ ، ولعل أهم حادثتين ثابتتين في السنة – ولم أجد في المصادر الصحيحة غيرهما – هما قصة اغتيال كعب بن الأشرف ، واغتيال سلام بن أبي الحقيق ، وتفصيل قصة اغتيالهما وملابساته في التالي : **أولاً : مقتل كعب بن الأشرف**

١ – **ملابسات اغتيال كعب بن الأشرف اليهودي** . ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نبهان من قبيلة طيء ، كان أبوه قد أصاب دماً في الجاهلية ، فقدم المدينة وحالف يهود بني النضير وتزوج منهم ، فولدت له كعباً ، وبعد قدوم النبي ﷺ للمدينة عقد عهداً بينه وبينهم ومواثيق تتضمن حسن الجوار الذي يكفل عدم مساندة عدو خارجي للمدينة على أهل المدينة . لكن هذه المواثيق لم تحترم منذ اللحظة الأولى التي ظهرت فيها بوادر العداء من اليهود وقادتهم في المدينة ، وبدأوا يفتعلون الفتن ضد المسلمين ، وتولى كبر هذا الأمر كعب بن الأشرف ، خاصة بعد غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون ، فقد ورد أنه حين بلغه انتصار المسلمين ومقتل صناديد قريش فقال : « **هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها** » [199] و ذهب لمكة وجعل ينشد أشعاراً يبكي فيها على قتلى المشركين ويؤلبهم على المسلمين ويؤجج حقدهم عليهم ، ويحرض قريش على الثأر لقتلاهم الذين كان ينوح عليهم ويبكيهم في شعره ، وعندما

([196]) – د. محمد أحمد المبيض ،أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ص: ١٢٦ وما بعدها .

([197]) – لنا وقفة طويلة مع شبهة الاغتيال السياسي في الفصل الثاني فصل الشبه .

([198]) – يقول أحمد جاد المولى : « ومن أمثلة هذا المسلك في النقد الجائر ما جاء في كتاب (اتساع رقعة الإسلام) لمؤلفه مستر كاش الذي اختتمه بأربع صفحات جمع فيها شواهد مما أسماه جرائم القتل التي حرص عليها النبي في زعمه ، ولقبه من أجلها بالمخادع القاسي القلب ، وقد اعتمد المؤلف في قدحه هذا كتاب سير وليم في حياة محمد ، وذكر جاد المولى ثلاثة حوادث مبيناً أنها لم تثبت في السنن منها قتل عصماء بنت مروان اليهودية ، والحادثة الثانية هي اغتيال الشيخ المسن أبي غفك الأحمق اليهودي ، والحادثة الثالثة هي لتاجر يهودي اسمه ابن سنينة انظر جاد المولى : المثل الكامل (٤١٠ وما بعدها)وهذه الحوادث الثلاثة غير ثابتة في السنن الصحيحة ، وهي واهية الأساس متصدعة الأركان ، لذا لا حاجة لنا في ملاحقة أوهام المبطلين التي سيقت في معرض التشهير والطعن وليس خدمة للبحث العلمي الأصيل

([199]) – انظر آبادي : عون المعبود (٣٢٢/٧)

سأله أبو سفيان قائلاً : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأي الفريقين أهدى سبيلا ؟ فقال أنتم أهدى من محمد ومن معه سبيلاً ، ولم يترك قريشاً إلا بعد أن أجمعت رأيها على قتال النبي محمد ﷺ .

ولما قدم المدينة أعلن صراحة معاداته للنبي ﷺ وبدأ يهجوه في أشعاره ، وبلغت به الوقاحة والصلف أن يمتد لسانه إلى نساء المسلمين وشبب بأم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العباس عم النبي ﷺ . (٢٠٠) في تلك المرحلة ندب النبي ﷺ حساناً ليذود عن حوض الإسلام ويدفع شعر كعب بمثله ؛ أي أن النبي ﷺ في البداية اقتصر على منهج الدفاع الإعلامي . لكن جرائم كعب وهجمته الحاقدة المفتعلة للفتن داخل المدينة وخارجها قد استمرت ، وبلغت حداً لا يطاق ؛ خاصة أنها لم تقتصر على الكلمة ، بل توسعت إلى دائرة إثارة الفتن والقلاقل ، وتهييج الأعداء لمهاجمة المسلمين وتضمنت خيانة صريحة في صالح الأعداء ، وهذه الجرائم كل واحدة منها تعتبر نقضاً للعهد الذي بين المسلمين ويهود بني النضير بمجموعهم ، وتستوجب عقوبة القتل، فكيف إذا اجتمعت كل هذه الجرائم كلها في هذا الشرير . عندما اشتد أذى كعب وافتعاله الفتن وأخل كل العهود بخيانته العظمى وأصبح في صف الأعداء المحاربين انتدب النبي ﷺ من يقتله ، فتطوع لذلك محمد بن مسلمة ﷺ واستخدم مع مجموعة معه خدعة استدرج من خلالها كعب بن الأشرف خارج الحصن ليلاً وقام بتصفيته .(٢٠١)

٢- **تقييم اغتيال كعب بن الأشرف** . بالنظر لملابسات حادثة كعب بن الأشرف نجد أن قتله لم يكن من باب الاغتيال السياسي ، أو تكميم الأفواه ، بل كعب كان خائناً لعهوده ووطنه لصالح الأعداء ، وكان داعية فتنة ، وكان السكوت عليه سبباً لإثارة حروب ونشر القلاقل ؛ لذا كانت تصفيته تخضع لضرورة حسم الفتن ودواعي الحروب وردع للخونة ، والملاحظ أن النبي ﷺ لم يعاقب قبيلته بفعلته هذه على اعتبار أن العهد نقض من جهتهم ، بل جدد العهد معهم بعد مقتل كعب . ومن هذا الوجه نقول أن قتل كعب لا يخضع لبند الاغتيالات السياسية ،بل يخضع لباب إعدام الخونة الذي تقر به كل دساتير الأمم.

ثانياً : اغتيال سلام بن أبي الحقيق . سلام بن أبي الحقيق أحد زعماء بني النضير وأكثر اليهود تحريضاً للأحزاب ضد المسلمين ؛ لدرجة أنه جعل لغطفان ومن حولها من قبائل المشركين الجعل العظيم إن هي قامت لحرب النبي ﷺ ، وعند انتهاء الأحزاب ، أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة عبد الله بن عتيك لتصفية سلام بن أبي الحقيق ، وتوجهت السرية نحو خيبر ، واستطاع عبد الله بن عتيك أن يتلصص وينفذ نحو الحصن ليلاً ثم قام بتصفيته داخل حصنه . (٢٠٢) وعملية قتل أبي الحقيق هي من العمليات الحربية لتصفية قادة العدو ، ولا علاقة لها بالاغتيال السياسي من قريب ولا بعيد ، خاصة أن سلام بن أبي الحقيق كان أحد مخططي معركة الأحزاب وداعميها بالمال . هذه الشبه الواردة لبست غير ثوبها الحقيقي ، وتم توصيفها وتكييفها لتخدم أغراض مثيريها في الطعن برسالة محمد ﷺ ، ونظرة واحدة لهذه الأحداث التي أثيرت حولها الشبه السابقة نجد أنها أيضاً تضيف رصيداً جديداً في مثالية أخلاق الحرب عند النبي ﷺ حتى وفق قوانين المبطلين أنفسهم ، وفي نظري أن قلة المطاعن في حروب النبي ﷺ هي التي أدهشت هؤلاء وأدمت قلوبهم فبدأوا يفتشون بدون وعي ولا تمحيص ليطعنوا بمحمد ﷺ وأنى لهم ذلك .(٢٠٣)

---

(٢٠٠) – انظر الحلبي : السيرة الحلبية (٢/ ٤٣٦) (١٤٨/٣) ؛ ابن هشام : السيرة النبوية (٣١٨/٣ وما بعدها) ؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر (٣٩٢/١)

(٢٠١) – انظر تفاصيل قصة اغتيال كعب بن الأشرف عند البخاري برقم ٣٨١١ (١٨٤١/٤) ؛ أبو شهبة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (٤١٢/٢)

(٢٠٢) – انظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٢٣٥/٤) ؛ ابن سيد الناس : عيون الأثر (٦٥/٢)

(٢٠٣) – يشير محمد رشيد رضا إلى هذا المنهج الذي يفتقر إلى أبسط قواعد الموضوعية الذي اتبعه المستشرقون في كيل الاتهامات للنبي ﷺ وتبرئة من قتلهم ، من ذلك قوله بخصوص قتل كعب بن الأشرف : « **ومن الغريب أن الاستاذ ولفنستون يغمض عينيه عن هذه المراجع المهمة ، في رسالته تاريخ اليهود ، ويتشبث برأي اليعقوبي ويعتبره صحيحاً ؛ لأن اليعقوبي يقول أن النبي ﷺ أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد ، .. لكن ما الذي ألجأ الأستاذ إلى ذلك ؟ الذي ألجأه إلى ذلك هو نفي التهمة عن كعب بن الأشرف ، وهي تحريضه قريشاً على قتال المسلمين ، وتشبيبه بنسائهم فاضطر على تكذيب رواية ابن هشام**

البحث الثاني :

سر انتشار الإسلام السريع

- المطلب الأول : انتشار الإسلام بالسيف في تبليغ تعاليمه ونشر مبادئه، تهمةٌ باطلة لعوامل متعددة .
- المطلب الثاني : لماذا شُرِع الجهاد في الإسلام؟ أليْس لإجبار النَّاس على اعتِناق الإسلام؟
- المطلب الثالث: الفتوحات الإسلامية بين ردّ العدوان ونشر الدعوة .
- المطلب الرابع: الحرب في الكتب المقدسة وانتشار المسيحية أيهما انتشر بحد السيف ؟ الحروب الدموية!
- المطلب الخامس : سر انتشار الإسلام السريع .

وغيره من كبار المؤرخين .. وبذلك نفى الأستاذ ولفنستون التهمة عن كعب وجوز على النبي قتل زعيم من زعماء بني النضير لا لشيء غير إعلان الحرب عليهم . » [رضا : محمد ﷺ (٢٣١)] نقلا عن كتاب د. محمد أحمد مبيض ، أخلاقيات الحروب في السيرة النبوية ص :١٢٣- ١٣٠ .

إن ادِّعاء انتشار الإسلام بالسيف، واعتماده على البطش في تبليغ تعاليمه ونشر مبادئه، تهمةٌ باطلة لعوامل متعددة :

تعتبر تهمة انتشار الإسلام بالسيف من أخطر الطعون في أخلاقيات الحرب في رسالة الإسلام ، وذلك لما يترتب على هذه التهمة من نتائج خطيرة كفيلة بإلصاق فكر عنصري إحلالي مهيمن على حروب النبي ﷺ ، ولا يتصور من فكر عنصري إحلالي أي مسحة أخلاقية في حروب أصحابه ؛ وبالتالي تعتبر هذه التهمة طعنة قاتلة في كبد أخلاقيات الرسالة الحربية من جهة ، ومن جهة أخرى تنسف كل فضيلة في الإسلام ساعدت في انتشاره في الأرض ؛لذا نجد أن الكثيرين من المستشرقين قد ركزوا جهودهم في تقرير هذه التهمة وتسويقها في مجتمعاتهم.[٢٠٤] لكن الجهد الاستشراقي لم يخل من مواقف موضوعية نظرت للحقيقة مجردة فأثبتتها كما هي ؛ لذا وجدنا أن كثيراً من المستشرقين بعدما خبت جذوة الحرب المسعورة والبواعث الاستعمارية التي كانت وراء بحوثهم الاستشراقية فاكتشفوا أن تلك التهمة كانت عبارة عن سراب وغربال يراد به تغطية الشمس الجليّة من هذه الأسباب :

١ – لأن كلَّ محاولة لفرض الدين هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومةٌ لسنة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨]، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف: ١٠٣] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

٢ – القاعدة الإسلامية المحكمة هي قاعدة حرية العقيدة: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومن هنا رسَم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها، فحلُّها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. إنَّ العقائد لا تستقرُّ في النفوس تحت وطْأة السَّيف والقهر على الإطلاق، وإنَّما تستقرُّ بالإقْناع وبالحجَّة الواضحة، ولو كانت الشُّعوب قد دخلت في الإسلام مُجْبرة فسرعان ما كانت تمرَّدتْ عليه ولفظته، ولكنَّ الحقيقة التي يشْهَد لها التَّاريخ والواقع أنَّ الشُّعوب الإسلاميَّة هي أكثر الشعوب تمسُّكًا بدينها، رغم ما تُعانيه من اضطِهادات وحروب في كثير من أنحاء العالم حتَّى في عصرنا هذا. إن آية عدم الإكراه بيان لكمال هذا الدّين الإسلامي، وأنَّه لكمال براهينه واتِّضاح آياته، وكونه هو دينَ العقل والعِلْم، ودين الفطْرة والحِكْمة، ودين الصَّلاح والإصْلاح، ودين الحقّ والرشْد، فلِكمالِه وقبول الفِطَر له لا يَحتاج إلى الإكْراه عليه؛ لأنَّ الإكراه إنَّما يقع على ما تنفر عنه القلوب ويتنافَى مع الحقيقة والحقّ، أو لِما تخفى براهينُه وآياته، وإلاَّ فمَن جاءه هذا الدين وردَّه ولم يقبلْه فإنه لعناده؛ فإنَّه قد تبيَّن الرُّشد من الغيّ، فلم يبقَ لأحد عذرٌ ولا حجَّة إذا ردَّه ولم يقبله" ([٢٠٥]).

٣ – لا يكتفي الإسلام بعدم إكراه أحدٍ على الدخول فيه، بل يُوصِينا القرآنُ في معاملة الوثنية – التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلاً عن الديانات التي تربطنا بها أواصرُ الوحي السماوي – بتلك الوصية: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة: ٦]؛ فأنت تراه لا يكتفي منا بأن نُجير هؤلاء المشركين ونؤويَهم فحسب،

([٢٠٤]) – لعل الباعث لديهم على تقرير هذه التهمة وتتبع الشبهات المؤكدة عليها هو الانتشار المذهل للإسلام في ربوع العالم القديم بشكل لم يعهد في دين قبله ، وتعزيز فكرة أن أخلاقيات الرسالة وسمو الفضيلة كان وراء ذلك الانتشار المذهل يترتب عليه الإقرار بمصداقية الرسالة وضرورة الإيمان بها ، وهذا ما لا يرجون حصوله ؛ لذا تشبثوا بهذه التهمة ليحصروا الإسلام وينسفوا أثر الفضيلة في انتشاره .

([٢٠٥]) – تفسير السعدي، ص٩٢.

ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق وكفى، بل يأمرنا بأن نَكفُل لهم كذلك الحماية والرعاية في انتقالهم، حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل غائلة.

٤ – لم تكتفِ الدعوة القرآنية في تحديد العَلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التي لا تدين بالإسلام بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١]؛ بل تندب المسلمين أن يكون موقفُهم من غير المسلمين موقفَ رحمةٍ وبر، وعدل وقسط: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].وجاءتِ السنة النبوية لتؤكِّد هذا الموقف؛ حيث يقول الرسول ﷺ ((مَن ظلم معاهَدًا، أو انتقصه حقه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجُه يوم القيامة))([٢٠٦]).

٥ – إن المتأمل في معاملات النبي ﷺ لمن عاصرهم، يلاحظ أنها كانت على مقتضى الحكمة، وهو رعاية حق المعاهدين ما استقاموا على عهدهم، والأخذ في معاملة المنافقين بظاهر حالهم ومسالمة التاركين (قبائل لم تتعرَّض لحرب الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم تدخل معه في عهد) ما داموا على حيادهم، وإعلان الحرب على مَن وقف موقفَ العدوِّ (قريش ومَن شاكلهم في المجاهرة بالعداوة). ومَن درس غزواته ﷺ وسراياه وجدَها إما حربًا لعدوٍّ لم يَدَعْ أذى وصلت إليه يدُه إلا فعلَه؛ كغزوةِ بدرٍ، أو دفاعًا لعدوٍّ مُهَاجِم؛ كغزوة أُحُد وحُنَين، أو مبادرة لعدو تحفَّز للشر؛ كغزوة بني قُرَيظة، أو كسرًا لشوكة عدو نقضَ العهد وعُرِف بمحاربة الدعوة، واتَّخذ كل وسيلة للانتقام من القائمين بها والقضاء عليها؛ كفتح مكة، حارب ﷺ أولئك الأعداء، وكان يحاربهم في جانب عظيم من السماحة، فنهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، ونهى عن المُثْلَة، وكان يمضي كل تأمين يصدر من أحد من المسلمين لبعض المحاربين ولو كنّ نساء ، ((ويسعى بذمتهم أدناهم)) ([٢٠٧]) ، وكان يوحي بالإحسان إلى الأسرى، وقد يُطلِق سبيلَهم من غير فداءٍ، وبالجملة: فالإسلام يُدِين روح التدمير وروح السيطرة.

٦ – ماذا يقول هؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالسيف إذا نظروا في مسلمي الصين وجاوه وغيرهم من الأمم التي دخلت الإسلام بمجرد الدعاية؟! فمن المعلوم أنَّ هناك كثافة إسلاميَّة في جنوب شرق آسيا، في بلادٍ لَم تطأْها قدمُ مجاهد مسلم فاتح، كالفلبّين وإندونيسيا، فهناك عشَرات بل مئات الملايين أسْلموا، فمَن الَّذي أجْبر هؤلاء على اعتِناق الإسلام؟! وجدير بالذِّكْر أنَّ هؤلاء يشكِّلون غالبيَّة المسلمين في عصرنا. كما أنَّ هناك كثيرًا من المسلِمين في دول أوربَّا والأمريكتَين ، وهي بلاد لم يدخُلْها الفاتحون المسلمون، وهناك أقلّيات مسلمة في كلّ الدُّول غير الإسلاميَّة وهم متمسِّكون بالإسلام، وفي كلّ يوم تدخُل جموع غفيرة إلى الإسلام في بلاد غير إسلاميَّة، حتَّى ثبت بالإحصاءات الرَّسمية غير الإسلاميَّة أنَّ الإسلام هو أسرع الأدْيان انتشارًا في العالم الآن.

٧ – أن كل بناء مزيَّف إذا عاش بُرْهَة من الزمن بفضل القوة التي تسانده، لا بد وأن ينهارَ حين تختفي من حوله العناصرُ الغريبة عليه التي ساعدت على بقائه قائمًا... فماذا نرى اليوم بعد توقف الفتوحات الإسلامية؟!

٨ – أن المقارنة بين انتشار الإسلام وكيفيته، وبين غيره من الدعوات تُثبِت – بما لا يدع مجالاً للشك – أن غيره من الدعوات قد عَمِلت في الرقاب للإكراه على قبولها، مهدِّدة كل أمة لم تَقْبَلها بالإبادة والمحو من سطح البسيطة، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد، هذا ما صنعتْه الصليبية والصهيونية والمغول، وغيرهم. أما الإسلام، فلم تكن وسيلته السيف، بل العجب أن مَن

([٢٠٦]) – سنن ابي داوود ح(٣٠٥٢) الألباني صحيح،

([٢٠٧])– جزء من حديثٍ أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، باب إثم مَن تبرَّأ من مواليه (ج ٤ ص ١٦٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (ج ٢ص ١٩٨)

جاؤوا إلى بلاد الإسلام أعداء مُغِيرون، ما لبثوا أن دخلوا تحت جناح هذا الدين وصاروا من دعاته وناشريه([٢٠٨]). فممَّا يؤَكِّد بطلان هذه الفرية: أنَّ التَّاريخ يثبت أنَّ بعض القوَّات والجيوش التي حاربت المسلمين وانتصرتْ عليْهِم كالتَّتار مثلاً – قد أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجًا، في سابقةٍ لعلَّها لَمْ يعرفْ لها التاريخ مثيلاً، فأنَّى للمنتصِر أن يدخُل في دين المهزوم؟! وأيّ شبهة إكراه ها هنا؟!

٩ – كان المسلِمون يدخلون في الغالب في معارك غير متكافِئة من حيث العددُ والعدَّة، حيث كان خصمُهم يتفوَّق عليهم تفوُّقًا ساحقًا. ففي غزوة مؤْتة – على سبيل المثال – نجِد أنَّ عدد جنود المسلمين حوالَي ثلاثة آلاف رجُل، في حين كان عددُ جيش الكفَّار مائتي ألْف مقاتل، ناهيك عن التفوُّق في العدَّة والآلة الحربيَّة، فهل يظنّ بهذه القلَّة المستضعفة أن تغرَّها قوتها وتشرع في فرض ما معها من الحقّ على هذه الجموع الغفيرة؟! وهل سعى ثلاثةُ آلاف مسلم في فرض الإسلام على مائتَي ألف شخص؟! وإن معدّلات إنتشار الإسلام في البلدان المفتوحة لشاهدة على ذلك بأن تمدّده كان متناسبا مع الزمن .

١٠ – معدلات انتشار الإسلام شهادة أساسية واضحة : الذي يُؤَكِّد حقيقة انتشار الإسلام بالدَّعوة لا بالسيف أنَّه في الجزيرة العربية وخارجها، كان وَفْقَ معدلات متناسبة تَمامًا من الناحيتين الكَمِّية والكيفيَّة، مع التطوُّر الطبيعي لحركة الدعوة الإسلامية، ولا يوجد في هذه المعدلات نِسَب غير طبيعية أو طفرات تدُلُّ على عكس هذه الحقيقة، والجدول الآتي يوضح هذه النسب:

السنوات بالهجري	/ فارس	/ العراق	/ سورية	/ مصر	/ الأندلس.
نسبة المسلمين مع نهاية أول مائة عام	/ ٥%	/ ٣%	/ ٢%	/ ٢%	/أقل من ١%.
السنوات التي صارت النسبة فيها ٢٥% من السكان	/ ١٨٥هـ	/ ٢٢٥	/٢٧٥	/ ٢٧٥	/ ٢٩٥.
السنوات التي صارت النسبة فيها ٥٠% من السكان	/ ٢٣٥هـ	/ ٢٨٠	/ ٣٣٠	/ ٣٣٠	/ ٣٥٥.
السنوات التي صارت النسبة فيها ٧٥% من السكان	/ ٢٨٠هـ	/ ٣٢٠	/ ٣٨٥	/ ٣٨٥	/ ٤٠٠.([٢٠٩])

خصائص ذلك الانتشار:

- ♦ عدم إبادة الشعوب.
- ♦ ساد العبيدُ الأحرارَ في بلاد المسلمين، لما عَلَت هممهم وقويت عزائمهم.
- ♦ لم يضطهد المسلمون الشعوب، ويقيموا لهم محاكم التفتيش، كما فعل النصارى في المسلمين.
- ♦ ظل اليهود والنَّصارى والهندوك في بلادهم آمنين على أرواحهم وممتلكاتهم.
- ♦ تزاوجوا من أهل تلك البلاد، وبنوا أُسرًا وعائلاتٍ على مَرِّ التاريخ.

([٢٠٨]) – مقالة : الرد على افتراء انتشار الإسلام بالقوة والإجبار ، إيهاب كمال أحمد منشورة على موقع الالوكة .
([٢٠٩]) – "مناظرة بين الإسلام والنصرانية"، ج١، ص ٢٢٦.

♦ ظل إقليم الحجاز – مصدر الدعوة الإسلامية – فقيرًا إلى عصر البترول، في الوقت الذي كانت الدُّول الاستعمارية تجلب خيرات البلاد المستعمرة إلى مراكزها ([٢١٠]).

ومما سطر المنصفون بأقلامهم كلمات تقف عند حدود الحقيقة بغض النظر عن صاحبها ، والذي ألجأهم للإذعان لتلك الحقيقة الخالدة هو أن صفحات السيرة النبوية خاصة ما يتعلق في الحروب فيها كانت ناصعة زكية ، وتضمنت مثالية مذهلة قل نظيرها في الوجود ، وإثارة شبهة هنا أو هناك نحو موقف أو موقفين لا يغيض من تلك المثالية كما أن قطرة بول لا تؤثر في طهارة المحيط ، لابأس بتقديم بعض الشهادات بين يدي البحث ثم نكمل :

يقول أبو الهند الحديثة (مهاتما غاندي) في حديث لصحيفة يوتج أنديا : « **أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب الملايين ، وأيقنت أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، ولكن من خلال بساطة الرسول مع رقته وصدقه في الوعود** »[٢١١] وفي موضع آخر قال :« **كلما أدرس أكثر أكتشف أن قوة الإسلام لا تكمن في السيف** .»[٢١٢] أقول : نعم لا تكمن في السيف ، والعرب بطبيعة شخصياتهم التي تأنف الانقياد للغير لا يمكن أن تنقاد لسطوة السيوف ، بل الموت عندهم أهون من الذل والهوان تحت شعاع السيوف ، وقد لاحظنا كيف أن ثمامة بن أثال لم يعلن إسلامه وهو يرسف تحت القيد ، وبمجرد ما نال حريته قدم للنبي ﷺ وأعلن إسلامه ، وهذه طبيعة العربي في الجزيرة العربية ، ولا محل لاستيعابهم من خلال سطوة السيوف ، إنما الذي استوعبهم هو سعة رحمة النبي ﷺ بهم .

يقول الكاتب المسيحي لين بول : « **إن كثيراً من كتاب التراجم والسير الأوروبيين الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد نبي الإسلام لم يتعففوا عن أن يشوهوا هذه السيرة ، وذلك بما أدخلوه فيها من افتراءات وادعاءات كاتهامهم له بالقسوة ، فإن هذه التهمة غير جديرة بالاعتبار كسائر الاتهامات ؛ لأننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه في هذه المسألة ، لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد ﷺ، وذلك بدليل معاملته للأسرى بعد غزوة بدر ، وتسامحه مع أعدائه ، وصبره على أذاهم ، وعطفه على الأطفال والمرضى ، وحقنه للدماء ، وعفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربته ثمانية عشر عاماً ، وأظهروا له فيها كل صنوف العداء وأذاقوه في خلالها كل أنواع الجور والاضطهاد.**»[٢١٣]

النص السابق يشير بوضوح أن اتهام النبي بالقسوة هو فرية غير جديرة بالاحترام لأنها تصطدم بحقائق التاريخ التي ترشد إلى تلك الأخلاقيات التي تميز بها النبي ﷺ في حروبه خاصة السماحة والعفو والصبر على الأذى وحقن الدماء ، وذلك الإحسان الذي تميز به النبي ﷺ في عفوه عن أكثر الناس إيذاءً له ، فهذه الأسباب مجتمعة تفسر سبباً من أسباب انتشار الإسلام ، ولعل السبب الأعظم في انتشاره هو تلك السماحة العالية التي تميز بها محمد ﷺ ، وتلك النفسية السامية التي كانت تحرص على فتح الأبواب الموصدة دون هداية البشر حوله ، وتلك الخبرة العميقة في طبائع الناس وما يصلحهم ؛ لذا نجده يبذل المال وينثر طيب الكلام ويتألف القلوب بما يتناسب معها حتى أضحى محمد ﷺ في قلوب أعدائه أحب الناس إليها ودخلوا في دين الله بعدما اقتنعت عقولهم بمصداقيته وتشربت قلوبهم تعاليمه قبل أن تنطق ألسنتهم بشعاره ، وهذا لاحظناه جلياً بعد فتح مكة خلال إحسان النبي ﷺ لأشد الناس عداوة له .

([٢١٠]) – المرجع نفسه .
([٢١١]) – عبد الله : هذا هو الحبيب (١٥)
([٢١٢]) – ديدات : الرسول الأعظم (٩٩)
([٢١٣]) – محمد فهمي عبد الوهاب : محمد رسول الإسلام (٣٨)

يقول البروفيسور عبد المسيح الأنطاكي وهو يوناني الأصل عاش في حلب : « **ليس بصحيح ما يدعى أن الإسلام استولى قهراً بالسيف على أكثر من نصف الكرة الأرضية ، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس إليه بعد أن أقنع عقولهم ، وأكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة ، هو اتصافهم بالشيم العالية ، ولا يخفى ولوع المغلوب بتقليد الغالب ، وقد انخرط في الإسلام أقوام لم تبلغهم سلطة المسلمين ولم تصلهم** . » [٢١٤]

هذا النص يشير صراحة إلى سر انتشار الإسلام المذهل وهو تلك الأخلاقيات التي تميز بها النبي ﷺ وجيشه في الحروب ، ونقول لهؤلاء الذين ما يزالون يتمسكون بتلك الفرية ارجعوا للتاريخ مرة أخرى واسألوا أنفسكم هل السيف كان وراء إخلاص عكرمة ﷺ وتضحيته بماله ونفسه في سبيل الله وتقديمها رخيصة في معركة اليرموك للذود عن حوض الإسلام ، وهل السيف كان وراء إخلاص سهيل بن عمرو ، يقول الزبير بن بكار : « **كان سهيل بن عمرو بعد إسلامه كثير الصلاة والصوم والصدقة خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً ، ويقال أنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن.**» [٢١٥] هذا ما يحكيه التاريخ عن سيرة ألد أعداء الإسلام بعد إسلامهم ، ولم يكن السيف على رقابهم ليقوموا بهذه الأعمال الجليلة التي تنم عن قناعة كاملة برسالة الإسلام .

يقول دي لاسي أوليري في كتابه الإسلام في مفترق الطرق ص ٨: « **قد كشف التاريخ أن الأسطورة التي تزعم أن المسلمين المتعصبين زحفوا على العالم يفرضون الإسلام بالقوة على أجناس الدول المفتوحة هي واحدة من أكثر الخرافات والأساطير التي رددها المؤرخون سخافة** . » [٢١٦] نعم هي خرافة تكذبها حقائق التاريخ ، وسخافة ألجأ لها التعصب الأعمى وإخراج العلم عن أهدافه السامية وتسخيره لخدمة مآرب استعمارية ، سخافة حاول أهلها أن يشوهوا من خلالها أنصع صفحة في تاريخ الإنسانية ، ومن السخافة أن يظنوا أنهم يقدرون على ذلك ، بل من السخافة أن يتصوروا أن السيف والقوة يمكن أن تقرر عقيدة وفضيلة في أمة عبر قرون إلى يومنا هذا ؛ وتنتج حضارة تعتبر من أرقى الحضارات فكراً وسلوكاً وأخلاقاً إلى يومنا هذا ، وما زالت تمتلك القوة العجيبة في استقطاب الناس نحوها حتى في المراحل التي غُلبت فيها هذه الحضارة على أمرها وخبا بريق سيفها ؛ لذا وجد بين المستشرقين من نسف هذه الخرافة التي لا يصدقها عقل بكلمات لم تكلفه أكثر من سطرين لإثبات زيفها كما في الفقرة التالية .

يقول جوستاف لوبون : « **لم ينتشر القرآن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل** . » [٢١٧] وهذه لفتة عجيبة تنسف بالدليل خرافة المبطلين ، وتبرز أن قوة الإسلام تكمن في رقي تعاليمه وسمو أخلاق منتسبيه ، وليس من خلال بريق سيوف أهله . [٢١٨].

٢- لماذا شُرِع الجهاد في الإسلام؟ أليْس لإجبار النَّاس على اعتِناق الإسلام؟

---

[٢١٤] – عبد الوهاب : محمد رسول الإسلام (٥٠)
[٢١٥] – الذهبي : سير أعلام النبلاء (١٩٥/١)
[٢١٦] – ديدات : الرسول الأعظم (٨٣)
[٢١٧] – لوبون : حضارة العرب (١٢٨)
[٢١٨] – انظر صفحة ٢١ و ١٦١ وما بعدها من كتاب الدكتور محمد أحمد ميبض أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية .

الحرب ظاهرة اجتماعية لطّفتها تعاليم وحروب النبي ﷺ : الحرب ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان على ظهر هذه البسيطة، فمنذ وُجد الإنسان وهو يصارع ويحارب، وكعلاقة من العلاقات الاجتماعية الحتمية نشأت الحرب، فالاحتكاك بين البشر لابد وأن يُوَلِّد صداماً من نوع ما، لقد جبل الإنسان على غريزة التملك التي تدعوه إلى التشبث بما يملكه، حيث إن هذه الغريزة هي التي تحفظ عليه البقاء فى الحياة، وهى بالتالي التي تتولد عنها غريزة المقاتلة، فى أبسط صورها دفاعاً عن حقه فى الاستمرار والحياة، وقد تتعقد نفسية الإنسان وتصبح حاجاته ومتطلباته مركبة، فلا يقاتل طالباً للقوت أو دفاعاً عنه فقط، وإنما يقاتل طلباً للحرية ورفعاً للظلم واستردادا للكرامة. ويُفَصِّل العلامة ابن خلدون هذه الحقيقة فى مقدمته فيقول: " اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان؛ إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع، كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر، إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعى في تمهيده " ([٢١٩]) .

الجهاد في الإسلام حرب مشروعة عند كل العقلاء من بنى البشر، وهى من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات:

١- من ناحية الهدف.
٢- ومن ناحية الأسلوب
٣- ومن ناحية الشروط والضوابط.
٤- ومن ناحية الإنهاء والإيقاف.
٥- ومن ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج.

إن المطالع لآيات وأحاديث الجهاد، يخرج بصورة المجاهد في سبيل الله، أنه ذلك الفارس النبيل الأخلاقي المدرب على أخلاق الفروسية العالية الراقية؛ حتى يستطيع أن يمتثل إلى الأوامر والنواهي الربانية التي تأمره بضبط النفس قبل المعركة وأثناء المعركة وبعد المعركة، فقبل المعركة يجب عليه أن يحرر نفسه من كل الأطماع، وألا يخرج مقاتلا من أجل أي مصلحة شخصية، سواء كانت تلك المصلحة من أجل نفسه أو من أجل الطائفة التي ينتمى إليها، أو من أجل أي عرض دنيوي آخر، وينبغي أن يتقيد بالشروط التي أحل الله فيها الجهاد، وأن يجعل ذلك لوجه الله تعالى، ومعنى هذا أنه سوف يلتزم بأوامر الله، ويستعد لإنهاء الحرب فوراً، إذا ما فقدت الحرب شرطاً من شروط حلها أو سبباً من أسباب استمرارها، وسواء أكان ذلك الفارس منتصراً، أو أصابه الأذى من عدوه، فإن الله يأمره بضبط النفس، وعدم تركها للانتقام، والتأكيد على الالتزام بالمعاني العليا، وكذلك الحال بعد القتال، فإنه يجب عليه أن يجاهد نفسه الجهاد الأكبر؛ حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخصٍ مؤذٍ لمجتمعه أو لجماعته أو للآخرين، وبالرغم من أن لفظة الجهاد إذا أطلقت انصرف الذهن إلى معنى القتال فى سبيل الله. إلا أن الرسول ﷺ قد أسماه بالجهاد الأصغر، وسمى الجهاد المستمر بعد القتال بالجهاد الأكبر؛ لأن القتال يستمر ساعات أو أيام، وما بعد القتال يستغرق عمر الإنسان كله....ويتضح لنا أيضا أن من شروط وضوابط الحرب:

(١) النبل والوضوح فى الوسيلة والهدف.

(٢) لا قتال إلا مع المقاتلين ولا عدوان على المدنيين.

(٣) إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين.

([٢١٩]) – مقدمة ابن خلدون (١/ ٣٣٤) المحقق: خليل شحادة ، الناشر: دار الفكر، بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

(٤) المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان.

(٥) المحافظة على البيئة ويدخل في ذلك النهى عن قتل الحيوان لغير مصلحة وتحريق الأشجار، وإفساد الزروع والثمار، والمياه، وتلويث الآبار، وهدم البيوت.

(٦) المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم.

الجهاد في الإسلام اتسم بنبل الغاية والوسيلة معا، فلا غرو أن تكون الآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تماما في هذا السياق من النبل والوضوح؛ لأن النتائج فرع عن المقدمات، ونلخص هذه الآثار في النقاط التالية:

(١) تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية.

(٢) إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس، وهو الشر الذى يؤدى إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

(٣) إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

(٤) تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

(٥) تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس في أوطانهم.

يقول الله سبحانه: { الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا }[الحج:٢٩] . قال المفسرون : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته أرباب الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات؛ فكأنه قال: أذن في القتال، فليقاتل المؤمنون. ثم قوى هذا الأمر في القتال بقوله: (ولولا دفع الله الناس) الآية؛ أي لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل أمة. فمن استشبع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه؛ إذ لولا القتال لما بقى الدين الذى يذب عنه. وأيضاً هذه المواضع التي اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى؛ أي لولا هذا الدفع لهُدمت في زمن موسى الكنائس، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع، وفى زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد. " لهدمت " من هدمت البناء أي نقضته فانهدم. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية ([٢٢٠]) " .

إنَّ الجهاد لم يشرعْ في الأساس لإجْبار النَّاس على دخول الإسلام قهرًا، وإنَّما الغاية العظْمى من الجهاد هي تطْهير الأرض من أجواء الفتن حتَّى يتمَّ تعْبيد النَّاس لله ربِّ العالمين وحده، وإقامة توْحيد الله في أرض الله، وإرْجاع البشر إلى أصل فطرتِهم، وهي الإسلام لله تعالى الَّذي يخلِّص البشرَ من كل عبوديَّة مذلَّة لغيره ، الاصل في الجهاد إفراغ الوسع والجهد في الدعوة لدين الله سلما وموعظة ، قال تعالى لنبيه :{ وجاهدهم به جهادا كبيرا..." الضمير للقرآن" }[الفرقان:] فالأصل الجهاد في نشر القرآن وتعاليم الله والدعوة له بالحجة والموعظة الحسنة والاقناع ، لكن عند وضع العراقيل في وجهه تواجه بقدرها ثم تتحول للقتال بالسلاح ، لذلك قال ربعي بن عامر لرستم قائد جيش الفرس يوضِّح سبب جهاد المسلمين: ((إنَّ الله ابتعثنا لنخْرج مَن

([٢٢٠]) – تفسير القرطبي (١٢/ ٧٠) مرجع سابق ، وتفسير ابن عطية (المتوفى: ٥٤٢هـ) (٤/ ١١٢) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢

شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومِن ضيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جور الأدْيان إلى عدل الإسلام، فأرسلَنا بدينِه إلى خلقِه لندعُوَهم إليْه، فمَن قَبِل ذلك قبِلْنا منه ورجعنا عنْه، ومن أَبَى قاتلْناه أبدًا حتَّى نفضي إلى موعود الله)) ([٢٢١]).

ولتوضيح ذلك نقول: إنَّك إذا أردتَ أن تُعالج شعبًا من إدْمان الخمر، فلا بدَّ أن تغْلِق الخمَّارات، وإذا أردت لإنسانٍ أن يتوبَ من الزِّنا، فلا تجعله يعيش بين بيوت الدّعارة، وعندما تريد أن تَجعل النَّاس أصحَّاء، فيجب أن توفِّر لهم أجواء صحّيَّة نظيفة، والجهاد هو وسيلة تطْهير الأرض من أدْواء الشِّرْك وتخليصها من أمراض الكفْر، وهذا معنى: "حتَّى لا تكون فتنة". فالجهاد في الإسلام ليس لإكْراه النَّاس على الإسلام؛ وإنَّما لإفساح الطريق لهم لأن يعبُدوا الله ويتركوا الشِّرْك ، من خلال توفير أجواء إيمانيَّة لهم تساعدُهم على التَّفريق بين الحقّ والباطل، وتوضِّح لهم الرشْد من الغيّ؛ ولذلك قال الله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦] وما سبق وهذا معنى :{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٩٣].قال ابن كثير: "أمر الله تعالى بقِتال الكفَّار حتَّى لا تكون فتنة؛ أي: شرك، قال ابن عبَّاس : ويكون الدين لله؛ أي: يكون دين الله هو الظَّاهر على سائر الأديان"، وقال الطبري : "فقاتِلوهم حتَّى لا يكون شرْكٌ ولا يعبد إلاَّ الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض وهو الفتنة، "ويكون الدِّين كله لله"، يقول: وحتَّى تكون الطاعة والعبادة كلّها لله خالصة دون غيره" ([٢٢٢]).

ولقد كشف القرآن الكريم للمسلمين عن حقيقة أساسية من حقائق الحكاية هي أن الحرب ضرورة اجتماعية: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، ولما كانت الحرب ضرورة اجتماعية فقد واجهها الإسلام – وهو الدين الواقعي – بالرأي الواضح والقانون الصحيح، وقد أذِن الله للمسلمين بالقتال متى ظلموا أو سدت الطريق أمامهم لتبليغ دعوتهم، أو لردع المعتدي.

فما دامت في الدنيا نفوس لها نوازع وأهواء ومطامع، وما دام هناك هذا الناموس الذي يطبق على الأفراد والجماعات على السواء: ناموس تنازع البقاء – فلا بد إذًا من الاشتباك والحرب، وحتى تكون الحرب لردع المعتدي وكف الظالم ونصرة الحق، والانتصاف للمظلوم تكون فضيلة من الفضائل، وتتيح الخير والبركة والسمو للناس، وحين تكون تجبرًا أو إفسادًا في الأرض واعتداءً على الضعفاء تكون رذيلة وتنتج السوء والشر والفساد في الناس، وبذلك كانت أولى نظرات الإسلام إلى الحرب أنها ضرورة اجتماعية، أو شر لا بد منه؛ لما يرجى من ورائه من خير، ويشهد القرآن الكريم بأن الإسلام يغلب السلم على الحرب؛ فإن الآيات التي جاء فيها ذكر الحرب لم تزد عن ست آيات، أما الآيات التي فيها السلم ومشتقاته، فقد بلغت (١٣٨) آية.

فقد أقام الإسلام مفهوم الحرب على أسس واضحة؛ فهو:

أولاً: من أجل رد العدران والدفاع عن النفس والأهل والوطن والدين، ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثانيًا: من أجل تأمين الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم.

([٢٢١]) – البداية والنهاية (٥ /١٠٧، ١٠٨).

([٢٢٢]) – جامع البيان، للطبري (٦ /٣٢٧). تفسير ابن كثير (١ /٣٤١).

ثالثًا: حماية الدعوة حتى تبلغ للناس جميعًا، ويتحدد موقفهم منها تحديدًا واضحًا؛ ذلك أن الإسلام رسالة اجتماعية إصلاحية شاملة، تنطوي على أفضل مبادئ الحق والخير والعدل، وتوجه إلى الناس جميعًا.

رابعًا: تأديب ناكثي العهد من المعاصرين، أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين التي تتمرد على أمر الله، وتنأى عن حكم العدل والإصلاح.

خامسًا: إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا، والانتصار لهم من الظالمين.

سادسًا: تحريم الحرب لغير ذلك من الأغراض؛ فكل ما سوى هذه الأغراض الإنسانية الإصلاحية الحقة من المقاصد المادية، أو الشخصية، أو النفعية، فإن الإسلام لا يُجِيز الحرب من أجلها.

سابعًا: إضافة القتال دائمًا إلى سبيل الله، وتحريم كل قتال لغير هذه الأغراض.

لقد عَرَف المسلمون "الجهاد" وَفْق مفهوم الإسلام: دفاعًا عن حق مجتمع الإسلام في الحياة، ودعوة الإسلام في الامتداد، وذلك بالتضحية بالنفس، والتغلب على أهوائها من أجل تجديد بناء الأمة، وحماية الحوزة، ومفهوم إرادة القتال في الجهاد الإسلامي، مادة وروحًا، فيه الدعوة إلى الخير والسلام، وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه الإعراض عن الاستغلال والاستعباد.

أما في الشرق والغرب، فقد فهمت إرادة القتال "مادة فقط" في الدعوة إلى التسلط والاستعباد، وفي إشاعة المنكر والفساد، وفي حب الحرب، وكراهية السلام، وفي الاستغلال والاستعمار ([٢٢٣]).

ومن أهداف الإسلام حرب السلطات الطاغية، والفتن المضلِّلة، حتى تتوطد في الأرض حرية الضمير والعقل، فلا يذل حق، ولا يهون إيمان.. وذلك هو الجهاد الصحيح، والجهاد ضد الإرهاب، أو هو علاجه الكاسر لشكوته، الماحق لسطوته، فاستعمال القوة في البطش والتعدي إرهابٌ، ومصادرة هذه القوة حتى يأمن الناس وتقر العدالة، ويهدأ الروع جهادٌ، وهجوم المستعمرين على أقطار الشرق لانتهابها واسترقاق أهلها إرهابٌ، ومكافحة هذا الهجوم بكل ما وقع في اليد جهادٌ.

إن الجهاد المثمِر يحوِّل الخير من علوم نظرية ومسالك فردية إلى حقائق ثابتة، وتقاليد عامة، ومناهج منظمة، وإلى جيل يحتضن فكرة لتتلقَّفها عنه أجيال، ومن ثَمَّ اهتم الإسلام به لعظم الفائدة المرجوَّة منه، ولسعة الدائرة التي يصنعها للحق، ولا شك أن الجهاد له أعظم أجر عند الله من إقبال المرء على خاصة نفسه، ولو قضى دهره يصوم النهار ويقوم الليل. روى أحمد عن رسول الله ﷺ : ((لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله))([٢٢٤]) ، وروَى أن رجلاً جاء أبا سعيد الخدري، وقال: أوصني، فقال: سألتَ عمَّا سألتُ عنه رسول الله ﷺ من قبلك: ((أوصيك بتقوى الله؛ فإنها رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن؛ فإنه رُوحك في السماء، وذكرك في الأرض...)) ([٢٢٥]).والدولة

([٢٢٣]) – بماذا انتصر المسلمون؟ أنور الجندي ص ٥٧ – ٦٢، بتصرف ط/ دار الاعتصام.

([٢٢٤]) – رواه الإمام أحمد، ج ٣ ص ٢٦٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٥ ص ٢٧٨): رواه أبو يعلى وأحمد، إلا أنه قال: ((لكل نبي رهبانية))، وفيه زيد العمي، وثَّقه أحمد وغيره، وضعَّفه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح.

([٢٢٥]) – رواه أحمد ج ٣ ص ٨٢، وقال الهيثمي في الزوائد: ج ٤ ص ٢١٥: رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجال أحمد ثقات.

التي يقيمها الإسلام لا صلة لها بالعلو في الأرض، ولا مكان فيها لتمجيد أشخاص أو تحقيق أهواء، إنها وسيلة لبلوغ أهداف ذكرنا آنفًا بعضها ([٢٢٦]).

إن حرية الاعتقاد هي حرية تَعِب العالَم كثيرًا في تقريرها، ولم نشعر – نحن المسلمين – بضراوة الصراع الذي دار من أجلها؛ لأننا توارثناها جيلاً بعد جيل، وتلقَّيناها في تعاليم ديننا وتقاليد أسلافنا حقيقة لا تحتمل لغطًا أو جدلاً ، يرفض الإسلام رفضًا حاسمًا إكراه أحد على الدخول فيه؛ إذ ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وخطته الفذة أن يشرح منهجه، وأن يتلو كتابه، وأن يدع الناس بعد هذا البيان أتم ما يكونون حرية في أخذه أو تركه، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ [الإسراء: ١٠٥ – ١٠٧]، نعم، آمِنوا إذا شئتم، أو ابقوا على إنكاركم له وكفركم به إذا شئتم، لن يجبركم أحد على اعتناق ما تكرهون.

إن الوسيلة الوحيدة للإيمان المنشود هي المعرفة الحرة والاقتناع المجرد، والخشوع بعد ذلك لله عن عاطفة جيَّاشة بالصدق والإخلاص؛ ولذلك يقول مباشرة بعد: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩]؛ أفهمت أيها القارئ؟ الإسلام ما قام يومًا – ولن يقوم أبدًا – على إكراهٍ؛ لأنه واثق من شيء واحد، من نفاسة تعاليمه وجَوْدة شرائعه، كل ما يبتغي من الناس أن يجد مكانًا في السوق العامة يعرض فيه ما لديه على العيون المتطلعة والبصائر الناقدة، فإذا لم تكن جودة الشيء هي التي تغري بالإقبال عليه وقبوله فلا كان قبول ولا كان إقبال!

وهذا سر قانونه الوثيق: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي عراك الأحياء على ظهر هذه الأرض لشتى الأسباب قد يُجَرُّ الإسلام جرًّا لقتال لم يشعلْ نارَه، أتظنه إذا انتصر في هذا القتال، وأمكنته الفرص من وضع الأغلال في أعناق عبدة الأصنام، أتظنه يفعل ذلك، ويلزمهم بترك شركهم واعتناق عقيدة التوحيد؟ لا.. يقول الله – عز وجل – لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦] ، إنه لم يقل: فإذا سمع كلام الله فمُرْه فليترك دينه الخرافي، وليتبع دينك الحق.. لا..، أطلق سراحه، وردَّه آمنًا إلى وطنه، فإذا أحب أن يدخل في الإسلام بعدُ جاءتْ به قدماه إليك طائعًا لا كارهًا، ولِمَ ذلك الإرجاء والترك؟ ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ فيجب إذًا أن يطاولوا حتى يعلموا، فإذا عَلِموا الدين، فسوف يدخلونه.

وعندما كانت الحرب الدينية تفتك بأرجاء العالَم، وتعتبر إرادات الناس صفرًا، وتعتبر إدخال الناس في دينٍ ما بالعنف والقسر كسبًا، في هذه الأوقات العصيبة كان الناس يقرؤون من آيات الحرية في كتب الفقه الإسلامي ما يستثير الدهشة ، نرى من عناية الإسلام بالحرية وقدرها حق قدرها، أن الفقهاء يقولون: إذا وجد صبي غير معروف نسبه مع مسلم وكافر، فقال الكافر: هو ابني، وقال المسلم: هو عبدي، يحكم بحريته وبنوته للكافر([٢٢٧]) ؛ وذلك لأنه بهذا الحكم ينال الحرية حالاً، وسوف ينال الإسلام فيما بعد حين يكبر، ويفهم الدلائل على وجود الله، وعلى بعثة نبيه محمد ﷺ بخير الأديان وأكملها، تلك هي

([٢٢٦]) – ليس من الإسلام، للشيخ محمد الغزالي ص ٢٤، ٢٥ بتصرف

([٢٢٧]) – راجع: الدر المختار وحاشية ابن عابدين، عن: هذا ديننا ص٤٩.

أحكام الفقه الإسلامي، التي ورثناها نحن عن القرون الوسطى، فماذا يفعل روَّاد المدنية الحديثة؟ وما هي الأساليب المتبعة في سرقة عقائد المرضَى، والمعْوِزين، واللقطاء، والسذج؟

إذا كان الإسلام يعاب بشيء فهو المثالية الغريبة في تقرير حرية الاعتقاد؛ إذ إنه يتشبَّث بهذه الحرية المطلقة في عالَم مشحون بأنواع الفتن والاضطهاد، وقد أصيب أتباعه بضر شديد من حدة هذا التعصب ، ومع ذلك فإن مبدأ المعاملة بالمثل لم يدخل في سياسته العامة، ولم ينتقص أطراف الحرية الواسعة التي رسمها للدخول فيه.. وقد حاول السلطان العثماني "سليم الأول" أن يوحِّد الدين في مصر، وأن يُكرِه الآخرين على الدخول في الإسلام، ولعل ذلك كان ردًّا سياسيًّا على توحيد الدين في إسبانيا، واستئصال شأفة الإسلام من أرضها، لكن شيخ الإسلام رفض هذا العمل، وأبَى إلا أن تكون حرية الاعتقاد على منهجها الإسلامي السمح مهما صنع الآخرون. وكل ما نرجو ألاَّ يصاب المسلمون بالشر من احترامهم البالغ لحرية الاعتقاد، ومن وفائهم الظاهر لتعاليم دينهم في هذا الميدان المعقد ([٢٢٨]).

وليت شعري أيهم أولى بوصف الإرهاب: الذين شهدت سيرتهم بأنهم يَعْفُون عن أعدائهم حين يتملكون منهم (كما في فتح مكة)، ويمتنعون عن قتل المستضعفين من الولدان والنساء والشيوخ والرهبان والأُجَراء، ويلتزمون بعدم قتال من لا يقاتل، والذين عصموا دماء المعاهدين والأبرياء، وأحسنوا معاملة أَسراهم، منفِّذين أوامر ربهم، ومتَّبعين تعاليم شرعهم. أم الذين اخترعوا القنابل الذرية وأسلحة الدمار الشامل، فقتلوا الملايين من الأبرياء، ولم تفرِّق أسلحتهم بين طفل رضيع، وامرأة ضعيفة، وشيخ واهن، فهدموا البيوت على رؤوس أصحابها، وأظهروا الفساد في البر والبحر لسنوات عديدة؟

فهل كان أصحاب مذابح الحملات الصليبية مسلمين؟ وهل كان أصحاب محاكم التفتيش من المسلمين؟ وهل كان النازيون العنصريون الذين استباحوا قتل الشعوب وإبادتهم من المسلمين؟ إن كل عاقل مُنصِف لَيشهدُ أن الإسلام قدم أمثلة من العدالة والصفح وعدم الاعتداء لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، والنصوص الشرعية والسيرة النبوية والوقائع التاريخية والمشاهِد الواقعية كلها شاهدة على ذلك، ولكنها مزاعم ساقها الحقد، وحادها البغي والإفك، وإنها لا تعمى الأبصار وإنما تعمى القلوب التي في الصدور. وإن حدث من بعض المسلمين مخالفات لهذا الهدي وخروج عن هذا المنهج لفهم مغلوط لبعض النصوص أو تأوُّل أو جهل، أو لشهوة وهوى، فهل من العدل أن يحكم على الدين وأهله بهذه الممارسات؟ وهل أفعال المنحرفين من أي جماعة أو ديانة تكون حجة على جميع المنتسبين إليه؟ إن الحجة القاطعة الملزمة لهذه الأمَّة هي كتاب الله وسنة وسيرة رسوله المعصوم صلى الله عليه وسلم، فمن خالفهما ففعله ينسب لشخصه، وإثمه يكون على نفسه. وإن كنا نؤكد أن هؤلاء المنحرفين مع كون أفعالهم ليست بحجة، فهم كذلك شذوذ نادر لا يُشكِّلون ظاهرة في تاريخ المسلمين، وأنه عند دراسة التاريخ سيَثبُت لكل منصف أن هذه الأمة هي الأحق دومًا باعتلاء قمة الأخلاق في الحروب، وأنها الأبعد عن وصف الإرهاب الذميم الذي يحاول الأعداء إلصاقه بها على طريقة: رمتني بدائها وانسلت.([٢٢٩])

الخلاصة في شرعة الجهاد :

استقر النبي ﷺبالمدينة وأسس حكومته . فهاجت ثائرة قريش والعرب وحقدوا على رسول الله ﷺ لما أحرزه من استقرار ونجاح لهذه الدولة الوليدة . دون ظلم أو استبداد أو سفك للدماء . ولذلك فقد كان ﷺ مقصوداً بالقتل، إذ ليس معقولاً أن تنام

([٢٢٨]) – هذا ديننا ص ٤٧ – ٥٠ بتصرف. وانظر مقال على شبكة الالوكة باسم شبهات حول التسامح الإسلامي أ. د. عمر بن عبدالعزيز قريشي

([٢٢٩]) – مقال بإسم الإسلام يدعو إلى الإرهاب والقتل وسفك الدماء ، إيهاب كمال أحمد على شبكة الالوكة .

أعينهم على هذا التقدم والنمو، ومصالحهم قائمة على الزعامة الدينية فى جزيرة العرب، وهذه الدولة الجديدة قائمة على أساس ديني ربما يكون سبباً فى زوال هذه الزعامة الدينية الوثنية الموروثة. وإذا كان الإسلام ديناً بلغت الميول السلمية فيه مداها فى قوله تعالى: {فاصفح عنهم وقل سلام} (٥٣) إلا أن الميول السلمية لا تتسع لمنع القائمين بهذا الدين الجديد من الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الذى أنزله الله للإنسانية كافة، فى عالم يضيع فيه الحق والعدل إن لم يكن لهما قوة تحميهما، فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم، ولذلك كان التعبير بقوله تعالى: {أُذِنَ للذين يُقَاتَلُونَ بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد } [الحج:٥٣] .

كان التعبير بالإذن الذى يدل على المنع قبل نزول الآية يدل على طروء القتال في الإسلام وأنه ظل ممنوعاً طيلة العهد المكي وبعضاً من العهد المدني ، هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن . موطن الدفاع عن النفس والدين . أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور، وهذا من مميزات الحكومة النبوية، فإن القائم عليها من نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله، والعالم كله في نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليماً قوياً.. إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ليس فيما بين الناس فحسب، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم، وبين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه، ولا أظن أن قارئاً من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعوه ناموس تنازع البقاء وبنوا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضاً " ([٢٣٠]).

" ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصراني للمسيح، وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام حتى إنهم استصدروا أمراً بصلبه فنجاه الله منهم، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون في الأرض لا تجمعهم جامعة، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الإمبراطور قسطنطين الذى أعمل السيف في الوثنيين من أعدائهم.. أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية في عالم مبنى على سنن التدافع والتنازع واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ودك صروح العدل "؟

" يقول المعترضون: وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب وحسم منازعاتها عن طريق التحكيم، وهذا قرآنكم يدعوكم إلى الجهاد وحثكم على الاستبسال فيه؟ نقول: أعددنا لهذا العهد قوله تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم} [الانفال:٥٥] ." هذه حكمة بالغة من القرآن، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التي لابد منها ما دام الإنسان في عقليته ونفسيته المأثورتين عنه، غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمي يتفق فيه على إبطال الحرب فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حُجة لأهله من ناحية، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى، ولو كان يريدها لذاتها لما نوه لهذا الحكم "([٢٣١]).

لهذا قال ﷺ لأعدائه بعدما قدر عليهم: " اذهبوا فأنتم الطلقاء " هكذا دون شرط أو قيد، أقول حتى دون اشتراط الإسلام. والنتائج الحقيقية:

([٢٣٠]) – السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة لمحمد فريد وجدى ص ١٦٤، ١٦٣ بتصرف. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
([٢٣١]) – السيرة النبوية لمحمد فريد وجدى ١٦٥، ١٦٦. و حقائق الاسلام في مقابل شبهات المشككين الشبهة رقم ٦٥. مجموعة من العلماء باشراف الدكتور حمدي زقزوق أصدار وزارة الاوقاف المصرية .

(١) تحويل العرب الوحوش إلى عرب متحضرين، والعرب الملحدين الوثنيين إلى عرب مسلمين موحدين.

(٢) القضاء على أحداث السلب والنهب وتعزيز الأمن العام في بلاد تفوق مساحتها مساحة فرنسا بضعفين.

(٣) إحلال الأخوة والروحانية محل العداوة والبغضاء.

(٤) إثبات الشورى مكان الاستبداد ([٢٣٢]) .

هذا وقد وضع رسول الله ﷺ ضوابط وقيود كان من شأنها أن تحدد وظيفة الجهاد في نشر الإسلام في ربوع المعمورة، دون سفك للدماء ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

ومن هذه الضوابط قوله تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين} الانفال:٨٧} .فإن كان بين المسلمين والكفار عهد أو أمان فلا يجوز للمسلمين الغدر حتى ينقضي الأمد، فإن خاف المسلمون من أعدائهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم، فحينئذ يخبرهم المسلمون أنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يستوى علم المسلمين وعلم أعدائهم بذلك. ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة من الأعداء لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم بل علم ذلك. ودل مفهوم الآية أيضاً على أنه إذا لم يخف منهم خيانة بأن يوجد منهم ما يدل على عدم الخيانة، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته ([٢٣٣]) .

أما ما أثبته الواقع فلقد كانت أهم خصائص انتشار الإسلام :

١. عدم إبادة الشعوب.

٢. جعلوا العبيد حكاماً.

٣. لم يفتحوا محاكم تفتيش.

٤. ظل اليهود والنصارى والهندوك في بلادهم.

٥. تزاوجوا من أهل تلك البلاد وبنوا أُسراً وعائلات على مر التاريخ ([٢٣٤]) .

٣- الفتوحات الإسلامية بين رد العدوان ونشر الدعوة

يقولون : إن الاسلام انتشر بحد السيف ، فأي جيش للمسلمين غزا اندونيسيا ،أي جيش للمسلمين غزا ماليزيا وأي جيش لهم غزا جنوب افريقيا ، حكم المسلمين الأندلس ٨٠٠ عام ، وحين طُردنا من هنالك لم يبق فيها أي مسلم ليرفع الأذان ، لو كنا نرفع السيف لما بقى أي نصراني هنالك على قيد الحياة .. لقد حكمنا الهند لألف عام لكن بعدها حدث تقاسم السلطة فحصدنا الربع وحصد الهندوس على ثلاثة أرباع .. لو كنا نستخدم السيف لم طردنا من تلك الاماكن ، اليوم يعتنق الكثير من الإنكليز والأمريكيين والأوروبيين الإسلام وأنا أسأل بأي سيف يعتنقون ؟؟! إنه سيف الحكمة والعقل . كما أن كل

([٢٣٢]) – رحمة للعالمين للمنصور فوزى ص ٤٦٣ .عن حقائق الاسلام في مقابل شبهات المشككين الشبهة رقم ٦٥ مرجع سابق .

([٢٣٣]) – تفسير ابن كثير (٤ / ٧٩)والقرطبي (٨ /٣١) والتفسير الوسيط لسيد طنطاوي (٦ / ١٣٦) . مراجع سابقة .

([٢٣٤]) – راجع حقائق الاسلام مقابل شبهات المشككين لنخبة من علماء مصر الشبهة ٦٥ .مرجع سابق، جواب الشبهة ل د. محمود حمدي زقزوق

شعوب أوروبا الشرقية بقيت على دينها نصرانية ،سوى شعب الالبان والبوسنة والهرسك ([٢٣٥]) وقد حكمتهم جميعهم الدولة العثمانية لقرون فلم تفرض على أحد منهم دينها المنتصر، لماذا في نيجيريا وبروناي والفلبين واندونيسيا وغيرهم مئات الملايين من المسلمين لم يقربهم الاسلام بالمواجهة .

لا ننسى أن الحوادث التاريخية تُفَسَّر طبقًا للقواعد والأعراف التي كانت سائدة في وقتها، ولا تقيَّم على مقاييس اليوم، وحروب الصحابة في الصدر الأول كانت لأجل حماية الدعوة ومنع تغلب الظالمين عليها لا لأجل العدوان؛ فـ الرسول ﷺ بدأ الاتصال بالعالم الخارجي من خلال رسائله السلمية إلى ملوك الأرض فتباينت ردود الأفعال نحو الدعوة الوليدة وجاءت على النحو التالي:

– فالروم كانوا يعتدون على حدود البلاد العربية التي دخلت في حوزة الإسلام ويؤذون هم وأولياؤهم من العرب المتنصّرة من يظفرون به من المسلمين ،ثم كانت غزوة مؤتة (٨هـ)، التي كانت بدايتها أن الحارث بن عمير الأزدي لما نزل مؤتة بكتاب رسول الله إلى صاحب بصرى، أخذه شرحبيل بن عمرو الغساني وضرب عنقه، فكان الرسول الوحيد الذي قتل من رسل رسول الله إلى الأمراء والملوك. وقتل الرسول في جميع النظم والشرائع إيذان بالمحاربة. فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وندب الناس.

ثم كانت غزوة تبوك في غرة رجب (٩هـ) وسببها أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بـ الشام تريد توجيه ضربة إلى الدولة الإسلامية، قبل أن يشتد ساعدها وتنفرد بقيادة الجزيرة العربية، وتشكل – وهذا هو الأهم – خطرًا حاسمًا على الوجود البيزنطي في بلاد الشام. وتناهى إلى علم المسلمين أن القبائل بدأت بإرسال طلائعها إلى البلقاء تمهيدًا للخطوة التالية وأجلبت معهم لخم وجذام وغسان، وكان أحد زعماء الردة، هو النعمان الغرور نصرانيًا قبل دخوله الإسلام، وكان وجماعته على علاقة بالروم، وينقل عن السيدة عائشة رضي الله عنها إشارتها في حرب الردة... "واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية".([٢٣٦])

– أما الفرس فكانوا أشد إيذاءً للمؤمنين من الروم، فقد مزقوا كتاب النبي ورفضوا دعوته وهددوا رسوله، ثم كتب كسرى إلى باذان وهو والي اليمن: "ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. فبعث باذان قهرمانه – وهو بابويه – بكتاب فارس وبعث معه رجلًا من الفرس. فخرجا حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه بابويه فقال: "إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك".([٢٣٧])

فهل بعد كل هذا يمكن أن يقال: إن جيوش المسلمين هي التي بدأت بالتحرك نحو الفرس والروم وليس العكس؟ ثم إن الدولة صارت في حالة حرب مع الدولتين، وهما من بدأها فلا يعيننا أن نكون البادئين بالهجوم في بعض مراحل هذه الفتوحات،

([٢٣٥]) – كان الشعب البوسني يؤمن بإنجيل (برنابا) ، الذي : أ) يشهد لسيدنا المسيح عيسي ابن مريم ، بأنه عبد الله و رسوله ب) يبشر بالنبي محمد صلي الله عليه و سلم ج) لا تعترف كنائس النصاري به ، لرفضه التثليث و الصليب و كان الشعب البوسني : ١) يصلي في اليوم خمس مرات ٢) لا يتبع الكنيسة الشرقية و لا الغربية ، لذلك تعرض للإضطهاد ، لذلك كان الشعب البوسني و الألباني مهيئ للفتح الإسلامي.

([٢٣٦]) – المنتظم لابن الجوزي ٧٤/٤، البداية والنهاية ٣٠٠/٥ طبعة التراث العربي ، حياة الصحابة للكاندهلوي ٢٥/٢ مؤسسة الرسالة .

([٢٣٧]) – تاريخ الطبري ٦٥٥/٢، المنتظم لابن الجوزي ٣/ ٣٢٨، البداية والنهاية ٤/ ٣٠٧ .

فحالة الحرب قائمة وتأمين الدولة واجب. ومع ذلك ورغم تحرك جيوش المسلمين لرد العدوان كما أسلفنا فإن عمر رضي الله عنه كان "يتمنى أن يكون بينه وبين الفرس جبل من نار يحجز بين الفريقين([٢٣٨])". وكان كلما عزم على الوقوف عند حد للفتوح اضطرته مؤامرات العدو أن يستأنف القتال.

والسؤال: لماذا إذن ذاعت مقولة "إن الإسلام قد انتشر بالسيف"، على الرغم من أنه ليس لها واقع حقيقي؟

في الغرب كلما سمعوا كلمة "الجهاد" تمثلت أمام أعينهم، جنود متقدة صدورها بنار التعصب والغضب، متطاير من عيونها شرار الفتك، عالية أصواتها بهتاف "الله أكبر" زاحفة إلى الأمام، ما إن ترى كافرًا حتى تمسك بخناقه وتجعله بين أمرين: إما أن يقول: لا إله إلا الله، فينجو بنفسه، وإما أن يضرب عنقه ، وفي ظني أن ذلك راجع إلى سببين: الأول: تلك السرعة الفائقة التي انتشر بها الإسلام، على حين كانت المسيحية طوال قرون تخفي نفسها في الزوايا والمنعطفات. أما الإسلام فخلال فترة لا تتعدى ثلاثين سنة بعد موت معلمه الأكبر، شق لنفسه طريقًا راسخًا، بأن نفذ إلى قلوب أعداد هائلة من البشر. وقبل أن ينقضي قرن واحد كان صدى وحي غار "حراء" يزحف بعيدًا بعيدًا عبر قارات ثلاث، فلم يستطع الغربيون أن يتصوروا إمكان حدوث تلك "المعجزة" إلا بحد السيف، والسيف وحده.

والثاني: أن بعض المؤرخين المسلمين كانت تأخذهم حماسة النصر فيصورونه تصويرًا يتفق مع طبيعتهم الشخصية والتي تكون في بعض الأحيان طبيعة بدوية جافة، والأسوأ أنهم يزايدون في صورة الانتصار ويغلفونه بما يحسبونه – طبقًا لفهمهم – تمجيدًا لانتصار المسلمين على أعدائهم. وللأسف فإن المؤرخين في الماضي كانوا يبالغون في هذه الأرقام بغير حق، وما كانوا يدرون أنه بعد قرون سيأتي أقوام يتصيدون هذه الأخبار الكاذبة والمبالغ فيها حتى يسيئوا للإسلام، بعض مؤرخينا إذن أمدوهم بمادة خصبة لنفث سمومهم.

ولكن ألا تتفق هذه المقولة بانتشار الإسلام بالسيف مع الحديث الصحيح: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم([٢٣٩])"؟ ألا يعطي هذا الحديث دستورًا لتعامل المسلمين مع العالم الخارجي غير المسلم؟ إذا فهم هذا الحديث على أنه دعوة إلى قتال كل أهل الأرض حتى ينطقوا بالشهادتين، فإن ذلك يعد افتئاتًا على الإسلام، فضلًا عن أن ذلك المعنى يهدم كل الدعائم التي أقامها القرآن ليؤسس جسور المعاملة بالحسنى مع غير المسلمين، تلك الجسور التي يشهد بها الواقع التاريخي الذي يشهد به العدو والصديق.

وحقيقة الأمر أن المعنيّ بـ "الناس" في هذا الحديث الصحيح ليس كل البشر، وإنما هم جماعة من البشر، وهو المعنى المستخدم في بعض آيات القرآن، مثل قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣]، فالمراد بالناس في الآية ليس بالطبع كل البشر، وإنما جماعة صغيرة من الأعراب أوعز إليهم أبو سفيان ومن معه ممن قاتلوا في غزوة أحد أن يوهنوا من عزم المسلمين في تعقبهم بعد الغزوة. وثمة اتفاق بين جميع المسلمين على أن المراد بـ"الناس" في الحديث هم مشركو جزيرة العرب بوجه خاص؛ لأن حكم غيرهم من أهل الكتاب ومشركي غير العرب يخالف ما جاء في الحديث، ذلك أنهم يقاتلون عندما يتوافر السبب الشرعي لذلك حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية. فإن لم يتوافر السبب الشرعي، فإن قتالهم لا يجوز؛ بدليل وجود بعض المشركين كأفراد وكتجار في الجزيرة في عهد الخلفاء ولم يتعرض

([٢٣٨]) –

([٢٣٩]) – البخاري ح(٢٥) ومسلم ح(٣٥) .

لهم أحد، وأبو لؤلؤة المجوسي أحد هؤلاء، وبالتالي فالتطبيق العملي من صحابة الرسول ﷺ لهذا الحديث خير رد على من يريد جعل هذا الحديث سيفًا على كل العالم.

وهنا يثور سؤال: أليس من الواجب الشرعي أن أنقذ غيري من الكفر ولو بالقوة؟ هذا ليس صحيحًا، فقد استقر المبدأ الشرعي العظيم {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} كواحد من أسس التفكير الإسلامي، حتى ألقى بظله على الكثير من الاجتهادات الفقهية في مختلف نواحي السلوك الإنساني. ينقل الطبري رواية عن ابن عباس تقول: إن رجلًا من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ولدان مسيحيان وهو مسلم، فسأل الرسولَ أن يحمل ولديه على اعتناق الإسلام بعد أن أصرا على التمسك بالمسيحية، فنهاه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك، ونزل قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[البقرة:٢٥٦].([٢٤٠])وقد بلغ حرص المسلمين الأوائل على الالتزام بهذه القاعدة {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، أن جاءت امرأة مشركة إلى الخليفة عمر بن الخطاب، في حاجة لها، فدعاها أمير المؤمنين إلى الإسلام، لكنها رفضت، فقضى لها حاجتها، ولكنه خشي أن يكون في مسلكه هذا ما ينطوي على استغلال حاجتها لمحاولة إكراهها على الإسلام، فاستغفر الله مما فعل، وقال: "اللهم إني أرشدت ولم أُكره". ([٢٤١])

عن وسق قال: كنت مملوكا لعمر بن الخطاب ، وكنت نصرانيا، فكان يقول لي: يا وسق أسلم، فإنك لو أسلمت لوليتك بعض أعمال المسلمين، فإنه لا يصلح أن يلي أمرهم من ليس على دينهم، فأبيت عليه، فقال لي: {لا إكراه في الدين} فلما مات عمر أعتقني. ومن القضايا الطريفة – والمهمة – في هذا الصدد، ذلك الجدل الفقهي الذي أثير حول حق الزوج المسلم في مناقشة زوجته غير المسلمة، في مسألة إسلامها، فقد رأى الإمام الشافعي ألا يفاتح الرجل زوجته في هذا الأمر، ولا يعرض عليها الإسلام، "لأن فيه تعرضًا لهم، وقد ضمنا بعقد الذمة ألا نتعرض لهم". بينما يرد الأحناف بقولهم: "يعرض الإسلام على الزوجة، لمصلحة من غير إكراه"! ([٢٤٢])

إن الإسلام بنَى خطتَه في الحياة على استحالة زوال الأديان كلها، واكتفى بأن يبقى مذكِّرًا بالحق، منكِرًا للهوى، وترى ذلك في قوله : { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } [البقرة: ١٤٥] ،حسبنا – نحن المسلمين – أن نقرِّر الحق، وأن نحيا على هداه، وأن نمهِّد طريقه لمن أحبَّ سلوكَه، ولنا بلا ريبٍ أن نردَّ المهاجمين، وأن نَحمِيَ المستضعفين ، وأن نُسكِت المفترِين إذا تمادَوا في أذاهم، ولولا السيف الإسلامي الصُّلب، ولولا الرجال أولو البأس الذين حملوه، ولولا نبي الملحمة الذي انتصب دون دينه وعرينه، لذهب الإسلام في خبر كان، وربما ضنَّ عليه الاستعماريون بدموع التماسيح بعدما يزول!

إن المؤرِّخين الأوروبيين غضاب لأن الإسلام قاتل الرومان! فهل سأل أحدُهم نفسه: ما الذي جاء بالرومان إلى الشام وآسيا الصغرى؟! وما الذي جاء بهم إلى مصر والشمال الإفريقي؟ أكان الإقناع طريقًا إلى إخراج أولئك المستعمرين من أرضٍ احتلوها أكثر من خمسة قرون؟ هل أفلح الإقناع في إنهاء استعمار البيض لجنوب إفريقيا؟ إن الحرب وحدَها – بكل مغارمها ومتاعبها – هي الطريق الفذُّ لمحوِ الاستعمار الطويل، إن الإسلام أغنى الأديانِ بالأدلة، وأحرصُها على استثارة الأفكار ومناشدة الضمائر، وكان يمكن أن يلام لو أنه آثر إعمال السيف على العقل، أو قابل اللطف بالعنف. أما أن يعرض حجَّته، فيلقى الهزء

([٢٤٠]) – راجع تفاسير القرآن على آية لا أكراه في الدين كالطبري وابن كثير والقرطبي ٢٨/٣ دار الكتب المصرية ط٢.

([٢٤١]) – راجع تفاسير القرآن على آية لا أكراه في الدين كالطبري وابن كثير والقرطبي ٢٨/٣ دار الكتب المصرية ط٢.

([٢٤٢]) – ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢ / ٢٢) وعزاه للمصنف وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم. وأخرجه ابن سعد في "الطبقات" (٦ / ١٥٨ – ١٥٩) راجع مقال الفتوحات بين رد العدوان ونشر الدعوة ، مجلة المجتمع ١١/٠٦/٢٠١٣

والهوان، ثم يحاول المتمرِّسون بالدهاء والجبروت أن يواروه الثرى، فدون ذلك ركوب الأهوال ! والناس إذا ظلموا البرهان واعتسفوا، فالحرب أجدى على الدنيا من السلم.

إن القتال فُرِض على المسلمين فرضًا، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين، واضطروا لخوضه دفاعًا عن أنفسهم وعقيدتهم، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. أترى المطرود من وطنه – لأنه مؤمن بربه – يعدُّ مهاجمًا إذا قاتل طارديه؟ إن الدهشة تملَّكتْني عندما رأيتُ كتَّابًا يصفون معركة بَدْر بأنها دليلٌ على أن الحرب في الإسلام هجومية! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة! إنه المنطق نفسه الذي اتُّبِع في وصف المقاتلين الفلسطينيين الذين اغتُصِبت أرضهم ودُورهم، وأُلْجِئوا إلى العراء! اعتبروا المقاتلين مُعْتَدِين على اليهود الآمنين الطيبين!

والحربُ مع الفرس بدأ شرُرها منذ مزَّق كِسْرى كتاب الرسول ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، لقد غضب هذا الكسرى غضبًا شديدًا، وكلف واليَه على جنوب الجزيرة أن يأتيَه بمحمد هذا! وكان الفرس ينظرون إلى العرب بازدراءٍ، ويحتلُّون أرض العراق، ومن ثَمَّ أنِفَ كسرى أن يحاول عربي هدايته، أفكان الفُرْس يأذنون لمسلم أن يجوس خلال ديارهم يدعو أحدًا إلى الله؟ السيف وحدَه هو الذي يحل تلك المشكلة، وماذا صنع السيف؟ قلَّم أظفار الطغاة، وتركهم بعد تجريدِهم من السلاح يفكِّرون في هدوء، ويتدبرون ما يَعرِض عليهم بعقل، لا إكراه على الدين، لا نعرف في تاريخ البشرية حاملَ سيفٍ أعفَّ من محمد، ما غضب لنفسه قط، ما غضب إلا لله وحده، وما استخدم السيف إلا في حينه وموضعه([٢٤٣]).

إن الشيء الذي يَغِيظ أعداءَ الحقيقة، هو أن الإسلام زوَّدتْه العناية بتعاليمَ تجعلُه صلب المكسر، لا يستطيع الباطل أن يجتاحه بسهولة، ولا أن ينال منه بيسرٍ، بل نَقْدِر أن نقول: لقد كان هذا الباطل يزرأ في عصرات الدنيا دون تهيُّب، ويُزعِج الآمنين في كل قطر وجل، فلما ظهر الإسلام، واشتبك الباطل معه – على عادته – عاد من هجومِه مقصومَ الظهر، مخضوبَ الكفِّ، فراح يجأر بالشكوى أن الإسلام دينُ سيفٍ، وأن الحكم في رحابه جعله صلبَ العودِ.

نعم هو كذلك، وما عيب السيف إذا ردَّ المعتدين؟ وما عيب الصلابة في الحق إذا استعصت على الفتَّانين؟ إن السؤال الذي يجب أن تتحدَّد الإجابة عنه هو: هل كان الحكم في الإسلام أساسًا لفتنة غير المسلمين عن دينهم؟ هل كانت الدولة في خدمة الدعوة من حيث استغلال أجهزتها للفتنة والإعنات([٢٤٤])؟ إن الإسلام دين الحرية والعزة والكرامة، وهو أقوى حافزٍ لإعزاز معتنقيه، ودفعهم إلى القيادة والتوجيه، وقد عَرَف الاستعمار قوَّة الإسلام، فلجأ إلى وسائل عديدة مادية، ومعنوية، وعسكرية، وعلمية؛ لإضعاف العقيدة الدينية في نفوس المسلمين، فيجب أن يعرف المسلمون أساليب الاستعمار ووسائله؛ ليتجنبوا الوقوع بين مخالبه.

"والإسلام مصدر الحريات، فبعض النظم السياسية تعطي الفردَ من الحريات ما يطغى به على مصلحة المجموع، وبعضها يُعطِي المجموع ما يطغى به على النشاط الفردي، ولكن الإسلام يعطي الفرد حقه، والجماعة حقوقَها، وينسِّق بينهما خير تنسيق، وهو بهذا يكفل جميع أنواع الحريات في تنظيم دقيق، يشمل حرية الملك، والعقيدة، والمسكن، والتعبير" ؛ فالإسلام دين السلام، ولو ذهب بعض المبشِّرين إلى أن الإسلام قام على العنف، وانتشر بالسيف، واعتمد على الإكراه ، فهو زعم خاطئ كل الخطأ؛

([٢٤٣]) – مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، ج ١ ص١١٣ – ١١٨، بتصرف، ط/ دار ثابت.
([٢٤٤]) – مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة، محمد الغزالي ص ١٢٩، ١٣٠، دار الكتب الإسلامية، عام ١٩٨١.

فقد قام الإسلام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ونادى بالسلام، واشتُقَّ اسمه من السلام، وجعل تحية أهل الإسلام السلام، وطالما نَهَى عن البغي والعدوان، وتوعَّد مرتكبَهما بأشدِّ أنو اع العقاب، بل إنه وضع نظامًا محكمًا للسلام بين الدول المختلفة، ولا يزال العقل البشري يحلم بالوصول إليه حتى الآن ([٢٤٥]).

إن الإسلام لا مانع عنده – ولا عند المسلمين – من مصالحَة المسيحيين، وبرِّهم، والإقساط إليهم، على أساس أننا نطلبُ من المسيحيين شيئًا لن يعز عليهم أداؤه؛ لئلاَّ يفكِّروا في محو الإسلام وفتنة أممِه، وأن يَدَعوا الناس أحرارًا في اعتناق مبادئه والعيش بها، ونحن – باسم الإسلام – نعطي النصرانية هذا الحق المماثل ،إننا لا نخاف الحرية أبدًا، ولا نرهب من تبادل الرأي مع غيرنا، لكن عندما نرى ديننا يضطهد، ودعاته يستباحون، وأهله يعدُّون خارجين على القانون، فمن العبث أن يُنتَظر منا سلام... السلام هنا معناه الموت، والذي يطالبنا بذلك مغفَّل، أسروا في ضمائركم أن الإسلام باطل ونبيه كاذب... أمَّا أن تحملوا السلاح لإثبات ذلك في واقع الحياة، ولسوقِ الشعوب إليه بالكره، فذلك أمر دونه الموت!

ثم لماذا إذَا استولى الرومان على بلد ما بالسيف يُعتبر هذا البلد ملكًا حلالاً لهم إلى الأبد، لا يجوز لغيرهم أن يتسرَّب إليه حاملَ دعوة وعارضَ أفكار فقط؟! لنضرب المثل بمصر:

لقد دخلها الرومان غزاةً فاتحين، وأرهقوا أهلها دينيًّا واقتصاديًّا طوال عهدهم، فإذا جاء العرب وقاتلوا هؤلاء الغُزَاة المحتلِّين، وأَجْلَوهم عن البلاد، ورسَّخوا مبادئ الحرية الدينية في البلد، الذي أذلَّه التعصب والاضطهاد.. امتلأت الدنيا بالصراخ العالي أن الإسلام غزا المسيحية في عقر دارها، وأنه انتشر بالسيف، ثم ينطلق القسيسون والرهبان يحضُّون على الأخذ بالثأر، وإيقاد الحروب الصليبية جيلاً بعد جيل، كلما خَبَت نارها أشعلوها من جديد! إن هذه السيرة النابية لا تلقي على الأرض السلام! ويجبُ أن نتعاون مع المسيحيين على إسدال الستار فوقها! قد يقال: إن الإسلام انتشر بالفعل في أقطار شتى كانت نصرانية من قبلُ! ونقول: نعم، انتشر بالاقتناع المحض من الداخلين فيه، والتسامح المطلق من الحاكمين به؛ فهل نلغي الحرية العقلية والدينية، حتى يستريح بعض الناس؟ وهل توصد الأبوابُ في وجوه قوم يرون أنهم هُدُوا للحق؟

إن التاريخ شاهد عدل على ذلك، يقول المؤرخ "لودفيج" – في كتابه "النيل... حياة نهر": ((استقبل أقباط مصر جيوش العرب والإسلام المنقِذين، لا استقبال الغُزَاة الفاتحين، وكان ترحيبُهم بالغًا حد الحماس، وما إن سقطت في يد العرب مدينتا "بلور" و"هليوبوليس، وغيرهما من المدن، حتى فزع بطريق الإسكندرية وقوَّاد بيزنطة إلى الإمبراطور البيزنطي، وأنهوا إليه ما وقع لمصر، فعمد الإمبراطور إلى المفاوضة، وفاوض "عمرو بن العاص" في أن يوليَه إمارة مصر، ويزوِّجه من ابنته شريطة اعتناق عمرو للنصرانية، وإلا فالحرب، ولكن "ابن العاص" استخفَّ بتهديد الإمبراطور ، ولم يحفلْ بعروضه ولا بإغرائه، ومضى في زحفه مؤيدًا من الشعب القبطي الذي أرهقه الحكمُ البيزنطي، وأرهقه الأشراف المنحلون، الذين كانت الكنيسة تؤيِّدهم في اضطهادهم الشعب واستنزاف أمواله لصالحها.

وسيَّر "عمرو بن العاص" جيشَه إلى الإسكندرية، ودخلها الجيش تحدُوه فرحةُ القبط وترحيبهم بمنقذيهم ومخلصيهم ، وأمام هذا الجيش العربي فرَّت الجيوش البيزنطية، وأبحرت قواتها إلى بيزنطة، ثم سلَّم البطريق مدينة الإسكندرية إلى العرب. ويقول "لودفيج": "إنه فيما عدا فرض الجزْيَة على المسيحي، فإن عمرًا لم يفرِّق في معاملته بين المسلمين والمسيحيين ، بل سوَّى بينهم

([٢٤٥]) – نفس المصدر ص ٢٥٤، ٢٥٥ ،٣٥٨.

وبين المسلمين مساواة شملتْ كل حق لهم، وكل واجب عليهم، بما في ذلك وظائف الدولة جميعها، وبغض النظر عن الجنس أو الدين... ". ثم ينتهي هذا المؤرخ إلى قوله: "إن الفتح العربي قد أقام – ولأول مرة في هذه المنطقة من العالم – نظامًا يمارس فيه رجلُ الشعب الحكمَ، لا عن طريق الوراثة، ولكن عن طريق الجدارة والكفاءة.

ويقول "جيروم وجان تاور": "إن فضيلة التسامح – التي كانت أزهى السمات الخلقية في العرب، والتي ندر أن تتوافر لغيرهم في كافة الأزمان – هذه السجيَّة الكريمة قد أفادت العرب كثيرًا، ولم يكن ليفيدَهم فائدتَها ذكاؤهم الفطري، وذوقهم الفني ونزعاتهم الأخرى، لم تكن هذه الخصائص التي امتاز بها العرب لتنفعَهم وترفعَهم إلى مكانهم المرموق، لو لم يتميَّزوا بفضيلة التسامح، وتنطبع في أذهان القوم صور قوية للتسامح العربي. لقد ترك الإسلام لمختلف الشعوب ديانتها ونظمها وتقاليدها، فكانت مؤتمرات الأساقفة تُعقَد بكامل حريتها على الأراضي الإسلامية... وما من شكٍّ في أن ذلك التسامح لم يصدرْ إلا عن روح عالية، شعَّ منها هذا الأدب الرفيع، وتلك المجاملة التي لا تصنُّع ولا تعمُّد فيها، وقد نقل العرب والمسلمون إلى الغرب المبادئ الأصلية للمروءة والشهامة والفروسية... فأصبحت تلك المبادئ الإنسانية هي قانونَ المحارب الذي يستهدف حماية حقوق البشر... إن تلك المبادئ الإنسانية نبتت في الشرق، ولعبت فيه دورًا كبيرًا، إن تلك المبادئ – التي تغنَّى بها الغرب فيما بعد مزهوًّا فخورًا – لم تكن إلا خلائقَ العرب، أخذها الغرب عنهم في حروبه معهم.

وإن طبيعة التسامح في الخلق العربي لم تتخلَّ عنه حتى في مواقفه من الحملات التبشيرية وجنودها المبشرين، وفي الوقت الذي كان فيه جمهور الغرب يفتك بكل مسلم يقع في أيديهم، بل يعتبر العطف على المسلمين جريمة تستوجب القتل، في ذلك الوقت بالذات يروي التاريخ الكنسي أن سلطانَ مصر "الملك الكامل" استقبل ببشاشة وسماحة القس "سان فرنسوا دي أسيسز"، ورفاقه من الرهبان الفرنسيسكان، وسمح لهم بأن يجادلوه في الدين كيفما شاؤوا، وأفضى عليهم حمايتَه ورعايته، وأَذِن لهم بالدعوة إلى دينهم علنًا، ولسنا ندري كيف يسيغ لرجال الكنيسة التوفيقُ بين أقوالهم هذه وبين اتهام المسلمين بالتعصب، اللهم إلا إذا كان المقصودُ هو التشهيرَ بالمسلمين، وإضعاف عزائمهم بشتى الأكاذيب، ولا عجب إذًا أن ينتهي الأمر برجال الكنيسة إلى الاعتراف التالي: "إن الشعب الإسلامي متمرِّد، ولا يتيح عملاً إيجابيًّا مباشرًا للبعثات التبشيرية الكاثوليكية، وهذا لغز لا يمكن الوصول إلى حله، وإن سره لا يعلمه غير الله وحدَه، ذلك ما قاله الأسقف "أوربان ماري يونيكاوا" في كتابه عن نشاط الكنيسة والطوائف المسيحية في الشرق.

ويقول الأسقف "دي مسنيل": إن الأسباب العميقة لانتشار الإسلام وثباته المذهل ستظلُّ أبدًا بالنسبة لنا مشكلة لا تجد الحل ([٢٤٦]). ويقول غيره: "ولكن المعجزة الكبرى التي تحقَّقت على يدِ ذلك الجيل، أن الذين لم يُكرهوا على اعتناقِ العقيدة الإسلامية قد دخلوا في الإسلام من ذوات أنفسهم، وأقبلوا عليه إقبالاً، وفَرِحوا بمجيء المسلمين إليهم، وأحبوهم، وصاروا بدَوْرهم جزءًا من هذه الأمة، وجندًا من جنود الإسلام... كما أصبحوا كذلك يتكلَّمون بلغة العقيدة الجديدة، ونسي كثيرٌ منهم ما كان لهم من لغات!

بل إن الذين بقوا على دينهم من النصارى في مصر والشام وغيرها، نسوا لغاتهم الأصلية تمامًا، ولم يَعُدْ لهم لسانٌ إلا العربية، على الرغم من أنهم لم يعتنقوا هذا الدين، ولا شك أن ذلك الأمر لم يكن ليتحقَّق لو كانت الأمة الفاتحة أمةَ غلبةٍ حربيةٍ فحسب، أو أمة ذات نزعة توسعية فحسب، أو كانت تبغي العلو والفساد في الأرض؛ ككل التجمعات الكبرى في جاهلية

([٢٤٦])- معركة المصحف في العالم الإسلامي (ص ١٥٢ – ١٥٦) بتصرف.

التاريخ! إنما اعتنقتِ البلادُ المفتوحة عقيدةَ الأمة الفاتحة وتكلَّمت لغتها؛ لأنها رأتْ فيها نموذجًا غير مكرَّر في التاريخ من قبل، نموذج "أمة العقيدة"، التي تفتح الأرض لا لثروة التوسع والغلبة، ولكن لتنشرَ النور، وتنشر العدل، وتنشر الأمن، وتنشر القيم الرفيعة التي تحيا بها القلوب، وتتفتح بها الأبصار" ([٢٤٧]).

تزوير التاريخ: أحيانًا أرى بعيني وأسمع بأذني كيف يزوَّر التاريخ، وتُخفَى الحقيقة، ويخدع الناس! فأقول: إن الأجيال المقبِلة معذورةٌ عندما تضلُّ السبيل، وتتبع الأباطيل، ألا يطول عجب الإنسان عندما يسمع ساسةَ الغرب الكبار يقولون للعالم أجمع: نحن نرفض الإرهاب الدولي، وسوف نقاومه بكل سلاح! يقولون ذلك للفدائيين الذين يدافعون عن أرضهم وعِرْضهم ، والذين يقاومون بالسلاح التافه أفتكَ أسلحة العالم، والذين تلتفُّ حولهم مؤامرات الثعالب والذئاب وخيانات الأقارب والأباعد، فلا يلتقطون أنفاسهم إلا بشِقِّ النفس، هؤلاء العرب المدحورون يُوصَفون بأنهم إرهابيون! ومَن يصفهم بذلك؟! ساسة أوروبا وأمريكا، الذين صنعوا المأساة كلها، ولا يزالون يصنعونها، والذين استقدموا اليهود إلى فلسطين؛ لينبذوا أهلها بالعراء، ويحتلوا هم البيوت التي أقفرت من أصحابها، والذين يُصِرُّون على إمداد اليهود المغِيرين بالسلاح؛ حتى يكونوا أقوى من الدول العربية كلها، ولو صارحوا بطواياهم لقالوا: حتى يكونوا أقوى من مسلمي العالم أجمع. هؤلاء المدحورون المحرجون إرهابيون! أما قتلتهم ومغتصبو أرضهم، فهم مساكين يحتاجون إلى ضمانات مجلس الأمن، وحماية الدول الكبرى.. والصيحات التي تدوي كالرعد هنا وهناك؛ هي: قاوموا الإباء العربي الرافض للضياع، إنه إرهاب كريه، إنه إرهاب دولي! إن التضحية التي تقاوم الجزَّارين يجب أن تتكاتف ضدها سكاكين المعتدين ([٢٤٨])!

العصبية الأوربية: خصومة غير مشرفة: عالمية الإسلام ليستْ موضع جدالٍ، وقد نهض السلف الأوَّل بواجبه في نقل الدين من الجزيرة العربية إلى ما وراءها من بر وبحر، وعَرَفت دولة الإسلام الأولى أنها أمةٌ ذات رسالة كبرى، فكرَّست قُوَاها المادية والأدبية لإبلاغها.. وأصحاب محمد ﷺ كانوا امتدادًا لنوره وطهره، وشجاعته وجهاده! وقد زوَّدهم القرب منه بقدر هائل من الروحانية والتضحية، وطلب الآخرة، والترفع عن الدنيا ومغانمها، فلما اصطدموا بالضلال الجاثم على صدر الأرض من قرونٍ، استطاعوا فلَّ حدِّه، وكسرَ قيدِه، وإطلاق الجماهير العاتية تعبد ربها كيف تشاء.

وما كان في أصحاب محمد ﷺ مَن يقدر على هذه المهمة الصعبة! سيقول السفهاء مِن الناس: خرجوا من جزيرتهم مهاجمين، وما كان هذا يجوز! ونقول: مَن الذين هاجمهم أصحاب محمد ﷺ في حياة محمد نفسه صلوات الله عليه؟ قاتلوا الرومان في مؤتة وتبوك، فمَن الذي جاء بالرومان إلى مؤتة وتبوك، وهي بلاد عربية؟ إن الرومان أوربيون احتلوا سورية ومصر وغيرها، وبسطوا سطوتهم على شمالي الحجاز، فكيف يعتبر اجتياحهم لأراضي الآخرين دفاعًا، وإخراجهم من هذه الأراضي عدوانًا؟!

إن دراسة التاريخ بهذا التبجح دَيْدَن الأوروبيين، وهم الآن ماضون مع طبيعتِهم في عدِّ العرب الذين يقاتلون "إسرائيل" إرهابيين، مهاجمين، مُعتَدِين! فإذا قلتَ لهم: إن هؤلاء العرب هم أصحاب الأرض، وسكَّان مُدُنها وقُرَاها من قرون سحيقة، وإن هؤلاء اليهود طارئون من أيام قَدِموا من بولندا، وروسيا، وإنجلترا، وأمريكا، ولا حقَّ لهم هنا، قالوا في تبجح: ولو.. أهناك شيءٌ غير القوَّة يمحو هذا الطاغوت؟

([٢٤٧])- واقعنا المعاصر، محمد قطب، (ص ٦١ – ٦٣) بتصرف.
([٢٤٨]) – الحق المر، الشيخ محمد الغزالي (ص٥١،٥٠) بتصرف.

إن القتال الذي أعلنه أصحاب محمد ﷺ على الرومان والفرس، هو أشرف قتال سجَّله التاريخ، وهو وحده الذي أدَّب المتكبرين وأنقذ المستضعفين، وليت هذا القتال – ببواعثه ونتائجه – يتكرَّر في الدنيا، ليحقَّ الحق ويبطل الباطل، أيعني ذلك أن القتال وظيفة النبيين والحواريين، أو أنه حرفة أصحاب محمد ﷺ في العالمين؟ كلا بداهة؛ فقد شرح الله الغايةَ من رسالة محمد ﷺ فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وشرح عمل المسلمين بين الناس، أو النظام الذي يقيمونه، فقال: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالدولة الإسلامية تفعل الخير وتدعو إليه، وتعلم الحقيقة وتنشر أدلَّتها، وتأمر بالمعروف في الداخل والخارج، وتنهى عن المنكر كذلك، وهي مع السلام ضد العدوان، ومع العدل ضد الطغيان، ومع الإنسانية ضد الحيوانية، وعندما قاتلتْ كانت محكومة بقول الله لها: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. والحروب الأولى في تاريخنا تمحَّضت لله ومَشَت في سبيله، وفوجئت الشعوب السجينة داخل المصيدة الرومانية بقومٍ اكتفوا بتقليم أظافر "الاستعمار" القديم، ثم ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]. واختفى كيد الرومان، وسلبهم ونهبهم، وارتفع نداء "الله أكبر"؛ فعلم الناس أنهم أحرار، وأن الأرباب السابقين سقطوا... فشرعوا يدخلون في الإسلام أفواجًا أفواجًا، وإذا شمال إفريقية كلها – وعرب آسيا وشرقها، حتى الهند والصين – يتدفَّقون على الدين الجديد.

"إن الفتوح العقلية والروحية، كانت آلقَ شعاعًا، وأقوى اندفاعًا من النجاح العسكري، وما فعله الأصحاب والأتباع اتَّسم بطابع الخلود؛ فالأقطار التي حرَّروها هي كهف الإسلام إلى اليوم، وهي التي تشتبك في كفاح ثقافي وسياسي، مع الاستعمار الجديد، ومع فداحة ما تحملت فهي ترجو الآخرة وترقب النصر الحاكم" ([٢٤٩]). والذي نلحظه أنه مع انصرام عهد الراشدين لم يُحسِن الحكام الرسميون في الأغلب العملَ للدعوة الإسلامية، ولم ينمُّوا أجهزتها، أو يلبُّوا مطالبها، وتركوا للكتل الشعبية أن تقوم هي بهذا العبء كله أو بعضه، وقد يعاونونها أو يهادنونها، أما أن يرسموا السياسة ويتابعوا التنفيذ، فلا!

إن قومًا يعترضون على الإسلام في جهاده، وينسون – مثلاً – أن الهنودَ قد يذبحون عشرات ومئات المسلمين، لو أن واحدًا منهم ذبح بقرة! هل يُجدِي مع هؤلاء إلا السيف؟ وهل نسيتم موقفَ أهل الكتاب المشحون بالبغضاء؟ إن كراهيتهم للإسلام ترشحُ من مَعِينٍ لا يَغِيض، وجمهرتهم تودُّ لو خُسِف بنا، وخَلَت الأرض منا، هؤلاء الصليبيون ما إن تمكنوا قديمًا من دخول "بيت المقدس" حتى ذبحوا سبعين ألف مسلم، وحديثًا احتموا بالجيش اليهودي، وقتلوا بأفحش الأساليب أربعةَ آلافٍ في مخيمات الفلسطينيين بصبرا وشاتيلا.

ولم تتحرَّر الجزائر من أرجاسِهم إلا بعد أن ضحَّت بمليون شهيد، كي تستعيدَ المساجد التي حوَّلها الفرنسيون إلى كنائس ، وتستنقذ جيلاً من البشر سُرِقت عقائده ومعالمه جهرةً واغتيالاً.. ولقد اشترك "المعمرون" الفرنسيون، ورجال الشرطة والجيش في قتل قريب من أربعين ألف مسلم في أعقاب الحرب العالمية الثانية في مدينة "سطيف"؛ لأن الأهالي نادوا بالاستقلال، وأمَّلوا خيرًا في مواثيق هيئة الأمم، ثم جاء دور اليهود ليبيدوا شعبًا، وينشئوا على أنقاضه دولة لهم، تحت سمع المؤسسات العالمية وبصرها، وبين موافقتها ومعاونتها. إن القرآن – في معرضِ التعجيب والإنكار – يتساءل: ﴿ أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ

([٢٤٩]) – سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي (ص ٣١ – ٣٢) ط/ دار الصحوة، طبعة أولى سنة (١٩٨٥م – ١٤٠٥ هـ).

يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٤ – ٤٥].
فما اللوم الذي يرادُ توجيهه لخلفاء ردُّوا الوحوش عن حماهم، أو كسروا شوكتَهم قبل أن يبدؤوا العدوان؟ ([٢٥٠]).

٤ – الحرب في الكتاب المقدس وانتشار المسيحية أيهما انتشر بحد السيف ؟ !

الحرب في العهد القديم:

وردت أسباب الحرب في ست وثلاثين آية تقع في ثمانية أسفار من أسفار العهد القديم هي: (التكوين . العدد . التثنية . يوشع . القضاة . صموئيل الأول . الملوك الثاني . حزقيال) .

(١) جاء في حزقيال الإصحاح (٢١:١-٥): " وكان إلى كلام الرب قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو أورشليم وتكلم على المقادس وتنبأ على أرض إسرائيل وقل لأرض إسرائيل هكذا قال الرب هأنذا عليك وأستل سيفي من غمده فأقطع منه الصديق والشرير من حيث إني أقطع منك الصديق والشرير فلذلك يخرج سيفي من غمده على كل بشر من الجنوب إلى الشمال فيعلم كل بشر أني أنا الرب سللت سيفي من غمده لا يرجع أيضاً " .

(٢) وجاء في سفر يوشع الإصحاح (٢٣:٣-٥) " انظروا: قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم من الأردن وجميع الشعوب التي قرضتها والبحر العظيم نحو غروب الشمس والرب إلهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلمكم الرب إلهكم " .

(٣) وجاء في سفر القضاة (١: ٢٧) " وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوا بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار".

(٤) وفى سفر القضاة (١٨: ٣٠) " فأما هم فقد أخذوا ما صنع ميخاً والكاهن الذى له وجاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن فضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار ولم يكن مَنْ ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون " .

(٥) وفى التكوين الإصحاح (٣٤: ٢٥-٢٩) " فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن ابنى يعقوب شمعون ولاوي أخوى دينة أخذ كل واحد منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن!! وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف لأنهم بخسوا أختهم، غنمهم وبقرهم وكل ما في المدينة وما فى الحقل أخذوه وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت " .

(٦) وفى سفر العدد (٢١: ٣٤-٣٥) : "فقال الرب لموسى لا تخف منه لأنى قد دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الساكن في حبشون فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق لهم شارد وملكوا أرضه"

(٧) وفى سفر العدد الإصحاح (٣٣: ٥٠-٥٣) : تطالعنا التوراة، أن الله قد أمر موسى . عليه السلام . أن يشن حرباً على أقوام قد عبدوا غير الله . سبحانه وتعالى .: " وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلا: " كلم بنى إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم " .

(٨) وفي سفر اشعياء (١٣:١):"وتحطم اطفالهم امام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نسائهم

([٢٥٠]) – سر تأخر العرب ص ٣٣، ٣٤ بتصرف. راجع مقالة للسيد إبراهيم أحمد على شبكة الالوكة بتاريخ : ٢٠١٤/٢/٩ ميلادي – ١٤٣٥/٤/٨ هجري

(٩) وفي هوشع (١٣: ١٦) : "تجازى السامرة لأنها قد تمردت على الهها. بالسيف يسقطون. تحطم اطفالهم والحوامل تشقّ " .

(١٠) وفي سفر الخروج (٣٢: ٢٧): "فقال لهم هكذا قال الرب اله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومرّوا وارجعوا من باب الى باب في المحلّة واقتلوا كل واحد اخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه".

(١١) وفي سفر العدد (٢٥: ٥): " فقال موسى لقضاة اسرائيل اقتلوا كل واحد قومه المتعلّقين ببعل فغور ".

(١٢) وفي سفر العدد (٣١: ١٧): " الآن اقتلوا كل ذكر من الاطفال. وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها. ١٨ لكن جميع الاطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكرا بقوهنّ لكم حيّات.".

هذه بعض من حروب بنى إسرائيل التي سجلتها نصوص كتبهم وأسفارهم، فمفهوم الحرب والقتال، ليس مفهوماً كريهاً من وجهة النظر التوراتية، وكأنها حروب مستمدة من الشريعة الدينية التوراتية، وهى كانت دائما تتم بمباركة الرب ومعونته وكأن الرب . حسب تعبير التوراة . قد استل سيفه من غمده فلا يرجع (حزقيال (٢١ :٥)) .

الحرب في العهد الجديد: الإنجيل لم يهمل الكلام عن الحروب بالكلية، بل جاء نص واضح صريح، لا يحتمل التأويل ولا التحريف يقرر أن المسيحية على الرغم من وداعتها وسماحتها التي تمثلت في النص الشهير " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر " . إلا أنها تشير إلى أن السيد المسيح . عليه السلام . قد يحمل السيف ويخوض غمار القتال إذا دعته الظروف لذلك؛ فجاء في الإنجيل على لسان السيد المسيح: " لا تظنوا أنى جئت لأرسي سلاماً على الأرض، ما جئت لأرسي سلاماً، بل سيفاً، فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها والكنة مع حماتها وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته " (متى (١٠ : ٣٤-٣٦)) .ولعلنا نلاحظ التشابه الكبير بين هذه المقولة وحديث الرسول ﷺ : [بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده] ([٢٥١]). في لوقا(١٩: ٢٧) أَمَّا أَعْدَائِي، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأْتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَاذْبَحُوهُمْ قُدَّامِي... فيسوع نار آكلة وليس إله محبة (عبرانيين ١٢: ٢٩) لأَنَّ إِلهَنَا نَارٌ آكِلَةٌ

مما سبق يتبين لنا واضحاً وجليا أن الحرب والقتال سنة كونية سرت في الأمم جميعاً، ولم نر في تاريخ الأمم أمة خلت من حروب وقتال، ورأينا من استعراض الكتب المقدسة . التوراة والإنجيل . أنه سنة شرعية لم تخل شريعة من الشرائع السماوية السابقة على الإسلام من تقريره والقيام به كما مر. لقد كان هذا القدر كافيا في إثبات أن محمداً ﷺ سائر على سنن من سبقه من الأنبياء، وأن الجهاد لتقرير الحق والعدل مما يمدح به الإسلام؛ لا مما به يشان، وأن ما هو جواب لهم في تبرير هذه الحروب وسفك الدماء كان جواباً لنا في مشروعية ما قام به النبي من القتال والجهاد.

يقول هربرت فيشر ([٢٥٢]) : "إن المؤرخ سوف يلاحظ أن تحوُّل أوروبا إلى المسيحية كان مرجعُه بالدرجة الأولى إلى الحساب المادي، أو الضغط السياسي، وإذا استثنينا أفرادًا وجماعات من مختلف الشعوب والأجناس عبر قرون طويلة قَبِلت النصرانية عن قناعات شخصية، فمِمَّا لا شك فيه أن تحوُّل الجموع الكبيرة من الأوروبيين إلى النصرانية قد تم تحت رعبِ السيف ، وطلبًا لمكاسب مادية، لا علاقة لها بمملكة السماء وعطاياها الأخروية، ويكفي التذكرة بما فعله "شارلمان" حين قَتَل في يوم واحد

([٢٥١]) – رواه أحمد ح(٥١١٤) وقال المحقق اسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه .

([٢٥٢]) – H .A. Fisher : a history of Europe the Fontana library ,London 1964 pp 199-200 ،
وراجع أحمد عبد الوهاب ، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر فصل المسيحية والسيف (ص ١٠١) وما بعدها .مكتبة وهبة ط١/١٩٨١ .

٤٥٠٠ إنسان رفضوا التنصر، ثم ما فَعَلتْه البابوية حين فوَّضت فرسانَها بغزوِ شعوب البلطيق، والاستيلاء على أراضيها ثمن تقديم النصرانية إليها. لقد كان السيف هو الوسيلةَ الوحيدة لتعاملِ الصليبية مع نفسها، كما حدث في الحروب الصليبية المحلية بين مختلف القوى الصليبية الأوروبية، كما كان السيف هو الوسيلةَ الرئيسية مع الشعوب الإسلامية ".

لقد كان السيف والعنف وسائل رئيسية لتنصير الشعوب الأوروبية ،وكانت الأطماع السياسية والمكاسب المادية دوافع رئيسية أغرت الملوك والحكام بالسير في هذا السبيل ، من أجل ذلك لم يقتصر الأمر على تنصير الوثنيين لكنه تعداه الى تنصير اليهود المؤمنين بالله والتوراة والأسفار " فرغبة في توحيد الإمبراطورية بدأ ليو الثالث تحويل اليهود إلى المسيحية بالقوة لكن ذلك (كما يقول ستيفن نيل) يصعب اعتباره عملا تبشيريا [٢٥٣]" ،فيذكر المؤرِّخون أنَّ الذين قتلتهم (النصرانية) في انتشارها في أوروبا يتراوح عددُهم بين سبعة ملايين كحد أدنى، وخمسة عشر مليونًا كحد أعلى، وفظاعة هذا العدد تتضح عندما نتذكَّر أنَّ عدد سكان أوروبا آنذاك كان ضئيلاً.

تقول ملكة إنجلترا (الكاثوليكية) في القرن السادس عشر في كتاب "بُناة الإنسانية": بما أنَّ أرواحَ الكَفَرة سوف تُحرق في جهنم أبدًا، فليس هناك أكثر شرعية من تقليد الانتقام الإلهي بإحراقهم على الأرض ، وشارلمان سيد أوروبا فَرَض النصرانية بحد السَّيف، وتقول وثائقهم (التنصيرية): إنَّه قتل في يوم واحد ٤٥٠٠ وثنيًّا رفضوا التعميد والتحوُّل للنصرانية، وكانت المعاهدات بينه وبينهم تقضي بالتنصير، وإلا فالقتل هو البديل. وبعد شارلمان سحبت الكنيسة بعضًا من طوائف الفرسان الصليبية من فلسطين – أيام الحروب الصليبية – ليساعدوا في تنصير شُعوب بحر البلطيق بحد السيف، ولقد استمرُّوا في العمل هناك طيلة ٥٠ عامًا نظير ثَمن حدَّدته الكنيسة، وهو الاستيلاء على أراضي أولئك الوثنيين ثَمنًا لإعطائهم المسيحية. ([٢٥٤])

والملك أولاف ذبح كلَّ مَن رفض اعتناق النصرانية في النرويج، وقطع أيديهم وأرجلَهم ونفاهم وشردهم، حتى انفردت المسيحية بالبلاد، وفي الجبل الأسود بالبلقان قاد الأسقف الحاكم دانيال بيتر وفتش عمليةَ ذبحِ غير النَّصارى ليلة عيد الميلاد، وفي الحبشة قضى الملك سيف أرعد (١٣٤٢ – ١٣٧٠م) بإعدام كلِّ مَن أبى الدخول في النصرانية أو نَفيهم من البلاد، ثم نَجد أن النصارى – وليس المسلمون – هم مَن أبادوا الهنود الحُمْر في أمريكا، واقتلعوا الشَّعب الفلسطيني من أرضه؛ لتسليمها إلى أعداء المسيح ومحمد – عليهما السلام – على السواء، وهم الذين أشعلوا الحروب العالميَّة، التي قُتِل في أولاها عَشَرَةُ ملايين، وفي أخراها حوالي ٧٠ مليونًا ([٢٥٥]).

وفي حصار بيت المقدس طلب أهلُه من قائد الحملة (طنكرد) الأمانَ على أنفسهم وأموالهم، فأعطاهم الأمان على أن يلجؤوا إلى المسجد الأقصى رافعين رايةَ الأمان، فامتلأ المسجدُ الأقصى بالشيوخ والأطفال والنِّساء، وذُبِحوا كالنعاج وسالت دماؤهم في المسجد، حتى ارتفعت الدِّماء إلى رُكبة الفارس، وعجت شوارعُنا بالجماجم المحطَّمة والأذرع والأرجل المقطعة والأجسام الممزقة، ويذكر المؤرخون أنَّ الذين قتلوا في داخل المسجد الأقصى سبعين ألفًا فقط، فأين وصايا المسيح التي يدَّعونها ويتشدَّقون بها، ولا ينكر مؤرخو الفرنج هذه الفضائحَ، التي تَمَّت باسم يسوع؟!

([٢٥٣]) – روبرت فيشر ، المرجع السابق ص :٨٣ ، وحقيقة التبشير أحمد عبد الوهاب ص ١٠٣ . ط١/١٩٨١ .
([٢٥٤]) – "مناظرة بين الإسلام والنصرانية"، ج١، ص ٢٢٧.
([٢٥٥]) – شبهات النصارى حول الإسلام: ج١، ص (١٩٨–٢٠٠)

روى المؤرخ العلامة ابن الأثير عن دخول النَّصارى القدس في حروب الفرنجة: "دخل ملك الفرنج القدس نَهارَ يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف ولبث الفرنج في البَلدة أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعةٌ من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثةَ أيام، وقَتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعُبَّادهم، وزُهَّادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف" ([٢٥٦]). ووصف ستيفان رنسيمان ما حدث في القدس يومها: "وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم بابَ المسجد ثُلَّة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاَّجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل في الضُّحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدِّماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أَثَرًا عميقًا في جميع العالم، وليس معروفًا بالضبط عددُ ضحاياها، غير أنَّها أدَّت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إنَّ كثيرًا من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث" .([٢٥٧])

ويذكر الكثيرون ما فعله ريتشارد قلب الأسد في حملة الفرنجة الثَّالثة ([٢٥٨])، عند احتلاله لعكَّا بأسرى المسلمين، فقد ذبح ٢٧٠٠ أسير من المسلمين، وذبح زوجاتِ وأطفالَ الأسرى إلى جوارهم، باسم يسوع! لكنك إذا التفتَّ إلى المسلمين بعد ٩٠ سنة من هذه المجزرة: فتح صلاحُ الدين بيتَ المقدس، فماذا فعل؟ لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي بذل لهم الأمانَ على أنفسهم وأموالهم. ومع ما فعله النصارى في القدس، فرحمةُ الإسلام ومسامحته حتى مع هؤلاء، ووصف المؤرخون ما حدث في اليوم الذي دخل فيه صلاحُ الدين الأيوبي – رضي الله عنه – إلى القدس فاتحًا، لم ينتقم أو يقتُل أو يذبح، بل اشتهر المسلمون الظافرون في الواقع بالاستقامة و"الإنسانية"، فبينما كان النَّصارى منذ عهد يَخوضون في دماء ضحاياهم المسلمين، لم تتعرض أيُّ دار من دور بيت المقدس للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مَكروه؛ إذ صار رجال الشرطة يطوفون بالشوارع والأبواب؛ تنفيذًا لأمر صلاح الدين؛ لمنع كل اعتداء يَحتمل وُقوعه على النصارى، وقد تأثر الملك العادل لمنظر بُؤس الأسرى، فطلب من أخيه صلاح الدين إطلاقَ سراح ألف أسير، فوهبهم له، فأطلق العادل سراحَهم على الفور، وأعلن صلاحُ الدين أنَّه سيطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز.

وأقبل نساء النَّصارى وقد امتلأت عيونُهن بالدُّموع، فسألْنَ صلاحَ الدين: أين يكون مصيرهن، بعد أنْ لَقِيَ أزواجُهن أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا في الأَسْر؟ فأجاب صلاح الدين بأن وعد بإطلاقِ سراح كلِّ مَن في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا، كلٌّ بحسب حالته، فكانت رحمته وعطفه نقيضَ أفعال مَن قاتل باسم الصليب، ولم يقع في جهاد المسلمين لأعدائهم وفتوحاتِهم مثل فظائع النصارى، فما كانوا يقتلون النِّساء، ولا الأطفال، ولا الدهماء من الناس، كما في وصية الخليفة الصدِّيق لأسامة بن زيد وجنده: "لا تخونوا، ولا تَغْدِروا، ولا تغلُّوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعزقوا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شَجَرةً مُثمرة، ولا تذبَحوا شاةً، ولا بقرة، ولا بعيرًا، إلاَّ للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسَهم في الصَّوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له"، فنبئونا من تاريخكم بأَثَارَة من هذا.

إنَّ سبب انتشار النصرانية هو السيف وهي عقيدة راسخة في الفاتيكان ([٢٥٩])، الذي سَلَّطته على الشُّعوب المختلفة، وقد بدأ سيفُ القهر عندما تنصَّر الإمبراطور قسطنطين الوَثني في بدايات القرن الميلادي الرابع، وقال له بطريرك القسطنطينيَّة: "أعطني

([٢٥٦]) – الكامل: ابن الأثير. ج ٨، ص(١٨٩–١٩٠).
([٢٥٧]) – تاريخ الحروب الصليبية: ستيفان رنسيمان. ج١، ص(٤٠٤–٤٠٦).
([٢٥٨]) – "ماهية الحروب الصليبية"، قاسم عبده قاسم، ص(١٢١–١٢٢).
([٢٥٩]) – وهذي عقيدة راسخة في الفاتيكان؛ "الفاتيكان والإسلام"، زينب عبدالعزيز، ص١٧.

الدُّنيا وقد تطهَّرت من الملحدين، أمنحك نعيم الملكوت المقيم"، ويذكر القس مريك في كتابه "كشف الآثار" أنَّ قسطنطين أمر بقطع آذان اليهود، وأَمَر بإجلائهم إلى أقاليمَ مُختلفة.

وفي نهاية القرن الرابع وَضَع الإمبراطور تيودسيوس ستًّا وثلاثين مادة لمقاومة اليهودية والهرقطة. وفي عام ٣٧٩م أمر الإمبراطور فالنتيان الثاني بتنصير كلِّ رعايا الدولة الرُّومية، وقتل كل من لم يتنصر، واعترف طامس نيوتن بقتل أكثر من سبعين ألفًا. ويقول غوستاف لوبون: "أكرهت مصر على انتحال النصرانيَّة، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط، الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي".

وفي القرن الخامس كان القديسُ أوغسطين يقول بأنَّ عقاب الملحدين من علامات الرِّفق بهم حتى يخلصوا، وبَرَّر قسوتَه على الذين رفضوا النصرانية بما ذكرته التَّوراة عن فعل يسوع وحزقيال بأعداء بني إسرائيل الوثنيِّين، واستمر القتلُ والقهر لمن رفض النصرانيَّة في ممالك أوروبا المختلفة، ومنها مملكة إسبانيا؛ حيث خيَّروا الناس بين النصرانية أو السجن أو الجلاء من إسبانيا، وذكر القس مريك أنَّه قد خرج من إسبانيا ما لا يقل عن مائة وسبعين ألفًا، وفي القرن الثامن أعيد فرض النصرانيَّة في شروط السلام والأمان التي تعطى للقبائل المهزومة.

وقريبًا من ذلك العُنف كان في فرنسا، فقد فرض الملك شارلمان النصرانيَّة بحدِّ السيف على قوميات السكسون، وظل يحاربهم ٣٣ سنة كلها عنف ووحشية وهمجية حتى أخضعهم وحولهم قسرا ألى الديانة المسيحية كما تطلّب ٨ رحلات متتابعة حتى هدم الأفاريين الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكدسة أنها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثروة إلى شاهق الفيض والوفرة ،لقد فرض على السكسونيين الوثنيين النصرانية بالسيف ولما ضعفوا اعتنقوا المسيحية وخضعوا لحكم الفرنجة وكان فرض المسحية على السكسون على يد القديس ليودجر وويليهارد([٢٦٠]).

في الدنمارك نشر الملك كنوت المسيحية في ممتلكاته بالقوة والإرهاب وأباد من لم يتنصر ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن أشتبك مع الممالك المتبربرة في حروب طاحنة مدفوعا بما كان يضطرم في نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة([٢٦١]) ، ومثله فعل الملك أولاف (٩٩٥م) في النرويج فقد ذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية أو تقطيع أيديهم وأرجلهم أو نفيهم وتشريدهم وبهذه الوسائل تم نشر المسيحية في فيكن القسم الجنوبي من النروج بأسرها ([٢٦٢])، وجماعة من "إخوان السيف" في بروسيا، وأمر ملك روسيا فلاديمير (٩٨٨م) بفرض النصرانيَّة على أتباع مملكته ، ويضرب به المثل في الوحشية والشهوانية واقتنى من النسوة ثلاثة آلاف وخمسمائة لكن هذا لم يمنع من تسجيله قديسا في عداد القديسين بالكنيسة الأرثوذكسية لأن الرجل الذي جعل من كييف مدينة مسيحية وجعل من الروسيين شعبا على دين المسيح زعيم بغفران ذنوبه ([٢٦٣]) ، ولقد سمل باسيليوس الثاني ناشر النصرانية في روسيا أعين (١٥)ألف من أسرى البلغار إلا مائة وخمسين منهم أبقى لكل منهم عينا واحدة ليقودوا إخوانهم في عودتهم لبلادهم ([٢٦٤]).

([٢٦٠]) – راجع العدد الثامن من موسوعة المعرفة التي نشرتها شركة تريديسكيم " جنيف " ص ١٢٢ التي صدرت بالعربية ١٩٧١ و تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، فيشر ، ص ٦١ . والدعوة إلى الإسلام ص ٣٠ والأبطال لتوماس كارليل ص ٧٦ .

([٢٦١]) – الدعوة إلى الإسلام ص ٣٠.

([٢٦٢]) – الدعوة إلى الإسلام ص ٣٢ .

([٢٦٣]) – تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، فيشر ص ٤٠٥ .

([٢٦٤]) – قدري قلعجي في صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب عن الإسلام في قفص الإتهام ص ١١٤.

يقول المؤرخ بريفولت: إنَّ عددَ مَن قتلتهم المسيحية في انتشارها في أوروبا يتراوح بين ٧ – ١٥ مليونًا، ويلفت الدكتور شلبي النظرَ إلى أن العدد هائل بالنسبة لعدد سكان أوروبا حينذاك. واستعرض الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الاضطهاد الذي رافق انتشار المسيحية في عهد شارلمان ومذابحه للساكسون والنورمانديين وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنيين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية بعد هذا كله أتى إلى ما صنعه المبشرون الجوزيت في القرن السابع عشر من عنف وإرهاب لنشر المسيحية في الهند التي لاقت منهم الأهوال ([٢٦٥]).

لقد ارتكب المبشرون الذين رافقوا الكشوف الجغرافية أبشع الاعمال وما تندى له جبين الإنسانية من فظائع فماذا عمل مكتشفوا أمريكا والمبشرون الذين رافقوا الرحلات بشعب أمريكا الاصلي إبادة تامة بالملايين وبكل أنواع الأسلحة وبكافة الطرق الدنيئة وهو نفسه نصيب حضارة الانتيل وحضارة المايا في جنوب المكسيك وحضارة الازتيك في وسطها والأنكا في البيرو وقد نشرت جريدة الحياة البيروتية صورة عن استكشاف وتنصير هايتي على يد الاسبان كانت المادة العلمية : انشغل ضباطه وخلفاؤه أول الأمر باستكشاف جزيرة هايتي وكانت ما تزال أرض شاسعة مجهولة وقد تولى هذه المهمة كل من فلاسكيز ودونارفيز فأبديا من ضروب الوحشية ما لم يسبق له مثيل متفننين في تعذيب سكان الجزيرة بقطع أناملهم وفقئ عيونهم وصب الزيت المغلي والرصاص المذاب في جراحاتهم أو بإحراقهم أحياء على مرأى من الأسرى ليعترفوا بمخابئ الذهب أو ليهتدوا إلى الدين .!! وحاول أحد الرهبان إقناع الزعيم " هانيهاي "باعتناق الدين .. وكان مربوطا إلى المحرقة فقال له : إنه إذا تعمد يذهب إلى الجنة فسأله الزعيم الهندي وهل في الجنة اسبانيون فأجابه الراهب: طبعا ، ماداموا يعبدون الإله الحق ! فقال الزعيم الهندي : إذن ، أنا لا أريد أن أذهب إلى مكان أصادف فيه أبناء هذه الأمة المتوحشة ([٢٦٦])!!.

يقول غوستاف لوبون عن محاكم التفتيش: "يستحيل علينا أنْ نقرأَ دون أنْ ترتعد فَرائِصُنا من قصص التعذيب والاضطهاد ، التي قام بها المسيحيُّون المنتصرون على المسلمين المنهزمين، فلقد عمدوهم عنوة، وسلموهم لدواوين التفتيش، التي أَحْرَقت منهم ما استطاعت من الجموع، واقترح القَسُّ بليدا قطعَ رؤوس كل العرب، دون أيِّ استثناء ممن لم يعتنقوا المسيحيةَ بعد، بما في ذلك النساء والأطفال، وهكذا تَمَّ قتلُ أو طردُ ثلاثةِ ملايين عربي". وقريبًا من هذه المذابح جَرَى بين المذاهب النَّصرانيَّة، وقال أن " الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من ١٤٠٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية وانتهى بقوله : ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين الاسبان من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين . ([٢٦٧])

فقد أقام الكاثوليك مذابحَ كبيرةً للبروتستانت، منها مذبحة باريس (١٥٧٢م)، وقُتِلَ فيها وإثْرَها ألوفٌ عِدَّة وَسْطَ احتفاء البابا ومباركته، ومثله صنع البروتستانت بالكاثوليك في عهد الملكة أليزابات؛ حيث أصدرت بِحقِّهم قوانين جائرة، وأعدمت ١٠٤ من قِسِّيسي الكاثوليك، ومات تسعون آخرون بالسِّجن، وهدمت كنائس الكاثوليك وأخذت أموالهم. وهذه العقيدة مأخوذة من

([٢٦٥]) – الحركة الصليبية ، سعيد عبدالفتاح عاشور ج١ ص ٣٠ ط١ سنة ١٩٦٣ .
([٢٦٦]) – التبشير والإستعمار ، فروخ وخالدي ص ١٢٣ عن الحياة السنة ٩ عدد ٢٤٩٤ حزيران ١٩٥٤ .
([٢٦٧]) – حضارة العرب ، غوستاف لوبون ص ٢٧٠ ،٢٧١، ٢٧٣ ترجمة عادل زعيتر .

الكتاب المقدَّس، فالأمر بقتل الأطفال في يسوع (٦ :٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٧)، (٨: ١، ٢، ٢٨، ٢٩)، صمويل ١٥: ٢ – ٣، التثنية ٢: ٣٣، ٣٤/ ٣: ٦، ومثلها كثير، حول الأمر بالإبادة الجماعية ([٢٦٨]).

وفي العصر الحديث العسكري (الملاك الشِّرِّير) ينزل الأرضَ، فيقتل، ويرمل، ويثكل، ويتيم باسم الربِّ يسوع، ثم يليه (الملاك الطَّيِّب) الراهب، الذي يأتي كأن لم يدرِ ما حصل، باسم الرب يسوع؛ لينقذ الهالك ويُطعم الجوعان ويأوي اللاَّجئ، أليس هذا مكرًا تواصَوا عليه؟! أليس الراهب محميًّا من المجرم؛ ليقوم بعملية الاصطياد؟! أليس القاتل هو مَن جَهَّز الطرائد للراهب؟! ماذا يُسمون هذا؟ إكراه، أم مكر بالليل والنَّهار؟!

مما سبق نستطيع القولَ بأنَّ النصرانية يرتبطُ تاريخها بالسَّيف والقهر، الذي طال حتى أتباع النصرانيَّة، والاضطهاد النصراني يتميَّز بقسوة ووحشية طالت النِّساء والأطفال ودور العبادة، وقد جرت هذه الفظائع على يد الأباطرة بمباركة الكنيسة ورجالاتها، وكانت الكنيسة قد سنَّت القوانين التي تدفع لمثل هذه المظالم، وتأمُر بقتل المخالفين ([٢٦٩])، ومن ذلك أنَّ البابا إينوشنسيوس الثالث (ت١٢١٦م) يقول:"إنَّ هذه القصاصات على الأراتقة (الهراقطة) ، نحن نأمر به كلَّ الملوك والحكام، ونلزمهم إياه تحت القصاصات الكنائسيَّة"، وفي مجمع توليدو في إسبانيا قرر أن لا يؤذن لأحد بتولِّي الملَّة إلا إذا حلف بأن "لا يترك غير كاثوليكي بها، وإن خالف، فليكن محرومًا قُدَّامَ الإله السرمدي، وليصر كالحطب للنار الأبدية".

لقد قالوا: إنَّ الإسلام انتشر بالسيف، وهذا مجرد زيف واختلاق، وليس في تاريخ جهادنا ما نخجل منه، والمسلمون غلبوا بالقُوَّة وسادوا بالرحمة. ونقول لهم: إذا كان بيتك من زجاج، فلا ترجم الناسَ بالحجارة ([٢٧٠]).

التاريخ الإجرامي للكنيسة([٢٧١])

يقدم الكاتب الألماني كارل هاينز ديشنر في كتابه الموسوعي عرضًا تاريخيًّا للحروب والمذابح، التي قامت بها الدول والكنائس والمجتمعات المسيحية باسم الديانة المسيحية، مُتتبعًا العصور المسيحية كافَّة من بداية نشأتها، وحتى القرن السادس عشر، أخذ هذا العرضُ ثمانيةَ مجلدات كاملة في أكثرَ من ثمانية آلاف صفحة، ثم زاد عليها مجلدين آخرين، واعتمد فيها على قدرٍ غير مسبوق من المراجع والمخطوطات.

الكاتب كارل هاينز له عدة كتب وروايات مترجمة، وقد تُرْجِمَ له إلى العربية كتابُ "المسيحية والديانات العالمية"، استحوذ الكتاب على اهتمام بالغ من الرأي العام الألماني، وبخاصة من المتدينين والقائمين على الكنائس فيها، وأثار ضجةً كبيرةً؛ بسبب مَوْقفه الشديد ضِدَّ الكنيسة والمسيحية، ورفض الكاتب بشدة ذلك التفريقَ بين المسيحية كدين وبين مُمارسات الكنيسة، معتمدًا في ذلك على أنَّ هذا التفريق في أوروبا بين المسيحية والكنيسة تفريقٌ حادث بعد عصور النهضة، وأنَّ الكنيسة تحكم طوال تاريخها باسم المسيحية.

([٢٦٨]) – "الحرب المقدسة"، علي الريس، ص(١٠-٢٠).

([٢٦٩]) – راجع كلَّ هذه الفضائع في "الحرب المقدسة"، علي الريس.

([٢٧٠]) – "مناظرة بين الإسلام والنصرانية"، ج٢ ، ص ١٧.

([٢٧١]) – كتاب التاريخ الإجرامي للكنيسة عرض ملخصه أحمد فتحي، الكتاب يُمثل – ولا شكَّ – حملةً لا هوادة فيها ضِدَّ المسيحية، حملة موثقة بالأحداث التاريخيَّة من كاتب له وزنه، وقد أثار بهذا الكتاب موجات معارضة في أوساط الكنيسة والمثقفين المؤيدين لها، والكتاب يُمثل بالنسبة للمسلمين أهميةً كبيرة؛ حيثُ يكشف ويؤكد كثيرًا من تحريفات وانحرافات الكنيسة، والشاهد عليها من أهلها، ولعل في ترجمة هذا الكتاب ما ينفعُ المسلمين، أو على الأقل ترجمة ما يَخص تاريخ اعتداءات المسيحية على بلاد الإسلام وجرائمها خلال هذه الفترة ، ولكن يمكن الاطلاع على الكتاب في نسخته الأصليه باللغة الألمانية على الرابط التالي
http://www.scribd.com/doc/36450648/Deschner-Karlheinz-Kriminalgeschichte-des-Christentums-1-8

يعالج المجلد الأول "البدايات" الفترةَ الممتدة بين نشأة المسيحية، وحتى وفاة القديس أوغسطين، متتبعًا فيها حروبَ المسيحية ضِدَّ اليهود، ومؤرخًا لحكم قسطنطين الأَوَّل وإحمائه لشدة الحرب ضدَّ اليهود، كما ذكر أسماء القديسين المشهورين في هذا العصر، وعلى رأسهم القديس أوغسطين وأثناسيوس وأمبروز، الذين يُحمِّلهم كارل هاينز مسؤوليةَ تبرير "الحروب المقدسة" دينيًّا.

يتناول المجلد الثاني "أواخر العصور القديمة" الفترةَ من بداية حكم أولاد القيصر الروماني، إلى فترة القضاء على القوط الشرقيين والوندال في حكم جستنيان الأول، ويُبيِّن فيه كيف كانت الظروف مهيأة جدًّا في روما القديمة للكنيسة الرومانية، ويشرح الأعمالَ الوحشية لرعاة الكنيسة آنذاك، وكيف أنَّ المؤرخين ما يزالون حتى الآن يُحاولون تجميلَ أفعالهم أو السكوت عنها على أقل تقدير.

يعرض المجلد الثالث بالتفصيل "الكنيسة القديمة" وسياساتها الأربع: التحريف، وغسل الدماغ، والاستغلال، والتدمير تحت العناوين التالية:

- ♦ الطابع المسيحي للتحريف.
- ♦ التضليل بواسطة المعجزات وآثار القديسين.
- ♦ استغلال الحج من أجل المكاسب المادية.
- ♦ التضليل وعمليات غسل الدماغ وتخريب الثقافة القديمة.
- ♦ والحفاظ على نظام العبودية والرِّق.
- ♦ غموض التعاليم الاجتماعيَّة والسياسات الاجتماعية الواقعية للكنيسة.
- ♦ تدمير الكتب المسيحية الأخرى وتدمير الوثنية.

المجلد الرابع يقع تحت عنوان "العصور المظلمة"، وهي بدايات العصور الوُسطى من حكم الملك كلوفيس الأول إلى وفاة شارلمان، وهي عصور – بحسب تعبير المؤلف – وحشية وملطخة بالدِّماء، والكتاب يعرض في هذه الفترة انقسامَ الإمبراطورية البيزنطية، وبداية الحرب على الإسلام، وفي هذه الفترة تَحَوَّل الباباوات إلى قادة سياسيِّين، وكان البابا غريغوريوس الأول الكبير مثالاً صارخًا لسياسة الكيل بمكيالين، وهو الذي يبشر دائمًا بالتوبة واقتراب نهاية العالم، في ذات الحين الذي يسعى فيه إلى السُّلطة بكل الطُّرق المشروعة وغيرها، من السجن والتعذيب والخطف والنَّهب، وفي نهاية هذا المجلد يَعرض حياةَ شارل العظيم الذي توصل عن طريق علاقاته النفعيَّة مع الباباوات إلى تبرير حربه وتدميره لمملكتي لومبارد وأفار.... ويسير الكتاب متتبعًا الفترات التاريخية اللاحقة على النحو التالي:

المجلد الخامس: من القرن التاسع إلى القرن العاشر، ويشمل فترةَ حكم الملك لودفيج، وحتى نهاية حكم أوتو الثالث.
المجلد السادس: من القرن الحادي عشر حتى القرن الثاني عشر، ويشمل حكم الإمبراطور هنري الثاني، والقديسين، وحتى نهاية الحملة الصليبية الثالثة. المجلد السابع: من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر، ويعالج فترة حكم الإمبراطور هنري السادس،

حتى لويس الرابع إمبراطور بافاريا. المجلد الثامن: من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر، ويتناول المدَّة من نفي الباباوات في أفينيون حتى صُلح أوغسبورغ الدِّيني.

بعد كل ما ذكر وأكثر.. لم نُجرّم المسيحية ولم نتهمها بالإرهاب؟

فهناك تعتيم إعلامي غربي أمريكي صهيوني لإخفاء جرائمهم المرعبة بحق المسلمين والإنسانية؛ فالذين يرتكبون الجريمة لا يعجزون عن تبريرها وتحميل الآخرين تبعاتها ومسؤولياتها. وهذه طائفة من الحقائق والتقارير والإثباتات .

١ – لم نُجرّم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب رغم الحروب التي أشعلها الغرب، ولم يشهد لها التاريخ مثيلا في الحرب الكونية الأولى، وكان عدد القتلى ٧ ملايين إنسان والجرحى ٢١ مليونا.

٢ – ولم نُجرّمها في الحرب الكونية الثانية، حيث بلغ عدد القتلى ٥٠ مليونا والجرحى ٩٠ مليونا في حين بلغت نفقات الحرب ٣٧ ترليون جنيه استرليني وكانت تكلفة الحرب الباهظة في الساعة الواحدة مليون جنيه.

٣ – لم نُجرم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب رغم همجية ووحشية الغرب، وعلى رأسه أمريكا التي استخدمت أكثر الأسلحة في التاريخ هولا وفظاعة حين قتلت بقنبلتها النووية في اليابان ٥٠٠ ألف إنسان.

٤ – لم نُجرّم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب، رغم أن تأثير طاعون القنبلة الذرية أثّر على السكان الذين يبعدون عنها ١٠٠ ميل، بل إن علامات الإصابة ظهرت على السكان الذين يبعدون عن اليابان آلاف الأميال.

٥ – أمريكا رسول السلام التي تقود الحضارة الغربية الشغوفة بالقتل والفتك والتعذيب، بعد سنوات معدودة تصنع قنبلة تفوق القنبلة الذرية في قوتها بمليون مرة وهي القنبلة الهيدروجينية التي جرى اختبارها في المحيط الهادي في مارس ١٩٥٤.

٦ – لم نُجرّم المسيحية، ولم نصفها بالإرهاب؛ مع أن أمريكا رسول السلام وزعيمة العالم الحر هي من قتلت ٣ مليون و٤٠٠ ألف فيتنامي من أجل تنصيب رئيس موالي لها في الستينيات من القرن الماضي، وهذا الرقم باعتراف وزير الدفاع (روبرت ماكنامارا).

٧ – لم نجرم المسيحية واليهودية ولم نصفهما بالإرهاب والاستعمار الغربي هو من هجّر ٧ مليون لاجئ فلسطيني من أرضهم، ووهبها لليهود بزعم ووعد تلمودي توراتي وتحقيق حلم الهرمجدون البائس.

٨ – لم نجرم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب، رغم أن القوات الأمريكية الحاقدة هي من حوّل جزر سامار الإندونيسية المسلمة إلى النصرانية بالنار والحديد وأطلقوا عليها اسم (الفلبيين)؛ نسبة إلى الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا.

٩ – لم نُجرّم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب، عندما يقول صحفي أمريكي رافق الحملة الدموية على جزر سامار ما نصّه: (إن الجنود الأميركيين قتلوا كل رجل وكل امرأة وكل طفل وكل سجين وأسير وكل مشتبه فيه ابتداء من سن العاشرة واعتقادهم أن الفلبيني ليس أفضل من كلبه، وخصوصا أن الأوامر الصادرة إليهم من قائدهم الجنرال (فرانكلين) كانت: (لا أريد أسرى ولا أريد سجلات مكتوبة) ،كانوا مسيحيين جميعا، ومع ذلك لم نُجرم المسيحية ولم نقل عليهم بالحق ما ادّعوه علينا بالباطل.

١٠- لم يُجرّم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب والاستعمار الصليبي هو من قتل ٨٠ ألف مسلم ومسلمة في جزيرة مدغشقر المسلمة في يوم واحد وبضربه واحدة وبصورة مسرفة لم تشهدها البشرية عبر تاريخها المتطاول ولم يشهدها أدب الحروب على مر العصور.

١١- لم يُجرّم المسيحية ولم نسئ لها، والاستعمار الإيطالي الفاشي هو من قتل ٧٠٠ ألف ليبي ونفذ حرب إبادة لنصف السكان المدنيين الآمنين، ولم نطالب بالثأر لهم، بل ديننا قد ندب إلينا الصفح والمغفرة.

١٢- لم يُجرّم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب والاستعمار الفرنسي هو من قتل ملايين الشهداء في الجزائر المسلمة وفي مذبحة جماعية في مدينة خزاطة الجزائرية التي استشهد فيها ٤٠ ألف موحد لله في يوم واحد.

١٣- لم يُجرّم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب في حرب البوسنة والهرسك، غير أن أحد ضباط الأمم المتحدة يقول: (إنه قضى شهورًا طويلة لا يستمع إلا لطلقات الرصاص ولا يرى سوى قذائف الصرب التي كانت تتوالى تباعًا فوق أشباح الموتى، وهي عطشى لمزيد من الجثث من الرجال والنساء والأطفال المسلمين في مذبحة (سربرنيتشا) المروعة).

١٤- لم نتهم المسيحية بالإرهاب، وقد اعترف قائد القوات الصربية (فوشتيك) لمجلة (ديرشبيجل) الألمانية وقال بالحرف: (لقد قتلت وحدي مئات المسلمين، وقمت شخصيًا بإطلاق الرصاص على الأسرى للقضاء عليهم). وعندما نبهته الصحفية إلى المعاهدات الدولية التي تحرم قتل الأسرى قال: (لم أجد سيارات لنقلهم وأن أرخص طريقة هو قتلهم بالجملة مثلما أجهز رفاقي على ٦٤٠ مسلما.. وكنت أقوم أحيانًا بخرق عيون الاسرى وتعذيبهم أو تهشيم أيديهم ببطء حتى يعترفوا بما أريد).

١٥- كما يؤكد هذا الكلام ويؤكد حقيقة عداء الغرب للإسلام ما صرح به جزار الصرب الأرثوذكس الأصوليين ومجرم الحرب (سلوبودان ميلو سوفيتش)، وذلك حين سُئل عما يفعله في مسلمي البوسنة فقال: (إنني أُطهّر أوروبا من أتباع محمد).

١٦- لم يُجرّم المسيحية ولم نصفها بالإرهاب؛ رغم أنّ (سربرنيتشا) و(بيهاتش) التي أثبتت التقارير ما حدث فيهما ليستا إلا اثنتين من عشرات المدن البوسنية التي تم فيها -طبقًا للإحصائيات- قتل وتعذيب وحرق ما يزيد عن ٣٠٠ ألف مسلم أغلبهم من النساء والأطفال، منهم ٧٠ ألف قضوا نحبهم فورًا في مجازر جماعية و٥٠ ألف معاق وما يزيد عن ١٢٠ ألف مفقود كما تم هدم أكثر من ٨٠٠ مسجد وطرد جماعي قسري لما يزيد عن مليونين ونصف مسلم بلا مأوى ولا طعام ولا خيام.

١٧- لم نتهم المسيحية ولم نُجرّمها، والتقارير تثبت اغتصاب ما يزيد عن ٧٥ ألف جندي صربي داخل ما يقرب من عشرين معسكرًا لأكثر من ٧٠٠ ألف طفلة وسيدة زرعت أرحام الآلاف منهن بأجنّة ذئاب وكلاب بشرية تنتسب إلى حضارة زائفة طاغية متوحشة لا تعرف الرحمة ولا تُمتّ للإنسانية ولا للقيم والمبادئ النبيلة بأدنى صلة.

١٨- ولم نتهم المسيحية يوما، في حين أن عمليات الاغتصاب غالبًا ما كانت تتم على مرأى وأمام الآباء والأبناء والأزواج... وكان جزاء من يتحرك لإنقاذ أي منهن وابلًا من الرصاص يخترق رأسه يرديه صريعًا مضرجًا في دمه.. ووسط هذا الجحيم، تروي بعض التقارير الرسمية الأوروبية ان آلاف الأُسر تعرضت لاعتداءات تفوق الخيال وكلها من قبيل ما ذكرنا.

١٩- يؤكد ذلك تقرير (شفارتز) عضو الحزب الديمقراطي المسيحي وعضو البرلمان الألماني الذي ورد في إحدى نشرات منظمة البر الدولية بتاريخ ١٦/ ١٩٩٢/٧ تحت عنوان (رأيت بعيني) وفيه يقول: (رأيت طفلًا لا يتجاوز عمره الثلاثة أشهر

مقطوع الأذنين مجدوع الأنف.. رأيت صور الحبالى وقد بقرت بطونهن ومُثّل بأجنتهن. .رأيت الأطفال والشيوخ وقد ذُبحوا من الوريد إلى الوريد.. رأيت الكثيرات ممن هُتكت أعراضهن ومنهن من تحمل العار ولم يبق لولادة ما بأحشائهنّ سوى أسابيع.. رأيت صورًا لم أرها في حياتي على أية شاشات تليفزيونية غربية أو شرقية على وجه الأرض.. وأتحدى إن كان لأحد الجرأة والشجاعة لبثها).

٢٠- لم نُجرّم المسيحية، ولم نتهمها بالإرهاب بتسليط الكلاب المدربة على التهام الأعضاء الذكرية لـ ٣٠٠ معتقل في سجن ''أبو غريب''، بعد فتح أرجلهم عنوة عبر قيود حديدية في أيديهم وأرجلهم مثبتة في الحائط ووفاتهم على الفور.

٢١- لم نجرم المسيحية ولا حمّلنا المسيحيين المسؤولية عن مصرع ٦٠ طفلًا من أبناء العراق في سجن ''أبو غريب'' بعد تقطيع أطرافهم أمام أمهاتهم.. عبر ربط الأعضاء الذكرية والألسنة للعديد منهم بالأسلاك الكهربائية..

٢٢- لم نُجرّم المسيحية والمسيحيين رغم وحشية إدارة بوش على العراقيين في سجون الموصل وأم قصر وبوكا وغيرها وعلى مجاهدي طالبان في سجون أفغانستان وفي (جوانتانامو) بـ (كوبا) ، ولم نجرم المسيحية ولا اليهود بما نشرته صحيفة (ديلي ستار) من إسرائيل قد أمدت الأمريكيين بآليات ونظم تعذيب لانتزاع الاعترافات من أسرى ومعتقلي السجون العراقية، حتى بات العسكريون الأمريكيون يستمعون بعناية فائقة إلى خبراء إسرائيليين للتزود بخبراتهم السابقه في التعامل مع المقاومة الفلسطينية.

سؤالي في ختام ما سبق من حقائق مؤلمة تقشعرّ لهولها الأبدان، من هو الوحشي الإرهابي المجرم القاتل ؟ ومن هو الرجعيّ المتخلف يامن تدّعون أننا ملوك الرجعية والتخلّف؟ ولأن كل مسيحي مُتصهين كجورج بوش مثلًا -ربما- يقرأ في صلاته: (يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويُهشم على الصخرة رؤوسهم) ، ولأن وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة (مادلين أولبرايت) حين سألتها مراسلة (CBS) في ١٩٩٦/٥/١١: (سمعنا أن ٥٠٠ ألف طفل عراقي ماتوا حتى الآن، وهذا العدد يفوق عدد الناس الذين ماتوا في هيروشيما وأنت تعلمين بذلك، فهل يستحقون ذلك؟).. فأجابت أولبرايت: (أنا أعتقد أن الخيار صعب للغاية، ولكن هل يستحقون ذلك أم لا، نعم.. أنا أعتقد أنهم يستحقون ذلك) ، ولأن قتل مليارات البشر والحماقات القائمة على التلمود والميثولوجيا والأساطير تُعدّ عند أقوى دولة في العالم (برنامجًا سياسيًا)، حيث تقود العالم نحو الحرية والعدل والسلام والديمقراطية والقيم الإنسانية بسكين لم يحمل بمثل طولها وعرضها جنديّ في مقاطع الذبح الداعشية.

ولأنَّ أقلام المارينز المرتزقة من بني جلدتنا لازالوا يكتبون وهم يعرفون أنه عندما يتفرق القطيع تقوده (العنزة الجرباء)، ولأنهم أنفسهم يؤمنون أن الميت لا يتحرك وأن ميليشياتهم العلمانية الليبرالية النخبوية التي تدّعي الاستنارة والتقدّمية، قد أخلصت وتكفّلت بإخفاء الحقيقة أو تبريرها أو تجاوزها من أجل عيون المصلحة أو المرحلة أو الجحيم.

من هو المجرم الإرهابي وعليكم في البداية أن تعرفوا: أن المبشرين البروتستانت الذين يقولون في الإذاعات (الله محبة) و(على الأرض السلام)، ويريدون نشر قيم الحرية والعدالة والديموقراطية في العالم، قاموا بأبشع جرائم عرفتها الخليقة عبر تاريخها المتطاول ، أمريكا التي تسيطر عليها الطائفة البروتستانتية ، التي تسيطر على أمريكا منذ النشأة. لنقرأ عن إرهابهم ودمويتهم :

١ – عندما استوطن البروتستانت أراضي الهنود الحمر المسماة زورًا (أمريكا)، رفعوا شعارًا اجتثاثيًا هو (التدمير أسهل من التنصير)، وتضمّن كتاب: (العملاق) الذي كتبه (يوردجاك) عام ١٦٦٤، نصائح للقيادات البروتستانتية جاء فيه: (إن إبادة الهنود الحمر والخلاص منهم أرخص بكثير من أي محاولة لتنصيرهم أو تمدينهم؛ فهم همج، برابرة، عراة، متخلفون وهذا يجعل تمدينهم صعبًا).

٢ – أسفرت سياسة الإبادة الأمريكية تلك عن أكبر جريمة في التاريخ؛ ففي خلال قرنين قُتل ١٢٢ مليون هندي أحمر في سبيل تحقيق (الحلم الأمريكي)، وليُسدل الستار الحزين على حضارات (المايا، والازيتا، والبوهانن)، وأقيم صرح أمريكا زعيمة (العالم الحر وحمامة السلام وتمثال الحرية) على جماجم وأشلاء الملايين من البشر.

٣ – بعد فراغ أمريكا من العبيد (الحُمر) قرروا استيراد العبيد (السُمر)، فتحول البروتستانت إلى بحّارة يجوبون سواحل إفريقيا لاصطياد (العبيد) بحشرهم في سفن الموت، وقد جلب الأمريكيون ما لا يقل عن ١٢ مليونًا من الأفارقة المسترقّين، جاءوا بهم من أعالي البحار مُقرّنين في الأصفاد، يا من تتحدثون عن السَبْي في الإسلام والتهجير والاستعباد.

٤ – تؤكد التقارير أن ما لا يقل عن ٢٥ مليونًا من الأفارقة الذين تم شحنهم من (جزيرة جور) الواقعة في مواجهة العاصمة السنغالية (داكار)، قد قضوا نحبهم قبل أن يصلوا إلى العالم الجديد في رحلات الموت والعذاب، وكانوا إذا وصل أحدهم إلى سن لا يستطيع خدمة دعاة (الرحمة والسلام) –أقصد الأمريكيين الأوائل– كانوا يقومون بقتل عبيدهم بـ (رصاصة الرحمة)، وكانوا يحزنون ويتقطّعون أسفًا على ثمن الرصاصة القاتلة (ربما).

٥ – عام ١٩٧٨، صدر تقرير عن منظمة اليونسكو يتحدث عن هول الكارثة الإنسانية التي حلّت بإفريقيا من أجل (بناء) أمريكا دولة (المحبة والسلام)، جاء فيه: (أن إفريقيا فقدت من أبنائها في تجارة الرقيق نحو ٢١٠ ملايين نسمة)، ومع هذا لايزال بعض المفصومين العرب يرفعون عقيرتهم قائلين: أمريكا سيدة السلام ومُحررة العبيد وأميرة سيداو.

٦ – في أتون الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥، أمر الجنرال (جورج مارشال) رئيس الأركان الأمريكي بتنفيذ أكبر عملية قصف تدميري وجحيم مُستعر واسع النطاق في التاريخ للمدن اليابانية الكثيفة السكان، فتم إطلاق ٣٣٤ طائرة أمريكية لإلقاء القنابل الحارقة لتدمر ما مساحته ١٦ ميلًا مربعًا، ولتقتل في ساعات نحو ١٠٠ ألف شخص، ناهيك عن تشريد نحو مليون آخرين!

٧ – ثم خُتم ذلك المشهد الدموي بشلال مرعب من الدماء عندما أقدم الأمريكيون على استعمال السلاح النووي، وكانوا أسبق البشر إلى استعماله عندما أسقطوا قنبلتين فوق هيروشيما وناجازاكي لتحصُد مئات الألوف بلا أدنى تفريق بين مدني وعسكري أو رجل وامرأة، طفل أو نبات أو جماد أو حيوان أو كتاب أو دفتر مذكّرات، يا من تتباكون كما النائحات المستأجرات على شعور الإيزيدية والمسيحي حين يتمّ تهجيرهم –المزعوم– من الموصل وبعض بلدات العراق – وتركّزون على ألبوم الصور وفستان ليلة زفاف الجدّة الكردية التي لم تتزوج بعد وفاة بعلها، والتي احتفظت بسرواله الذي يحمل رائحته في دولاب لم تحترم داعش فيه حميمية السروال!

٨ – في الخمسينيات من القرن الماضي وقعت الحرب الكورية عندما عزل الأمريكيون الحكومة الشعبية وأغرقوا البلاد في حرب طاحنة أشاعت نارًا ودمارًا، يقول (ناعوم تشومسكي) الكاتب وعالم اللسانيات الأمريكي واصفًا نتائج تلك الحرب: (

أشعلنا حربًا ضروسًا، سقط خلالها ١٠٠ ألف قتيل... وفي إقليم واحد صغير سقط ٣٠ ألفًا إلى ٤٠ ألفًا من القتلى أثناء ثورة قام بها الفلاحون).

٩ – أمريكا رائدة الديمقراطية هي أكثر دولة تحارب الديمقراطية في العالم يقول (تشومسكي): (أعاقت حكومتنا الحكومات البرلمانية وأسقطت بعضها في إيران عام ١٩٥٣، وجواتيمالا عام ١٩٤٥، وتشيلي عام ١٩٧٢، ولم تكن أساليب الإسقاط طبيعية ولم يكن القتل العادي هو عمل القوات؛ بل قتل القسوة والتعذيب السادي: تعليق النساء من أقدامهن بعد قطع أثدائهن، وفض بكارتهن، وقطع الرؤوس وتعليقها على خوازيق، ورطم الأطفال بالجدران حتى يموتوا) ، أين اليونيسيف المتباكية على مشاعر الأطفال الذين تعرّضوا للتهجير من بيوتهم خوفًا من دموية (الغولة) داعش، وأين كاميرات محطّاتنا الفضائية التي لطالما ركّزت على دفاتر الرسم وخرابيش الأطفال على الجدران؟

١٠ – بلغ عدد القتلى الفيتناميين عند انتهاء الحرب عام ١٩٧٣، حسب التقرير الذي نشرته مجلة نيويورك تايمز في (١٩٩٧/١٠/٨) والذي أشار إلى أن نتائج الحرب الأمريكية في فيتنام أسفرت عن: (٣.٦ مليون قتيل، و٦ مليون جريح، و١٣ مليون لاجئ).

١١ – ما حدث بين عامي ١٩٥٢ و١٩٧٣، فلا يستحق الخوض فيه؛ لأن القتلى لا تجري في عروقهم دماء أمريكية أو صهيو –إنجيلية، فقد قتل الأمريكان بين العامين المذكورين زهاء ١٠ مليون صيني وكوري وفيتنامي وروسي وكمبودي.

١٢ – وفي (جواتيمالا) قتل الجيش الأمريكي صاحب الكفاءة والشجاعة الخارقة أكثر من ١٥٠ ألف (مُزارع) في الفترة ما بين ١٩٦٦ إلى ١٩٨٦، بالإضافة إلى قتل مئات الآلاف من الأشخاص في مجازر عديدة في إندونيسيا ونيكاراجوا والسلفادور وهندرواس، وفي أنجولا وموزمبيق وناميبيا وغيرها من دول القارة الإفريقية!

١٣ – أمريكا راعية الحرية والديمقراطية هي من ساندت أعتى طغاة العالم أمثال: (سوموزا) في نيكاراجوا، و(بينوشيه) في تشيلي، و(ماركوس) في الفلبين، و(بوتو) في باكستان، و(باتيستيا) في كوبا، و(دييم) في فيتنام، و(دوفاليه) في هايتي، و(سوهارتو) في إندونيسيا، و(فرانكو) في إسبانيا، و(محمد رضا بهلوي) في إيران، ووو.....

١٤ – وجاء دور العراق الذي تصفه نبوءات التوراة والميثولوجيا المحرّفة بأنه مصدر(خطر) على يهود، فقامت أمريكا وبدعم مادي وبشري من دول العبيد العربي بتدمير العراق لتقرّ أعين اليهود وليبوء العبيد وعلماؤهم بما باؤوا به، بينما أنت مُنهمك بعدّ الرؤوس التي أجهزت عليها سكاكين الدواعش.

١٥ – نشرت صحيفة الجارديان البريطانية في ديسمبر ١٩٩١، تقريرًا نقلت فيه عن العقيد الأمريكي (بانتوني مارينوم) وهو يصف عمليات طمر العراقيين في الخنادق أحياء، قال العقيد مارينوم: (من المحتمل أن نكون قد قتلنا بهذه الطريقة آلاف الجنود... لقد رأيت العديد من أذرع العراقيين وهي تتململ تحت التراب وأذرعها ممسكة بالسلاح).

١٦ – سئل (كولن باول) رئيس الأركان الأمريكي سابقًا ووزير الخارجية لاحقًا عن عدد القتلى من العراقيين، فقال: (لست مهتمًا إطلاقًا).*نعم .. لم يكن مهمًا عند (باول) أن ٢٠٠ ألف عراقي قُتلوا أثناء انسحابهم من الكويت، حتى سُمّي الطريق الذي سلكوه بـ(طريق الموت). ويصف أحد الطيارين المشاركين بقوله: (كان الأمر كأنني أُطلق النار على سمك في برميل فأين يهرب؟ وكيف تُحصي الصيد والضربة الواحدة تصيب عشرات الأهداف؟).

١٧ – لم يقتصر الأمر على العسكريين بل قتل ٨ آلاف من المدنيين منهم ٤٣٠ قضوا في ملجأ العامرية أثناء القصف الوحشي الهمجي الذي أطلق عليه الأمريكان اسم: (الحرب النظيفة)؛ لأنها تقوم على استراتيجية التصويب الدقيق باستخدام الحرب الإلكترونية (الذكية) التي تصبح غبية؛ بل وشديدة الغباء وتخطئ الهدف عندما يريدون. ولكنها استراتيجية تُجنب الأمريكيين الاحتكاك المباشر الذي (قد) يُسفر عن سقوط (ضحايا) عسكريين أمريكيين (أبرياء)، هم أبطال هناك بين أقوامهم!

١٨ – هاجمت طائرة أمريكية من نوع (الشبح) ملجأ العامرية بصاروخ (ذكي جدًا) موجه بالليزر، مُحدثًا فتحة في السقف لينفجر في مستشفى الملجأ، وبعد ٤ دقائق تم توجيه صاروخ (شديد الغباء) عبر الفتحة نفسها التي أحدثها الصاروخ الأول ليغلق الانفجار الأبواب الفولاذية التي يبلغ وزنها ٦ أطنان وسمكها نصف متر، ويحرق المئات من المرضى فورًا وتبخّر كثيرون منهم بالحرارة التي بلغت آلافًا عديدة والمتولدة من حمم الانفجار العالي الرهيب، وكان مصير المئات منهم الغليان حتى الموت في مياه المراجل الضخمة المدمرة!

١٩ – بعد المجزرة النضاحة بالدماء تم العثور على ١١ شخصًا قذف بهم الانفجار العنيف خارج الملجأ لمئات الأمتار، وبعد ساعات مُلتهبة استُخرج من الملجأ البقايا السوداء المشوهة (٤٣٠ قتيلًا) وقُدّر أن المئات منهم احترقوا وتبخّروا ولم تعُد ثمّة وسيلة لتحديد هويتهم، ووصف شهود عيان منهم (توم دالي) العضو العُمّالي في البرلمان البريطاني آثار النساء والأطفال المتفحمة على جدران الملجأ، قائلًا: (تفحمت طبعات أقدام وأيدٍ صغيرة على الجدران والسقوف، وانطبعت على جدران الطابق الأسفل عند علامة الماء في الخزانات المتفجرة آثار اللحم البشرى على ارتفاع خمسة أقدام).

٢٠ – السجلّ المروّع والألم الذي يرويه لنا كتاب: (التنكيل بالعراق) لمؤلف إنجليزى هو (جيف سيمونز)، اقرأوا الكتاب لتدركوا أي نوع من الإجرام والوحشية يدمغ أمريكا.. إهداء الكتاب يقول: (إلى المليون طفل عراقي الذين قتلتهم الحرب البيولوجية الأمريكية في عقد التسعينيات، وإلى مئات الآلاف الآخرين الذين سيلحقون بهم في الأشهر والسنوات القادمة).

٢١ – على الغلاف الخلفي للكتاب يقول نعوم تشومسكى: (التنكيل بالعراق سِجلٌ حافل بالجرائم الرهيبة المستمرة، يصدم القارئ، ومن شأنه أن يشعرنا جميعًا بالعار)، ويقول النائب البريطاني (توني بن) واصفًا الكتاب: (إنه سِجلٌ مُتّقد بالغضب وأكاديمي موثق في آن معًا).

٢٢ – مليونان من العراقيين قتلتهم الحرب البيولوجية الأمريكية في التسعينيات كما يذكر ذات الكتاب، مُراسل مجلة نيوزويك الأمريكية يقول: (مررنا بجنود موتى راقدين، وكانوا بلا علامة عليهم، ووجدنا آخرين بُتروا بترًا شديدًا، ساقان في سروالهما على بعد ٥٠ ياردة من نصف الجسم الأعلى)!

٢٣ – صحفي بريطاني آخر علّق قائلًا: (كانت الحرب نووية بكل معنى الكلمة، جرى تزويد جنود البحرية بأسلحة نووية تكتيكية والأسلحة المطورة أحدثت دمارًا يشبه الدمار النووي. استخدمت أمريكا متفجرات الوقود الهواء المسماة Blu-82، وهو سلاح زنته ١٥٠٠٠ رطل وقادر على إحداث انفجارات ذات دمار نووي حارق لكل شيء في مساحة تبلغ مئات الياردات)!

٢٤ – تقرير سرّي لهيئة الطاقة الذرية البريطانية يقدر ما خلفته أمريكا وقوات التحالف في ميادين الحرب في العراق بما لا يقل عن ٤٠ طنًا من اليورانيوم المنضّب، لتتوالى كوارث الحرب الأكثر تسميمًا في التاريخ من غبار وذرات اليورانيوم التي ستستمر في الهبوب على شبه الجزيرة العربية إلى مدى طويل جدًا.

٢٥ – تم تلويث الجو والهواء والتربة والأنهار والأشجار والأحجار بكميات مفزعة من الإشعاع السرطاني، والكارثة مستمرة لآلاف السنوات القادمة والأطفال في العراق يلعبون بدُمى مصنوعة من قذائف اليورانيوم والنتيجة موت سرطاني بطيء مُحتّم.([٢٧٢]).

٥– سر انتشار الإسلام السريع .

إن قوة الإسلام التي ما تزال سببًا في سرعة انتشاره وإقبال رواد الحق إليه، إنما هيَّ في قوة الحق الهادي الذي يظهر باديًا على محياه فالسماحة واليسر والبساطة والفطرة عنوانه ،فأكبر باعث لانتشار الإسلام بارزٌ في فطرته فهو موافق لسنن الله تعالى في الخلقة الإنسانية؛ لأنه يعطي القوى الجسدية حقوقها والقوى الروحانية حقوقها، ويسير مع هذه القوى على طريق الاعتدال حتى تبلغ كمالها، ([٢٧٣]) وسماحته: إذ يضع الإسلام قوانين عادلةً رحيمة مع الأعداء، بدون تدمير، أو ظلم، أو إبادة، أو انتقام؛ فالقرآن يَهدِي للتي هي أقوم، والرسول ﷺ ابتُعِث رحمةً للعالَم كُلِّه مسلمِه وغير مسلمِه[٢٧٤]. ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى دين كتابي غير الإسلام، وإنما تفرد الإسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية، فتحولت إليه الشعوب فيما بين النهرين وفي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وفي فارس، وهيَّ أمة عريقة في الحضارة كانت قبل التحول إلى الإسلام تؤمن بكتابها القديم، وتحول إليه أناس من أهل الأندلس وصقلية كما تحول إليه أناس من أهل النوبة الذين غيروا على المسيحية أكثر من مائتي سنة. ورغبهم جميعًا فيه ذلك الشمول الذي يجمع النفس والضمير ويعم بني الإنسان على تعدد الأقوام والأوطان، ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع ([٢٧٥]).

يعدد الدكتور حسين مؤنس تلك الأسباب، فيقول: (والخلاصة أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل ما يجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا فيها، ثم إن الإسلام يعطي الداخل

([٢٧٢]) – مقالة للصحفية إحسان الفقيه في مجموعة من الصحف والقنوات
المراجع: ١ – (التنكيل بالعراق: العقوبات والقانون والعدالة)، الكاتب البريطاني جيف سيمونز.
٢ – (النبوءة والسياسة)، الكاتبة الأمريكية جريس هالسل.
٣ – (يد الله)، الكاتبة الأمريكية جريس هالسل.
٤ – (البعد الديني في السياسة الأمريكية)، د. يوسف الحسن.
٥ – تقرير مجلة نيويورك تايمز في (١٩٩٧/١٠/٨)، تحت عنوان: (خسائر أمريكا: حرب فيتنام).
٦ – تقرير صحيفة الجارديان البريطانية ٢٠ديسمبر ١٩٩٠، تحت عنوان: (نقرة لعرض الصورة في صفحة مستقلة دفن الجنود العراقيين أحياء).
٧ – (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، أبو الحسن الندوي.
٨ – (المسيح الدجال قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى)، سعيد أيوب.
٩ – (صيحة تحذير من دعاة التنصير)، الشيخ محمد الغزالي.
١٠ – (سفر المزامير العهد القديم)، الكتاب المقدس.
١١ – (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، فرانسيس فوكوياما.
مرسلة بواسطة مدونة الدفاع عن الجزيرة العربية (السعودية)

([٢٧٣]) – الشيخ محمد رشيد رضا: "الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية" مجلة المنار العدد ٢٨ جمادى الأولى ١٣١٦هـ.

[٢٧٤] – الدكتور عبدالحليم عويس: التسامح والزهد في الانتقام، شبكة الألوكة.

[٢٧٥] – عباس محمود العقاد: الإسلام في القرن العشرين، ص٣٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٣.

فيه كل شيء ولا ينتقصه شيئًا، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى، ويجد الطريق إليه فيقف بين يديه خمس مرات في اليوم، ويدعوه دون حجاب، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدنيا، ثم حياة الخلود في دار البقاء، ولا يكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين، واتباع شريعة الإسلام، وكلها خير ومساواة وعدل والحق أن أصدق وصف يطلق على الإسلام في هذا المقام، أنه "دين طيار" ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر، كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح! وإنك لتنظر إلى خريطة الأرض، وتتأمل مدى انتشار الإسلام، فتتعجب من سعته، ويزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي المساحة التي فتحتها الدول وأدخلت الجيوش فيها الإسلام. أما الباقية فقد دخلها الإسلام، وملأ قلوب أهلها دون جيش منظم، أو سياسة مرسومة لذلك!! إنما هو الإسلام نفسه، جعله الله خفيفا على القلوب، قريبا إلى النفوس، ما تكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتى يصل الإيمان إلى قلبه، فإذا استقر في قلبه لم يكن هناك قط سبيل إلى إخراجه منه، فهو الري الذي تظمأ إليه النفوس وتستقي منه، وهو الأمل الذي يخفف على الإنسان وطأة المسير في هذه الدنيا، ويهون عليه الموت، فالموت ليس آخر رحلة الإنسان مع الحياة بل هو المدخل إلى الحياة فحسب، وبعد هذه الحياة حياة هي أسعد وأبقى لمن صدق إيمانه واتقى. ولعل أكبر أسباب خفة الإسلام على القلوب هو: وضوحه وصدقه، فإنك إذ تؤمن بالإسلام لا تؤمن بأسرار أو أمور لا يقبلها عقلك، كما ترى في الأديان الأخرى، حتى الغيب الذي تؤمن به في الإسلام حقيقة، فإن الإنسان لا يرى الله بالعين المبصرة، وإنما يحس به في نفسه، وفي كل ما حوله بالبصيرة المنيرة، والحقيقة الكبرى في هذا الكون هي خالقه، فهو الحق ولا حق غيره، وأنت لا تؤمن بالله؛ لأن داعيك إليه يأتي بمعجزات أو خوارق، وإنما هو يلفت نظرك إلى عجائب الخلق، وكلُّ ما فيه معجز وخارق، وأنت تراه رأي العين في شخصك الذي يعيش ويتحرك ويفهم، لا تدري كيف، فإذا لم تؤمن بالله فكيف تعلل حياتك، وحركة جسدك، ونبض قلبك؟ فإذا آمنت بالله لم يكن لك مفر من أن تؤمن بنبيه صلى الله عليه وسلم الذي حمل إليك رسالته، فالله سبحانه حق، ونبيه صدق، وكل ما يعدك به القرآن حق وصدق، ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة الإسلام حتى في نفسك، وغاية ما تحتاج إليه من يذكرك بها، وهذا معنى من معاني تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم([٢٧٦])).

يقول محمد أحمد عرفة ([٢٧٧]): (لم يشهد الوجود دينًا انتشر بسرعة جاوزت حد العجب، وعم جزءًا كبيرًا من المعمورة ودخل الناس فيه أفواجًا في زمنٍ قليلٍ مثل الدين الإسلامي. فقد انبثق كالفجر يبدو ضئيلًا ثم يستطير حتى يعم الأفق، ثم يشتد النور ويقوى حتى يكون نهارًا مشرقًا منيرًا، يكون فيه للناس غدوٍ ورواح، ومعاشٍ ومتاع.. من ذلك نعلم أن الإسلام كان يسير مسير الشمس في البلاد، ويهب هبوب الريح الطيبة في الأفكار، ويقطع الأرض كأنه الليل والنهار.. إنها لمعجزةٌ تاريخية حقًّا لم تعهد لملة غير ملة الإسلام.. ويرجع سر انتشاره إلى أمرين: في الإسلام نفسه، وفي الداعي إليه وأصحابه وخلفائه من بعده.. أما الإسلام فقد حمل عناصر الحق والخير والقوة، والجمال المعنوي).

ولو تتبعنا أقوال أهل العلم والفكر من الغرب لطال بنا المقام نظرًا لوجود اختلافات بينهم حول هذا السر، يقول فرانشيسكو جابريللي ([٢٧٨]) : (لايزال المؤرخون يختلفون حول ظاهرة انتشار الإسلام كعقيدة كونية وقوة عالمية، إنها بالنسبة لأولئك الذين يدرسون الديناميكية الغامضة لهذه العملية، لا تعد شرقية ولا غربية، كما لا يمكن إعطاؤها أي تحديد جغرافي أو

([٢٧٦]) – دكتور حسين مؤنس، الإسلام الفاتح صـ٢٠ –٢٤، نشر الزهراء للإعلام العربي.

([٢٧٧]) – الشيخ محمد أحمد عرفة: "السر في انتشار الإسلام" صفحات٢–٥ ط١ مطبعة النهضة القاهرة.

([٢٧٨]) – فرانشيسكو جابريللي كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها في جامعة روما، برز في دراسة الشعر العربي من الجاهلية حتى العصر الحديث وفي تحقيق التاريخ الإسلامي. جوزيف شاخت: "تراث الإسلام" جـ ١ص٨٥، عالم المعرفة، الكويت١٩٨٥.

ثقافي إنها فقط القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة. ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي تمت في كل اتجاه، وأنتجت حضارة موحدة إلى حد يدعو إلى الدهشة، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها) .

وفي الوقت الذي لا تستطيع فيه المستشرقة الإيطالية "بيانكا ماريا سكارسيا" ([٢٧٩]) تفسير سر جاذبية الإسلام، فتقول: (إن الشريعة القرآنية تمارس جاذبيتها على ملايين الناس، فالإسلام يشهد بشكل دائم إقبالًا أكثر على اعتناقه، ويصعب تفسير تنامي هذه الظاهرة في أوروبا خاصة، إذ أن الإسلام ينحو لأن يُمثل اليوم خيارًا بديلًا عن الحضارة الغربية)، يرى المستشرق الألماني "أولرش هيرمان" أن الإسلام: (دين جذاب جدًّا، وهذا يعود – ربما – إلى وضوح الرسالة الإسلامية، وجاذبية أخلاقها ولأسباب لا أعرفها!)، ويعجز "هيرمان إيلتز" عن اكتشاف هذه الظاهرة، فيقول: (إن الإسلام هو أسرع الديانات انتشارًا في العالم اليوم.. هناك إذن شيء حقيقي يجذب إليه العديد من نخبة الناس)، بينما تعجب الدكتورة الإيطالية لورا فينشيا فاليري حين تكتشف أن هناك سر يحويه الإسلام يصل إلى أن يكون قوة، ولكنها تعجز عن تحديد مكانها في جغرافية وبناء هذا الدين الذي لا يقاوَم، فتقول: (أية قوة عجيبة تكمن في هذا الدين؟! أية قوة داخلية من قوى الإقناع تنصهر به؟! ومن أي غوْرٍ سحيق من أغوار النفس ينتزع نداؤه استجابة مزلزلة؟!).

ومثلما قرن الشيخ محمد عرفة بين انتشار الإسلام وانبثاق الفجر حيث يبدو ثم يعم الأفق، ثم يشتد النور ويقوى حتى يكون نهارًا مشرقًا منيرًا، جاء رصد ووصف C.A.O. Van Nieuwenhuijze "س .أ .أو. فان نيووينهويجزه" معه من حيث التوصيف والنتيجة ويختلف عنه من حيث الأسلوب، إذ يرى أن انتشار الإسلام: (يشبه بقعة الزيت: فهو تدريجي إلا أنه فعال. كذلك فإن الكثيرين قد أشادوا بالطبيعة السلمية لهذا الانتشار. وبالفعل، كان قبول العقيدة الإسلامية عملية تدريجية. و لم يكن الاهتمام ينصب على النظر بطريقة نقدية في المعتقدات والمواقف، بقدر ما كان ينصب على التمثل الهادئ لعناصر العقيدة والسلوك)([٢٨٠]).

أما سر انتشار الإسلام عند الكاتب الأمريكي ر. ف. بودلي([٢٨١]) فهو التوحيد، فيقول: (إن أعظم الكبائر في نظر الإسلام الشرك بالله، وأن محمدًا لم يدَّعِ لنفسه صفة إلهية، وكثيرًا ما صرح بأنه بشر يوحى إليه، وأن السبب في سرعة انتشار الإسلام عن غيره من الأديان هو عدم ادعاء النبي محمد صفة إلهية، وعدم دعوته إلى عبادة شخصية، وكذلك تسليم القرآن بصحة الديانات المنزلة من قبل) ويقول أرنولد : (إن السر الأول والأهم في الإسلام يكمن في بساطة تعاليمه ووضوحها مما شكل الأثر الأكبر في جذب القلوب نحوه، إذ كل ما يطلب من الذي يدخل فيه هو نطق الشهادتين.. إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة، وإنها لتدخل في نطاق – أقل درجات – الفهم والفطنة، ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات

([٢٧٩]) – بيانكا ماريا سكارسيا العالم الإسلامي وقضاياه التاريخية ص ٢١٤.

([٢٨٠]) – جوزيف شاخت: "تراث الإسلام" جـ ١ص١٧٣، عالم المعرفة، الكويت١٩٨٥.

([٢٨١]) – ر.ف.بودلي، الرسول حياة محمد، ترجمة عبد الحميد جودة السحار و محمد فرج ص ٤٠٨.

الدينية النظرية، فهو دين فطرة بطبيعته سهل، لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف .([٢٨٢])

ولقد لفت انتباه الراصدين من المستشرقين الجانب العقلي التي تتميز به العقيدة الإسلامية، والذي ساهم مساهمة فعالة وواضحة في سرعة قبول هذا الدين بين شعوب وقبائل شتى لها مشارب وعقائد وعقول متباينة، فكانت أوصافهم التي تحيط الدين الخاتم والحق بأوصاف مثل: أنه دين في جوهره دين عقلي([٢٨٣]).وهو الدين الذي يخاطب عقل الإنسان، ويضع يده على بداية الطريق ليحقق السعادة في الدنيا والآخرة [٢٨٤]، بل هو دين العقل، ولا يحتاج مثل هذا الدين إلى القهر والجبر لنشر تعاليمه، ويكفي أن الناس عندما يفهموا أصوله يسارعوا إلى اعتناقه، لأن هذا الدين منسجم مع العقل والفطرة البشرية ([٢٨٥]).

أو كما يقول ((ناجيمو راموني))[٢٨٦]: (إن الإسلام هو أعظم الأديان ملاءمة لجيلنا المتحضر ولكل جيل. فالإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا بحيث تتحول الحياة إلى طريقين مختلفين تمامًا، وهذا يشكل خلاصة الأزمة المعاصرة للإنسان. لقد اعتنقت الإسلام لأنه دين طبقات الناس جميعًا، كبيرها وصغيرها، غنيها وفقيرها، دين الأحرار والعبيد، والسادة والمسودين) .([٢٨٧])

في حين يرى المستشرق الإنكليزي رينولد ألين نيكلسون Reynold Alleyne Nicholson بأن القرآن الكريم هو سر تقدم الإسلام، ولا غرابة في تبنيه لهذا الرأي، فهو الذي قام بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنكليزية، يقول: ((إن من أهم العوامل المؤثرة في تقدم الدين الإسلامي هو القرآن الكريم الذي منشأه الوحي الإلهي للأحكام بوساطة جبرائيل))([٢٨٨])

في المقابل تكتلت ثلة من المستشرقين وغيرهم ممن هالهم سرعة انتشار الإسلام فدأبوا لا على دراسته فحسب بل إعلان الحرب عليه دون مواربة وذلك بترديد الإفك وبث الأكاذيب القديمة/الجديدة تحت ستار البحث العلمي ظنًّا منهم أنها ستساهم في وقف جريان نهر الإسلام العذب، وتأتي على رأس ترهاتهم فرية انتشار الإسلام بالسيف تلك الأكذوبة الفجة التي دحضتها وقائع التاريخ، وأقلام ممن هم من بني جلدتهم من العلماء والأدباء المشهور عنهم الحيدة والالتزام العلمي والمنهجي.

أثبتت الأيام كذب دعواهم الساقطة، فأين هو سيف محمد وأين سيوف الفاتحين من أتباعه التي تجبر أو تُكرِه أو تضطهد؟! ولئن زالت ممالك الإسلام وتَقسَّمت دولًا ودويلات وجثم فوق صدر شعوبها الاستعمار وعانت ما عانت من الاحتلال فلما لم ترتد وتتدين بدين الغالب لتنعم بالحرية والرفاهية رغم ما مارسته أذناب هذا المستعمر من فنون وأفاعيل في تسويق عقيدته..؟! لماذا لم يلفظوا ديانة محمد وشريعة الله من قلوبهم وهم أذلة مستضعفون..؟! ولماذا وهم أراذل الأرض –كما

([٢٨٢]) – توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٤٥٤. Chailley، Marcel، op-cit، p.35 Trimingham، I.S.، Tohe Phases of Islamic expansion et Culture Zones in Africa، p.16. هو بيرديشان: الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق، ص ١٢٨

([٢٨٣]) – إدوارد مونتيه: (١٨٥٦م– ١٩٢٧م)، مستشرق فرنسي، من أصل سويسري، اشتهر بدراساته عن العرب والإسلام، ترجم القرآن إلى الفرنسية، من أشهر مؤلفاته: (حاضر الإسلام ومستقبله).

([٢٨٤]) – الاقتصادي البريطاني الشهير " Christopher Hamont أحمد كريستوفر شامونت،نقلاً عن محمد كامل عبدالصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء ١/٥٠.

([٢٨٥]) – المستشرق (بولن ويلي به).

([٢٨٦]) – مُنصِّر سابق، من غانا بإفريقيا الغربية، أبواه نصرانيان، تلقَّى تعليمه في المدارس التبشيريَّة، أسلَم عام ١٩٦٣م.

([٢٨٧]) – انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٩ / ٥٧ – ٥٨.

([٢٨٨]) – رينولد ألين نيكلسون Reynold Alleyne Nicholson مستشرق إنكليزي معروف، ويعدّ بعد ماسينيون من أهم الباحثين في التصوف والدراسات الإسلامية.

نعتهم أحد أراذل الشرق المبهورين بالغرب – لماذا تهفو فراشات القوي الكوكبي المنتصر الغالب نحو نور الإسلام بلا إكراه أو اضطهاد أو تسويق رخيص بالمغريات كما يفعل الآخر..؟!

كما كذبت وتكذب دعواهم تلك نظرة واحدة على الإحصاءات والبيانات التي توردها بلاد الغرب ذاتها وتثبت انتشار الإسلام بين مواطنيها على أراضيها، لترد الرد المفحم على من يرددون تفاهة وخرافة السيف في نشر هذا الدين، ليعلم بعدها أين يجد سيف محمد. هذا السيف الخالد الساخن الذى يبقر بطون الشرك والذى يمضى بقدر الله؛ فسيف محمد: رحمته، عدله، سيرته، سماحة الدين الذي أُرسل به وسماحته هو صلى الله عليه وسلم؛ فالشاهد من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه لم يُكرِه أحدًا قط على الإسلام، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه؛ امتثالًا لأمر ربه سبحانه، حيث يقول: { لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }[البقرة:٢٥٦].

يؤكد ما نقول المستشرق البريطاني لين بول ([٢٨٩])حين يقول: (إن ما اتصف به "محمد" من الصبر واحتمال المكاره، والعفو عند المقدرة، لبرهان لنا واضح على أنه كان صادقًا؛ إذ يقول: " لا اكراه في الدين " فمحمد ذو يقين راسخ وقوة عزم هائلة) ، أما جورج سيل فقد صرح في النهاية ([٢٩٠])ردًّا على أولئك: (لقد صادفت شريعة محمد ترحيبًا لامثيل له في العالم. وأن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا).

لم ينتشر الإسلام بالسيف، ولكنه انتشر رغم السيوف التي واجهته فلقد تمكن من التوغل في أقطار إفريقيا ومع هذا فلم يسجل التاريخ أي غزوات للمسلمين بل انتشر بالتسرب السلمي البطيء لأنه دين لا يعرف التمييز فلم يفرق بين الأبيض والأسود، ولم ينه أتباعه عن الزواج من نساء البلاد الزنجيات، فتزوجوا وتناسلوا، حتى ذهب بعضهم إلى أن الإسلام هو دين السود بينما المسيحية هي دين البيض.

ويشهد على هذا الكاتب المسيحي الفرنسي "هوبير ديشان" – حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقيا حتى سنة ١٩٥٠ – حين يقول:(إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم يقم على القوة، وإنما قام على الإقناع الذى كان يقوم به دعاةٌ متفرقون لا يملكون حولًا ولا طولًا إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيرًا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطيء من قومٍ إلى قومٍ، فكان إذا اعتنقته الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر انتشار الإسلام أمرٌ آخر، هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، سهلُ التكيف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر) ([٢٩١]). ولقد كتب عالم الأنثربولوجي، س.ك. ميك(١٨٨٥-١٩٦٥) [٢٤] C.K. Meek في كتابه قبائل نيجيريا الشمالية: (إن الإسلام لم يترك أثرًا عميقًا في التركيب الجنسي لهذه الشعوب فحسب، بل أنه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابَعًا حضاريًّا متميزًا)([٢٩٢]). هذه الأخوة التي يقر بها المبشر الأمريكي "ساليب" ([٢٩٣]): (إن المتحول إلى الإسلام يصلي إلى جانب أستاذه! إن الأخوة في الإسلام ليست دينية فحسب وإنما اجتماعية أيضًا. الإسلام لا يرسم خطًّا لونيًا بين الأبيض والأسود).

([٢٨٩]) – لين بول، رسالة في تاريخ العرب (٢٥٦/٢).

([٢٩٠]) – جورج سيل، مترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية.

([٢٩١])– نقلاً عن جـ ١٣ الدكتور أحمد شلبي: الإسلام والقتال ص ١٨

([٢٩٢]) – Tribal studies in northern Nigeria / by C.K. Meek Charles Kingsley London: K. Paul [٢٤]، Trench، Trubner & Co.، ltd.، 1931.

([٢٩٣]) – أساليب: المسلم يواجه المستقبل

وإذا كان الإسلام لم يدخل إفريقيا غازيًا بالسيوف فقد نهج نفس النهج حين دخل آسيا غازيًا القلوب بالرحمة والعدل، وتقف إندونيسيا خير شاهد على هذا وتُحدث من أراد عن انتشار الإسلام في أكثر من ألفي جزيرة فيها دون أن تلامس ثراها أقدام أي جيش إسلامي، وكذلك كان إسلام ماليزيا بدون حروب أو سيوف؛ كما يقول ديدات ([٢٩٤]).

ويذكر الدكتور أحمد شلبي ([٢٩٥]) أنه عاش في إندونيسيا سنوات ورأى بنفسه: (الإسلام وهو ينتشر بين الإندونيسيين بيسر وبساطة، وهو يهزم الديانات الأخرى والأفكار المتعددة ويتقدم إلى الطليعة لا تدفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة البسيطة. فقد سار الإسلام وتسرب في النور وبالدعوة السلمية إلى أكثر من تسعين في المائة من سكان إندونيسيا وهم حوالى مائة وخمسين مليونًا).

لقد انتشر الإسلام بالمحبة الحقيقية عندما ساوى بين جميع أجناس البشر.. وجعل التمايز بالتقوى.. هكذا جاءت الدعوة بالمساواة نظريًّا في آيات القرآن الكريم، وأحاديث نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وتجلت عمليًّا في سلوك المسلمين سواء في حياتهم أو عباداتهم ورصدتها الشاعرة الهندية ساروجيني نايدو ساروجيني تشاتوبادياي (Sarojini Naidu1879 – 1949) التي عاصرت المسلمين ([٢٩٦]) فتقول: (إن الإسلام أول دين ينادي ويطبق الديمقراطية.. عندما ينادي للصلاة في المسجد ويتجمع المصلون تُطبَّق الديمقراطية خمس مرات في اليوم عندما يركع الفلاح والمِلك قائلين "الله أكبر"، وأعجبتني مرارًا تلك الوحدة الإسلامية التي جعلت البشر إخوة بالفطرة)

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه ([٢٩٧]): (لا إكراه في الدين، هذا ما أمر به القرآن الكريم، فلم يفرض العرب على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فبدون أي إجبار على انتحال الدين الجديد اختفى معتنقو المسيحية اختفاء الجليد، إذ تشرق الشمس عليه بدفئها! وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة، هكذا انعطف الناس حتى من بقي على دينه، إلى السادة الفاتحين).

ويقارن بعض الباحثين، أمثال "بيرين"، بين فتح الجرمان للعالم الروماني والفتوحات العربية الإسلامية ويقول: (عندما انتصر الجرمان على الرومان – في القرن الخامس الميلادي – فإن الجرماني – المنتصر – هو الذي انجذب تلقائيًا إلى الروماني – المغلوب – وتخلّى تدريجيًا عن "جرمانيته" و "تَرْوْمَنَ" لأنه لم يكن يحمل دينًا أو ثقافة ليواجه بها مسيحية الرومان وحضاراتهم. أما بالنسبة إلى العرب المسلمين – المنتصرين – فإن سكان البلاد المفتوحة هم الذين انجذبوا إلى الفاتحين المسلمين و"استعربوا"؛ لأن الفاتحين كانوا يحملون عقيدة جديدة ومبادئ حضارة وليدة، أي أخذت هذه الشعوب تعتنق دين الفاتحين المسلمين وتتعلم لغتهم العربية، دون استخدام البعثات التبشيرية أو ممارسة أي شكل من أشكال الضغط. وتؤكد المصادر أن كثيرًا من سكان البلاد، الذين اعتنقوا الإسلام، أسهموا في المراحل التالية لحركة الفتوحات الإسلامية إسهامًا فعالًا ([٢٩٨]).

لا أعتقد أن هناك من يجهل قدر المستشرقة الألمانية الشهيرة الدكتورة آنا ماري شيمل ((Annemarie Schimmel)) ورسوخ علمها وتبحرها في العلوم الإسلامية، ومن ثم فإن شهادتها تقف وحدها دليل صادق يصل إلى حد

([٢٩٤]) – حمد أعظم عظماء العالم صلى الله عليه وسلم ص ٥٩.
([٢٩٥]) – من السيرة النبوية العطرة ج ١٣ ص١٥
([٢٩٦]) – S. Naidu مثاليات الإسلام ص ١٦٩.
([٢٩٧]) – زيغريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب ص ٣٦٤ – ٣٦٦.
([٢٩٨]) – دكتور عادل زيتون: الفتوحات العربية الإسلامية.. قراءة تحليلية. مجلة العربي – العدد ٥١٦ – نوفمبر ٢٠٠١م.

التعريف الجامع المانع حين تقول ([٢٩٩]):(كلا ،إنني لم أجد في القرآن ولا في السنة أي أمر يدعو إلى الإرهاب، أو الاختطاف، أو نص يجيزهما.بل أن مدار الأخلاق في الإسلام هو القاعدة الذهبية).

وينفي المؤرخ والمستشرق الإنجليزي"A. S. Tritton " آرثر ستانلي ترتون (١٨٨١-١٩٧٣) كل هذه الترهات نفيًا تامًا، فيقول ([٣٠٠]) : (أن صورة الجندي المسلم المتقدم وبإحدى يديه سيفًا وبالأخرى مصحفًا هي صورة زائفةً تمامًا). (The picture of the Muslim soldier advancing with a sword in one hand and the Qur'an in the other is quite false).

وقد اعترض الإمام ابن القيم ([٣٠١])على من يعتمد في الخطبة على السيف إشارة إلى أنَّ دين الإسلام فُتِحَ به، فقال: (وكثير من الجهلة كان يمسك السيف على المنبر إشارة إلى أنَّ الدِّين إنَّما قام بالسَّيف، وهذا جهل قبيح من وجهين:

أحدهما: أنَّ المحفوظ أنَّه صلى الله عليه وسلم توكأ على العصا وعلى القوس.

الثاني: أنَّ الدين إنَّما قام بالوحي وأمَّا السَّيف فلمحق أهل الضلال والشرك، ومدينة النبيِّ صلى الله عليه وسلم التي كان يخطب فيها إنَّما فُتحت بالقرآن ولم تُفتح بالسيف).

ولقد قام المستشرق البريطاني سير توماس أرنولد ([٣٠٢]) بأبحاث مستفيضة حول انتشار الاسلام انتهى إلى القول الفصل: (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها "فرديناند وإيزابيلا" دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها "لويس الرابع عشر" المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة).

هذا التسامح الإسلامي الذي لا يجد المستشرق برنارد لويس([٣٠٣]) بُدًّا من الاعتراف به رغم عداوته للإسلام، فيقول: (كان الغرب مهددًا بإمبراطورية مناضلة ومتوسعة، تحفزها صفتان متلازمتان لكل دولة تستهدف القوة، هما شهوة الفتح والشعور بحمل رسالة، ويقويها إيمان متزمت بالصراع الدائم الذي سوف ينتهي بالنصر المحتوم. لكن من الواجب ألا نمضي في هذا التشبيه أبعد مما ينبغي. "ففي حالة الصراع بين أوربا والأتراك" كان هناك ترفع وتزمت من كلا الجانبين، وكان الأتراك هم الجانب الأكثر تسامحًا).

وما أجمل أن يقدم الفن الإسلامي برهانه على سلمية الإسلام الفاتح، فيقول أحمد محمد عيسى ([٣٠٤]): (والواقع أن تطور الفن الاسلامي وانتشاره في بلاد تمتد أكثر من ستة آلاف ميل وفي زمن يقل عن قرن من الزمان، ليس مرده إلى سلطان العرب الحربي وقوتهم العسكرية، بل الى الافكار المثالية التي دلت دائما على أنها أبلغ أثرًا من سلطان الجيوش، ونعود فنقول أنه لو كان انتشار الإسلام بحد السيف، لما قدر لتأثيره وفنونه أن يستمرا أكثر من جيل أو جيلين، ولما وجدنا مادة خصبة لموضوع هذا

([٢٩٩]) – آنا ماري شيمل:سيقهر الماء صم الحجرص ٦٣

([٣٠٠]) – Tritton "الإسلام: عقائد وممارسات" ١٩٥١، Islam: Belief and Practices.، طبعة لندن ص٢١.

([٣٠١]) – الإمام ابن القيم في كتابه: "زاد المعاد" ١/١٧٨.

([٣٠٢]) – توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٢٢٨.

([٣٠٣]) – جوزيف شاخت: "تراث الإسلام" جـ ١ص٢٢٨، عالم المعرفة، الكويت١٩٨٥.

([٣٠٤]) – أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول: الأصول الدينية للفنين الاسلامي والفارسي ص٤٤٢.

الحديث). لقد كافح الإسلام – وهو أعزل – لأن عنصر القوة كامن في طبيعته. كامن في بساطته ووضوحه وشموله، وملاءمته للفطرة البشرية، وتلبيته لحاجاتها الحقيقية.. كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد ([٣٠٥]).

يقول الدكتور محمد حميد الله : (أن محمدًا صلى الله عليه وسلم مع أنه استولى على أكثر من مليون ميل مربع مما يعادل كل أوربا باستثناء روسيا ومع أنه كان يسكن هذه المنطقة ملايين من البشر لم يقتل في كل حروبه من طرف المسلمين إلا مائة وخمسون مسلمًا، إن هذا العدد يعادل كل قتيلًا واحدًا في كل شهر تقريبًا)([٣٠٦]).

إن الدفوع والنقول من الأقوال والشواهد التاريخية والبراهين العقلية كلها تؤدي إلى نفي تلك الفرية الشنعاء عن الإسلام المسالم، ولو لم نقصر بحثنا هذا على موضوعه ونقلناه إلى مجال مقارنة الأديان لبان بدون جهدٍ طويل من هو الدين الأحق بوسمه ووصمه بالانتشار بالسيف ، أكاد أجزم، بأنه لو لم يكن الفاتحين الأول مسلمين، لتبارى المستشرقون في وصف وتمجيد أعمالهم الرائعة، لقد كان إسلامهم هو السبب فيما نالهم من طعنٍ وتجريح على يد هؤلاء المستشرقين ([٣٠٧]).

ومكمن السر الأعظم في هذا الدين هو توحيد المعبود وإفراده بالألوهية وهو أمرٌ مبثوث في الفطرة البشرية السوية قبل تلويثها بالشرك والإلحاد، فإذا مر نور الإسلام ببوصلة التنزيه تحركت حديدة القلوب الصدأة لتنجذب رويدًا في حالات أو فجأةً في حالاتٍ أخرى، فتنفِّض عنها أدران الكفر وتعلن بصوت الحق مثولها الخاضع الخاشع بين يديّ الواحد الحق – عز وجل – والتسليم له بالألوهية الكاملة والعبودية المطلقة بأحلى ما ينطق به الفم كمصب ومنبعه القلب: "أشهد أن لا إله إلا الله"([٣٠٨]).

([٣٠٥]) – سيد قطب: المستقبل لهذا الدين ص٢١.

([٣٠٦]) – الدكتور محمد حميد الله، أحد أعلام الثقافة العربية الإسلامية الكبار في العصر الحديث، وأحد كبار العلماء والدعاة الذين أنجبتهم شبه القارة الهندية بصورة عامة، قضى ما يقرب من نصف عمره بالبحث والتحقيق في أوروبا ودول الشرق الأوسط. محمد حميد الله: محمد – صلى الله عليه وسلم – حياته وأعماله، الطبعة الفرنسية ١٩٨٩.

([٣٠٧])– دكتور محمد بهاء الدين حنفي: "الفتوحات العربية في ميزان الإسلام والتاريخ" ط١ ص١٨٧، القاهرة ١٩١٤.

([٣٠٨]) – مقال باسم " سر انتشار الإسلام " للسيد إبراهيم أحمد على موقع الألوكة تاريخ ٢٠١٤/٢/٩ ميلادي

المراجع والمصادر

- ابن هشام : السيرة النبوية ، عبد الملك بن هشام المعافري ، ت محمد السرجاني ، المكتبة التوفيقية ، مصر
- ابن كثير : صفوة السيرة النبوية ، عماد الدين بن إسماعيل ، ط ٢٠٠٠م ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر .
- ابن كثير : البداية والنهاية ، عماد الدين بن إسماعيل ، ط الأولى ، دار الريان للتراث ، مصر .
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، تحقيق عبد الله القاضي ، ط الثانية ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية بيروت .
- ابن القيم : زاد المعاد ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، ت شعيب الأرناؤوط وغيره ، ط ٢٧ ، ٩٤م ، مؤسسة الرسالة .
- ابن خلدون : المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار العودة ، بيروت .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، شهاب الدين أحمد ، ط الأولى ٨٦م ، مكتبة الهلال ، بيروت .
- ابن سلام : الأموال ، أبو عبيد القاسم ، ت محمد هراس ، ط ٨٨م ، دار الفكر بيروت .
- ابن سيد الناس : عيون الأثر ، محمد بن عبد الله بن يحيى ، ط ١٩٨٦م ، مؤسسة عز الدين ، بيروت .
- إبراهيم : الفضائل الخلقية في الإسلام ، د أحمد عبد الرحمن ، ط ١ ٨٩م ، دار الوفاء ، مصر .
- الأسمر : القدوة في السيرة النبوية ، د أحمد رجب الأسمر ، ط الأولى ٢٠٠٤م ، دار الفرقان ، الأردن .
- آبادي : عون المعبود، محمد شمس الحق آبادي ، ط الثالثة ٧٩م، دار الفكر بيروت .
- ابن أبي شيبة : مصنف أبن أبي شيبة ، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، الأولى ١٤٠٩ هـ ، مكتبة الرشد الرياض .
- أبو داود : سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، دار الفكر ، بيروت .
- أبو شهبة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، د محمد أبو شهبة ، ط الثالثة ٩٦م ، دار القلم ، دمشق .
- أبو زهرة : المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام ، المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية ، ١٩٦٦م ، القاهرة .
- أبو غدة : أحكام السجن ومعاملة السجناء في الإسلام، د حسن أبو غدة ، ط الأولى ٨٧م ، دار المنار الكويت
- أبو يعلى : مسند أبي يعلى ، أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي ، الأولى ٨٤م ، دار المأمون دمشق .
- أبو يوسف : الخراج ، يعقوب بن إبراهيم ، ط الرابعة ١٣٩٢هـ ، المطبعة السلفية ، القاهرة .
- ابن حجر : فتح الباري ، أحمد بن حجر العسقلاني ، ط الأولى ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، مصر .
- ابن حبان : صحيح ابن حبان ، أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، ط الثانية ٩٣م ، مؤسسة الرسالة .
- ابن خزيمة : صحيح ابن خزيمة ، محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري ، ط ٧٠م ، المكتب الإسلامي بيروت .
- ابن الجوزي : الوفا بأحوال المصطفى ، عبد الرحمن بن الجوزي ، ط الأولى ٢٠٠٤ م ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- ابن ماجة : سنن ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، دار الفكر ، بيروت .
- أبو الوفا : الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الإسلامية في شريعة الإسلام ، د أحمد أبو الوفا ، ط الأولى ٢٠٠١م ، دار النهضة العربية .
- أحمد : المسند ، أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- البخاري : صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل ، ط الثالثة ١٩٨٧م ، دار ابن كثير ، بيروت .
- البخاري : الأدب المفرد ، محمد بن إسماعيل ، ط الثالثة ، دار البشائر ، بيروت .
- البروسوي : تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، إسماعيل حقي ، تحقيق محمد الصابوني ، ط الأولى ، دار الصابوني ، مصر .
- البزار : مسند البزار ، أبو بكر أحمد بن عمرو ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، مؤسسة علوم القرآن بيروت .
- البلاذري : فتوح البلدان ، أحمد البلاذري ، ط الأولى ، دار الهلال بيروت .
- بندق : موسوعة القانون الدولي الإنساني ، وائل بندق ، دار الفكر الجامعي ، الإسكندرية .
- بندق : موسوعة القانون الدولي للحرب ، وائل بندق ، دار الفكر الجامعي ، الإسكندرية .
- البوطي : فقه السيرة ، د محمد سعيد رمضان ، ط السابعة ، لا توجد دار نشر .
- بوازار : إنسانية الإسلام ، مارسيل بوازار ، ترجمة عفيف دمشقية ، ط ١٩٨٠م ، دار الآداب ، بيروت .
- بهنسي : القصاص في الفقه الإسلامي ، ط الثانية ، مكتبة الأنجلومصرية .
- الترمذي : سنن الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- التاجي : سيرة النبي العربي ، أحمد التاجي ، ط الأولى ٧٨م ، مطبعة الحلبي ، مصر
- الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبدالله الحاكم ، ط الأولى ٩١م ، دار الكتب العلمية بيروت .
- الحسني : محمد الإنسان الكامل ، السيد محمد بن علوي بن عباس المالكي ، ط الأولى ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- الحداد : أخلاق النبي في القرآن والسنة ، د احمد بن قاسم ، ط ١٩٦١م ، دار الغرب الإسلامي .
- الحوفي : سماحة الإسلام ، د أحمد محمد الحوفي ، ط الثانية ، دار نهضة مصر ، القاهرة .
- الحلبي : السيرة الحلبية ، علي بن برهان الدين ، ط ١٤٠٠ هـ ، دار المعرفة .
- الحكمي : مرويات غزة الحديبية ، حافظ بن محمد عبد الله ، ط ١٤٠٦ هـ ، مطابع الجامعة الإسلامية ، السعودية .
- الجزائري : هذا الحبيب ، أبو بكر جابر ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة .
- جاد المولى : محمد المثل الكامل ، ط الأولى ٩١م ، مكتبة دار المحبة ، دمشق .
- جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية ، محمد أحمد جاد المولى بك ، علي البجاوي ، محمد إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- جويلى : المدخل لدراسة القانون الدولي الانسانى، د سعيد جويلي، القاهرة، ٢٠٠٣
- جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله ، كونستانس جيورجيو ، تعريب محمد التونجي ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت .
- خطاب : الرسول القائد ، محمود شيث خطاب ، ط ٨٩ م ، دار الفكر ، بيروت .
- الخضري بك : الدولة العباسية ، الشيخ محمد الخضري بك ، دار المعرفة ، بيروت .
- خليل : قالوا عن الإسلام ، عماد الدين خليل ، ط الأولى ٩٢م ، الندوة العالمية ، الرياض .
- الدارمي :سنن الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، الأولى ١٤٠٧هـ ، دار الكتاب العربي بيروت .
- الدقس : العلاقات الدولية في الإسلام على ضوء الإعجاز البياني في سورة التوبة ، كامل سلامة ، ط ١٩٦٧م ، دار الشروق ، جدة .
- ديدات : الرسول الأعظم ، أحمد ديدات ، ترجمة ، علي عثمان ، المختار الإسلامي ، القاهرة .

- ديورانت : قصة الحضارة ، ول وايزل ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، ط ٩٨م ، دار الجيل ، بيروت .
- الديك : المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ، محمود إبراهيم ، ط الأولى ١٩٩٧م
- الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، ط الأولى ١٩٨٧م ، دار الكتاب العربي ، بيروت
- رضا : محمد ﷺ ، محمد رشيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الزحيلي : آثار الحرب ، د وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق .
- الزحيلي : الفقه الإسلامي ، د وهبة الزحيلي ، ط الثانية ١٩٨٥م ، دار الفكر ، دمشق .
- زيدان : القصاص والديات في الشريعة الإسلامية ، عبد الكريم ، ط الأولى ٩٨م ، مؤسسة الرسالة .
- فان غلان : القانون بين الأمم ، جيرهارد فان غلان ، تعريب عباس العمر ، ط الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
- القاسمي : محاسن التأويل ، محمد جمال الدين ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر
- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري ، ت أحمد البردوني ، ط ٨٥م دار إحياء التراث العربي .
- الكاساني : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، أبو بكر بن مسعود ، ط الثانية ، ٨٦م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الكاندهلوي: حياة الصحابة ،محمد يوسف، ت محمد إلياس،ط الثالثة ٩٢م،مكتبة فيضي خانة ، الباكستان
- كاستري : الإسلام خواطر وسوانح ، هنري دي ، ترجمة أحمد فتحي ، ط ٩١م ، مطبعة الشعب ، مصر .
- كولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ، كولد تسيهر أكناصي ، ت / محمد موسى ، ط الثانية ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
- السرخسي : شرح السير الكبير للإمام الشيباني ، محمد بن أحمد السرخسي ، تحقيق صلاح المنجد وعبد العزيز أحمد ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ١٩٧٢م
- سيديو : تاريخ العرب العام ، ل. أ . سيديو ، ترجمة عبد الله الشيخ ، ط الأولى ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن .
- سالم : دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د السيد عبد العزيز ، مؤسسة شباب الجامعة ، مصر .
- الشنقيطي : أضواء البيان ، محمد الأمين الشنقيطي ، ط ٩٥م ، دار الفكر ، بيروت .
- الشوكاني : فتح القدير ، محمد بن علي ، عالم الكتب .
- الشامي : سبل الهدى والرشاد ، محمد بن يوسف الصالحي ، دار الكتب العربية ، بيروت .
- شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، محمود شلتوت ، ط ١٩٨٠م ، دار الشروق ، بيروت .
- الصلابي : السيرة النبوية ، د علي محمد ، ط الثانية ٢٠٠٣ ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، مصر .
- الصلابي : الوسطية في القرآن الكريم ، د علي محمد ، ط الأولى ٩٩م ، دار النفائس الأردن .
- الصوري : الحروب الصليبية ، وليم الصوري، ترجمة حسن حبش ، ط ٩٢م ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة .
- الصنعاني : مصنف عبد الرازق ، أبو بكر عبد الرازق الصنعاني ، ط الثانية ١٤٠٣هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- الطبراني : المعجم الكبير ،أبو القاسم سليمان بن محمد الطبراني ، ط الثانية ٨٣ م ، مكتبة العلوم الموصل .
- الطبراني : المعجم الأوسط ، أبو القاسم سليمان بن محمد الطبراني ، ط ١٤١٥هـ ، دار الحرمين القاهرة .
- الطبري : جامع البيان ، أبو جعفر محمد بن جرير ، دار الفكر ، بيروت .
- الطبري : تاريخ الطبري ، محمد بن جرير ، ط الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- عبد الوهاب : محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه ، محمد فهمي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .
- عبد الله : هذا هو الحبيب ، حسام عبد الله ، ط الأولى ٢٠٠٦ ، الشركة الفنية للطباعة .
- عبد اللطيف : السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ،د عبد الشافي عبد اللطيف ، ط الأولى ، دار السلام ، مصر
- العتيبي : الحرب والسلام في الشعر العربي من صدر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي ، د عبد الله محمد ، رسالة دكتوراه ، ١٩٧٧م ، كلية دار العلوم ، القاهرة .
- عثمان : الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام ، د محمد رأفت ، ط ٨٢م ، دار اقرأ ، بيروت .
- العربني : المغول ، د السيد الباز العربني ، ط ٨٦م ، دار النهضة العربية .
- عرفات : ضوء جديد على قصة بني قريظة ويهود المدينة ، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد ١٩٧٣م
- العقاد : عبقرية محمد (ﷺ) ، عباس محمود ، ط الثانية ٦٩م ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
- عليش : منح الجليل شرح مختصر سيدي خليل ، الشيخ محمد عليش ، ط الأولى ٨٤م ، دار الفكر بيروت .
- العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، د أكرم العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ط الأولى ٩٢م
- غانم : مبادئ القانون الدولي العام ، محمد حافظ ، ط الثانية ٥٢م ، نهضة مصر .
- لوبون : حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي ، مصر .
- المبيض : مصلحة حفظ النفس ، د محمد المبيض ، ط الأولى ، مؤسسة المختار ، القاهرة .
- المرصفي : الرسول واليهود ، سعد المرصفي ، ط ٢٠٠٢م ، ابن كثير ، الكويت ، الريان ، بيروت .
- المباركفوري : تحفة الأحوذي ، محمد عبد الرحيم المباركفوري ، دار الفكر .
- المباركفوري : الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، ط الثانية ٩١م ، دار إحياء الكتب العربية
- محمود : عالمية الدعوة الإسلامية ، د علي عبد الحليم ، ط الرابعة ٩٢م ، دار الوفاء ، مصر
- المقدسي : الأحاديث المختارة ، محمد بن عبد الواحد المقدسي ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، مكتبة النهضة مكة المكرمة .
- مسلم : صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- الملاح : الوسيط في السيرة النبوية ، د هاشم الملاح ، ط الأولى ٢٠٠٣م ، دار النفائس ، الأردن
- اللحام : هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي ، حنان اللحام ، ط الأولى ٢٠٠١م ، دار الفكر دمشق .
- لوثروب : حاضر العالم الإسلامي ، لوثروب ستودارد ، ترجمة حجاج لويهضي ، ط الثالثة ، دار الفكر .
- المناوي : فيض القدير ، عبد الرءوف المناوي ، ط الأولى ، المكتبة التجارية ، مصر
- النسائي : سنن النسائي (المجتبى) ، أحمد بن شعيب ، ط الثانية ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب
- نبوي : دراسات في الأدب الجاهلي ، د عبد العزيز ، ط الأولى ٢٠٠٢م ، مؤسسة المختار ، القاهرة .
- الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن على الحسني ، ط التاسعة ٧٣م ، دار القلم ، الكويت

- النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية ، عبد الله النعيم ، ط الأولى ٩٧م ، المعهد العلمي .
- النووي : صحيح مسلم بشرح النووي ، محيي الدين. بن شرف النووي ، ط الأولى ٩٩م ، دار الفجر .
- هارت : العظماء مائة وأعظمهم محمد ، مايكل هارت ، ت أنيس منصور .
- هيكل : حياة محمد (ﷺ) ، محمد حسين ، ط ٢٠٠١م ، مهرجان القراءة للجميع ، مصر .
- هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكة ، ترجمة فاروق بيضون ، ط الأولى ٦٤ م ، المكتب التجاري بيروت .
- هيف : القانون الدولي العام ، علي صادق هيف ، منشأة المعارف ، مصر .
- هيكل : الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، د محمد خير ، ط الثانية ٩٦م ، دار النفائس ، الأردن .
- الهيثمي : مجمع الزوائد ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، ط ١٤٠٧هـ ، دار الريان للتراث ، القاهرة .
- الهيثمي : موارد الضمآن ، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ولز : معالم تاريخ الإنسانية ، هـ .ج . ولز ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط الثالثة ٦٣م ، لجنة التأليف والترجمة والتوزيع ، القاهرة .
- الواقدي : مغازي الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد ، تحقيق : مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت .
- اللجنة الدولية للصليب الأحمر : اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب لعام ١٩٤٩ م
- اللجنة الدولية للصليب الأحمر : القانون الدولي المتعلق بسير الأعمال العدائية ، جنيف ١٩٩٠م
- أحكام القرآن لابن العربي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، طبعة :١٤٢٢ هـ تحقيق رضا فرج الهمامي.
- الجامع للأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق وتصحيح :محمد زهري النجار، المؤسسة السعيدية، الرياض، السعودية.
- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ مكتبة الصفا، القاهرة.
- الناسخ والمنسوخ لابن خزيمة، طبعة القاهرة، مصر.
- الناسخ والمنسوخ لابن حزم، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للعلامة الشوكاني، نشر محفوظ العلي بيروت.
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية، تحقيق :شعيب وعبد القادر الارناؤوط الطبعة الرابعة عشر` ١٤١٠هـ مؤسسة الرسالة بيروت.
- المغازي للإمام محمد بن عمر الواقدي، تحقيق د :جونس، عالم الكتب، بيروت.
- رحمة للعالمين لسليمان سلمان المنصور فوري، حنيف بكديودلي.
- تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة طبعة ١٤١٤هـ .
- غزوات الرسول دروس وعبر وفوائد للصلابي، أعده للنشر قاسم عبد الله إبراهيم الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ
- إمتاع الإسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للشيخ أحمد بن علي المقريزي، صححه وشرحه محمود ومحمد شاكر، مطبعة لجن التأليف والترجمة بالقاهرة.
- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري، المكتبة الثقافية، بيروت.
- فقه السيرة النبوية لمنير الغضبان، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.
- السيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت لبنان الطبعة التاسعة ١٤١٧هـ .
- طبقات ابن سعد الكبرى، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر.
- مقدمة ابن خلدون، دار الرائد العربي بيروت، الطبعة الخامسة 0413 هـ.
- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة للدكتور وهبة الزحيلي، المكتبة الحديثة.
- أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ.
- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية،
- السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد السرخسي، تحقيق صلاح الدن المنجد وطبعة أخرى من إصدار معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، مصر.
- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية لمحمد خير هيكل، دار البيارق عمان، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ
- الأموال للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٤١٠ هـ.
- العلاقات الدولية في الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- الأحكام السلطانية للماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية،، دار الكتاب العربي.
- أحكام المعاهدات في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة لإسماعيل كاظم العيساوي، الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ دار عمار، عمان الأردن.
- أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني للدكتور عثمان جمعة ضميرية الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ دار المعالي، عمان، الأردن.
- حضارة العرب لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر مكتبة الأسرة مصر .
- ردود على أباطيل وشبهات حول الجهاد، عبد الملك البراك، النور للإعلام الإسلامي، عمان، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام، د. محمود إبراهيم الديك، المكتبة الوطنية، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م
- نظرية الحرب في الإسلام، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م
- قضايا الفقه والفكر المعاصر، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م -- التعاون والاشتراك في جيوش غير المسلمين، محمد السعيد النحاس، دار التقوى، القاهرة، ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م .
- سنن أبي داود السجستاني، دار الفكر، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة
- المسند للإمام أحمد بن حنبل، شرح :أحمد شاكر، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأول ١٤٠٧ .
- شرح معاني الآثار للإمام أبي جعفر الطحاوي، تحقيق وتعليق :محمد سيد جاد الحق، نشر مطبعة الأنوار المحمدية.
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للإمام محمد بن علي الشوكاني، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، مصر.

- نصب الراية لأحاديث الهداية للعلامة جمال الدين الزيلعي الحنفي، نشر المكتبة الإسلامية الطبعة الثانية
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح عبد العزيز ين باز، نشر رئاسة البحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية.
- لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت.
-تاج العروس من جواهر القاموس للعلامة محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، إصدار وزارة الأعلام الكويتية.
-القاموس المحيط للفيروز أبادي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، تحقيق الدكتور: محمود مسعود أحمد طبعة ١٤٢٣ هـ.
- معجم مقاييس اللغة لأحمد فارس بن زكرياء أبو الحسين، تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر
- محيط المحيط للبستاني، مكتبة لبنان، طبعة ١٩٨٠ هـ.
-المطلع على أبواب المقنع لعلامة شمس الدين البعلي، المكتب الإسلامي 0410 هـ.
-مواهب الجليل لشرح مختصر خليل للعلامة أبي عبد اله محمد بن محمد المعروف بالحطاب، الطبعة الثانية.
-حاشية الخرشي على مختصر خليل للعلامة محمد الخرشي المالكي، دار صادر، بيروت.
-بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للإمام علاء الدين أبي بكر الكاساني، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ.
-المبسوط لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية.
-الخراج للقاضي أبي يوسف، الطبعة السادسة نشر قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة، مصر.
- السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني(مع شرحه للسرخسي)طبعة ١٩٠٠م
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم الطبعة الأولى.
- المغني لابن قدامة، دار الكتاب العربي، 0293 هـ.
- الأم للإمام الشافعي، أشرف على طبعه وتصحيحه محمد زهري النجار، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية.
- إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لأبي بكر عثمان بن محمد شطا الدمياطي، الطبعة الأولى١٤٠٥هـ عناية محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- اختلاف الفقهاء للإمام أبي جعفر الطبري، يوسف شخت، ١٩٢٢
- المحلى للإمام أبي محمد ابن حزم، وصححه زيدان أبو المكارم، نشر مكتبة الجمهورية العربية
- **ابن القيم : إعلام الموقعين** ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٨٧م ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- **إبراهيم : الفضائل الخلقية في الإسلام** ، د أحمد عبد الرحمن ، ط ١ ٨٩م ، دار الوفاء ، مصر
- **آبادي : عون المعبود**، محمد شمس الحق آبادي ، ط الثالثة ٧٩م، دار الفكر بيروت .
- **ابن أبي شيبة : مصنف أبن أبي شيبة** ، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، الأولى ١٤٠٩ هـ ، مكتبة الرشد الرياض .
- **أبو يعلى : مسند أبي يعلى** ، أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي ، الأولى ٨٤م ، دار المأمون دمشق .
- **ابن حبان : صحيح ابن حبان** ، أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، ط الثانية ٩٣م ، مؤسسة الرسالة .
- **ابن خزيمة : صحيح ابن خزيمة** ، محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري ، ط ٧٠م ، المكتب الإسلامي بيروت .
- **– ابن الجوزي : الوفا بأحوال المصطفى** ، عبد الرحمن بن الجوزي ، ط الأولى ٢٠٠٤ م ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- **الأصبهاني : العظمة** ، عبد الله بن حيان الأصبهاني ، الأولى ١٤٠٨ هـ ، دار العاصمة الرياض .
- **البزار : مسند البزار** ، أبو بكر أحمد بن عمرو ، ط الأولى ١٤٠٩هـ ، مؤسسة علوم القرآن بيروت .
- **البلاذري : فتوح البلدان** ، أحمد البلاذري ، ط الأولى ، دار الهلال بيروت .
- **بهنسي : القصاص في الفقه الإسلامي** ، ط الثانية ، مكتبة الأنجلومصرية .
- **الحاكم : المستدرك على الصحيحين** ، محمد بن عبدالله الحاكم ، ط الأولى ٩١م ، دار الكتب العلمية بيروت .
- **الحسني : محمد الإنسان الكامل** ، السيد محمد بن علوي بن عباس المالكي ، ط الأولى ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- **الحوفي : سماحة الإسلام** ، د أحمد محمد الحوفي ، ط الثانية ، دار نهضة مصر ، القاهرة .
- **الجزائري : هذا الحبيب** ، أبو بكر جابر ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة .
- **جاد المولى : محمد المثل الكامل** ، ط الأولى ٩١م ، مكتبة دار المحبة ، دمشق .
- **جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله** ، كونستانس جيورجيو ، تعريب محمد التونجي ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت .
- **الخياط : المؤيدات التشريعية** ، د عبد العزيز الخياط ، ط الثانية ١٩٨٦م ، دار السلام القاهرة
- **خطاب : الرسول القائد** ، محمود شيث خطاب ، ط ٨٩ م ، دار الفكر ، بيروت .
- **الدارمي : سنن الدارمي** ، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، الأولى ١٤٠٧هـ ، دار الكتاب العربي بيروت .
- **دوكوري : التدابير الواقية من القتل** ، عثمان ، ط الأولى ١٩٩٩م ، دار الوطن ، الرياض .
- **رضا : محمد ﷺ** ، محمد رشيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **زيدان : القصاص والديات في الشريعة الإسلامية** ، عبد الكريم ، ط الأولى ٩٨م ، مؤسسة الرسالة .
- **القاسمي : محاسن التأويل** ، محمد جمال الدين ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر
- **كاريل : الإنسان ذلك المجهول** ، ألكسس ،ترجمة : شفيق فريد ، ط الثالثة ١٩٨٤م ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- **الكاندهلوي: حياة الصحابة** ،محمد يوسف، ت محمد إلياس،ط الثالثة ٩٢م،مكتبة فيضي خانة ، الباكستان
- **سيديو : تاريخ العرب العام** ، ل. أ . سيديو ، ترجمة عبد الله الشيخ ، ط الأولى ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن .
- **الصنعاني : مصنف عبد الرازق** ، أبو بكر عبد الرازق الصنعاني ، ط الثانية ١٤٠٣هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- **الطبراني : المعجم الكبير** ،أبو القاسم سليمان بن محمد الطبراني ، ط الثانية ٨٣ م ، مكتبة العلوم الموصل .
- **الطبراني : المعجم الأوسط** ، أبو القاسم سليمان بن محمد الطبراني ، ط ١٤١٥هـ ، دار الحرمين القاهرة .
- **عبد الوهاب : تعدد نساء الأنبياء** ، اللواء أحمد عبد الوهاب ، ط الأولى ، مكتبة وهبة ، مصر .
- **عبد الوهاب : محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه** ، محمد فهمي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .
- **عبد الله : هذا هو الحبيب** ، حسام عبد الله ، ط الأولى ٢٠٠٦ ، الشركة الفنية للطباعة .
- **عودة : التشريع الجنائي** ، عبد القادر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .

- **لاشين وآخر : دراسات في السيرة** ، موسى لاشين وصلاح شلبي ، مطبعة الفجر الجديد ، مصر .
- **لوبون : حضارة العرب** ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي ، مصر .
- **المباركفوري : تحفة الأحوذي** ، محمد عبد الرحيم المباركفوري ، دار الفكر .
- **المباركفوري : الرحيق المختوم** ، صفي الرحمن المباركفوري ، ط الثانية ٩١م ، دار إحياء الكتب العربية
- **المبيض : مصلحة حفظ النفس** ، د محمد المبيض ، ط الأولى ، مؤسسة المختار ، القاهرة .
- **المبيض : الموسوعة في الفتن والملاحم وأشراط الساعة** ، د محمد المبيض ، ط الأولى ، مؤسسة المختار .
- **محمود : عالمية الدعوة الإسلامية** ، د علي عبد الحليم ، ط الرابعة ٩٢م ، دار الوفاء ، مصر
- **المقدسي : الأحاديث المختارة** ، محمد بن عبد الواحد المقدسي ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، مكتبة النهضة مكة المكرمة .
- **الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** ، أبو الحسن على الحسني ، ط التاسعة ٧٣م ، دار القلم ، الكويت .
- **هارت : العظماء مائة وأعظمهم محمد** ، مايكل هارت ، ت أنيس منصور .
- **هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب** ، زيغريد هونكة ، ترجمة فاروق بيضون ، ط الأولى ٦٤ م ، المكتب التجاري بيروت .
- **الهندي : إظهار الحق** ، رحمة الله خليل الرحمن ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر
- **الهيثمي : مجمع الزوائد** ، علي بن أبي بكر الهيثمي ، ط ١٤٠٧هـ ، دار الريان للتراث ، القاهرة .
- **الهيثمي : موارد الضمآن** ، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **جماعة من العلماء : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية** ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون .
- **أخلاق الحروب في السنة النبوية** أ. د. راغب السرجاني الطبعة ٢٠١٠م القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،
- **أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية** د . محمد أحمد المبيض ط ١٤٣٨.